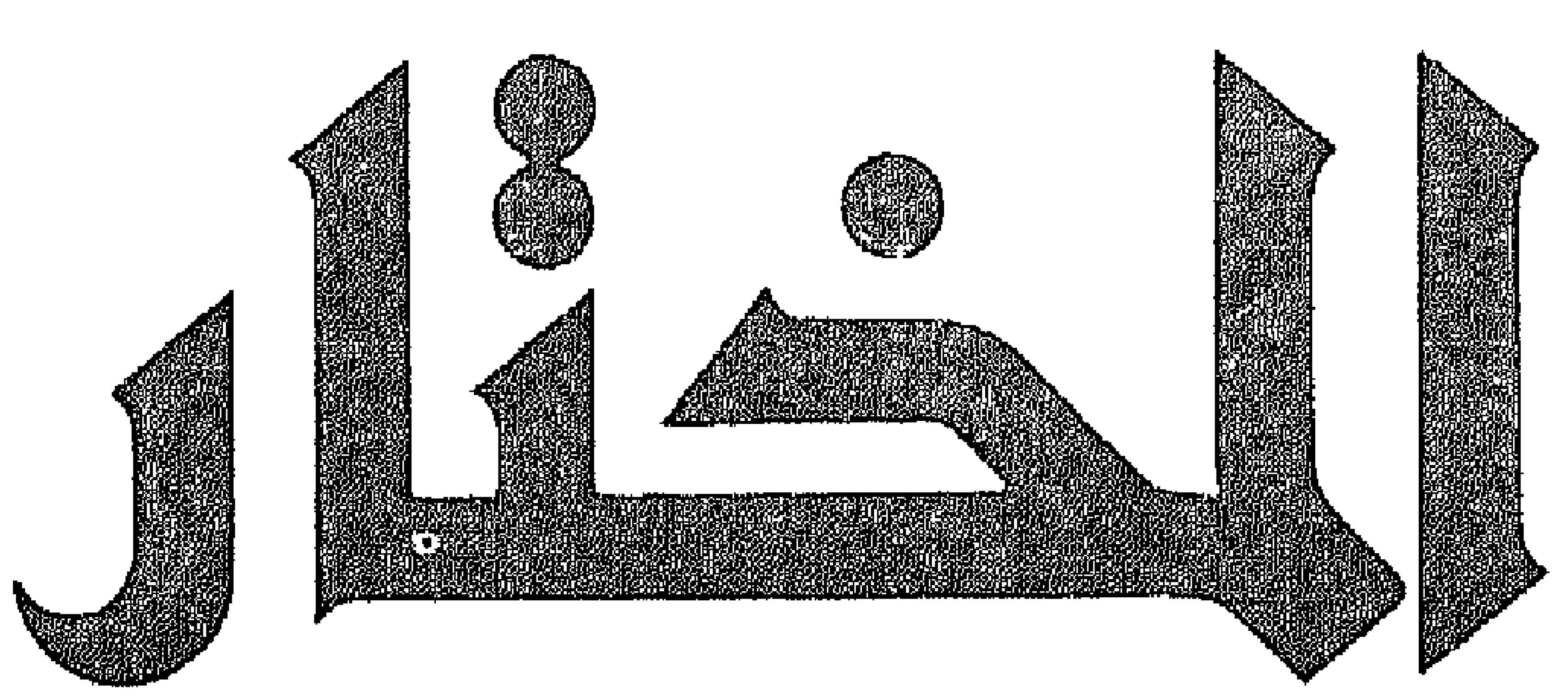
فبراير (شباط) ١٩٩٠ ـ رجب ١٤١٠



AL MUKHTAR min Reader's Digest February '90 N° 135

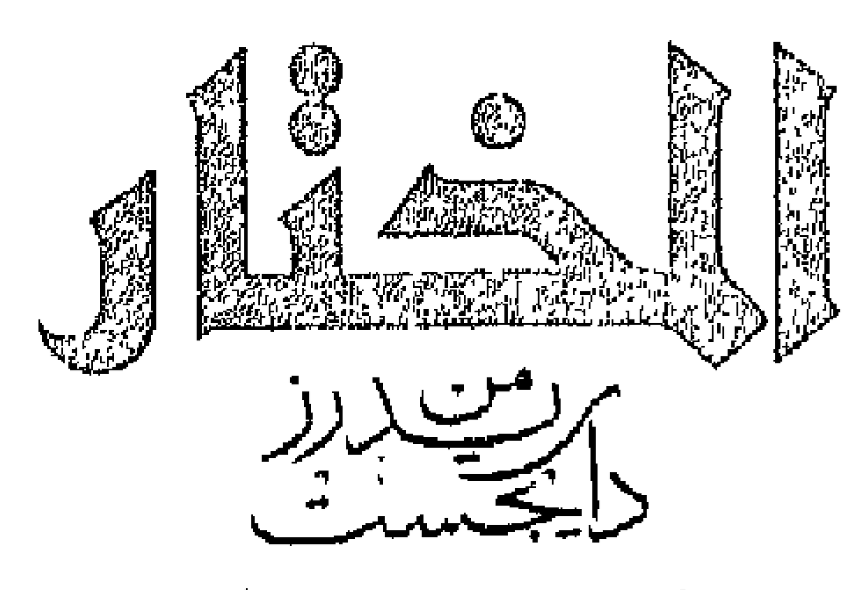
أوسع المجلات انتشارا في العالم
٣٨ طبعة، ١٥ لغة، ٢٨ مليون نسخة شهريا

لانتفاضة
(ص ٤)

وجاع الظهر
اذا يشفيها؟
(ص ٢١)

خطك
طاقة هويتك
(ص ٨٨)





مجـــلة شهـريّـــة

رئيس التحرير ـ المدير المسؤول: ادمون صعب.

مديرة التحرير: راغدة حداد. امينة التحرير: نهلا رزق. محررة مساعدة: لورا نفاع. الاشتراكات: فريال علاف.

مدير القسم الفني: جورج غالي. الخطوط: جبران مطر.

الامتياز: شركة النهار للمنشورات الدولية ـ باريس. الناشر: شركة «ايبراك» للمنشورات الدولية ـ بيروت.

رئيس مجلس الادارة ـ المدير العام: الدكتور لوسيان دحداح.

المدير العام المعاون: داني دحداح ـ باز.

التحرير والادارة: مركز ميرنا شالوحي، بولفار سن الفيل، ص.ب ٥٥٢٢٨ المتن الشمالي ـ لبنان.

الهاتف: ٤٩١٦٣٠ ـ ٤٩٢٦٧٠ التلكس MUKTAR 44615 LE

بناية الشرتوني، شارع المقدسي، ص.ب ٨٧٠٧ بيروت ـ لبنان.

الهاتف ٣٤٥٧٣١ ـ ٣٤٩٤٧٧ التلكس MEM 22288 LE

الصف والتنفيذ: شركة الطبع والنشر اللبنانية.

الطباعة: المطبعة العربية، المدينة الصناعية ـ البوشرية، المتن الشمالي ـ لبنان.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات، بيروت.

AL MUKHTAR min Reader's Digest

Editor-in-Chief: Edmond Saab.

Managing Director: Dany Dahdah-Baz.

Centre Myrna Chalouhi, Blvd. Sin el-Fil, P.O.Box 55228, El-Metn, Lebanon.

Tel: 492670 — 491630, Telex: MUKTAR 44615 LE.

Circulation Audited by G. Bargout C.P.A.

February '90 N° 135 (New Series) Vol. 12

ريــدرز دايجســت

المؤسسان: دي ويت والاس وليلى اتشيسون والاس.

الطبعاتُ الدوليّة

رئيس التحرير: كنيث غيلمور. مدير التحرير: فرنسيس ج. شيل. المدير العام: جورج ف. غرون.

تنشر «ريدرز دايجست» في اللغة الانكليزية (الطبعات الامريكية، الكندية، البريطانية، الاوسترالية، النيوزيلندية، الافريقية الجنوبية، الهندية والآسيوية) وفي الفرنسية (الطبعات الفرنسية، الكندية، البلجيكية والسويسرية) وفي الاسبانية (الطبعات الامريكية اللاتينية والاسبانية) وفي البرتغالية والاسوجية والنروجية والدانمركية والفنلندية والالمانية (الطبعتين الالمانية والسويسرية) وفي الايطالية والهولندية (الطبعتين الهولندية والبلجيكية) والصينية والكورية والهندية، الى العربية.

لبنان ٥٠٠ل ـ سورية ٢٠ل ـ الاردن ٧٠٠ف ـ الكويت ٧٠٠ف ـ الامارات العربية المتحدة ٩د ـ قطر ٨ر ـ البحرين ٨٠٠ف

السعودية ١٠ر ـ مصر ١،٥ج ـ السودان ١ج ـ ليبيا ٥٠٠د ـ ج.ع.اليمنية ٧ر ـ مسقط ٨٠٠ب ـ العراق ٨٠٠ف ـ قبرص ٧٥ب

تونس ٧٠٠م ـ المغرب ٧د ـ الجزائر ٧د ـ فرنسا ١٠ف ـ انكلترا ١ج ـ اليونان ١٣٠د ـ كندا وامريكا الشمالية ٢،٥د



نسكافه ، خلاصة القهوة اللذيذة بالحليب ،
تجعل نهارك مليئاً بالحيوية والنشاط .
إشرب نسكافه في الصباح وفي أي وقت ، وتمتع بطعمها اللذيذ ونكهتها الغنية .
نسكافه ، قهوة ..١ بالمئة صافية سريعة التحضير.

نسكافه قهوة الشباب العصري الناجح.

كلما وجدت نفسك الى جانب الاكثرية فذلك أوان لكي تتلبّث وتتبصّر.

□ مارك توين، كاتب امريكي (١٨٣٥ ـ ١٩١٠)

□ ثمة أمور كثيرة قد تغيِّرنا، لكن العائلة هي البداية والنهاية.

ا.ب.

□ ما لا تستطيع وهبه لا تملكه، بل هو يملكك.

ا.ب.

□ قيل إن العلم عندما يبلغ أخيراً قمّة الجبل سوف يجد أن الإيمان كان مستقرًّا فيها منذ البدء.

ب.ا.

□ تفعل المشورة الصالحة فعلها على نحو أفضل كلما سبقها فزع.

ا.ب

□ النضج يعني استعادة المرء الجدية التي كان يُظهِرها في اللعب وهو طفل.

نيتشه، فيلسوف الماني (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠)

□ اذا أردت لأولادك أن يثبِّتوا أقدامهم في الارض، ضع على عاتقهم بعض المسؤوليات.

ا.ف.ب.

□ نحن لا نعرف رأي المرء من خلال إفصاحه بل من خلال تصرّفه.

إ.ب.س.

□ انه لأمر جَلَل أن يأخذ المرء قراراً بالإنجاب. لكأنه يقرر أن تخرج من جسده فلذة من كبده.

إ.س

Reader's Digest
المختار
فبراير (شباط) ١٩٩٠
رجب ١٤١٠
السنة الثانية عشرة
سلسلة جديدة
مجلة بحجم كتاب ومقال لكل يوم بأسلوب ممتع

«أنا أعلم أن علي الامساك بثائر كل يوم
وضربه كي أزرع الخوف في قلبه.
لكني أشعر أن ذلك يزيده قوة فيما يزيدني ضعفاً»

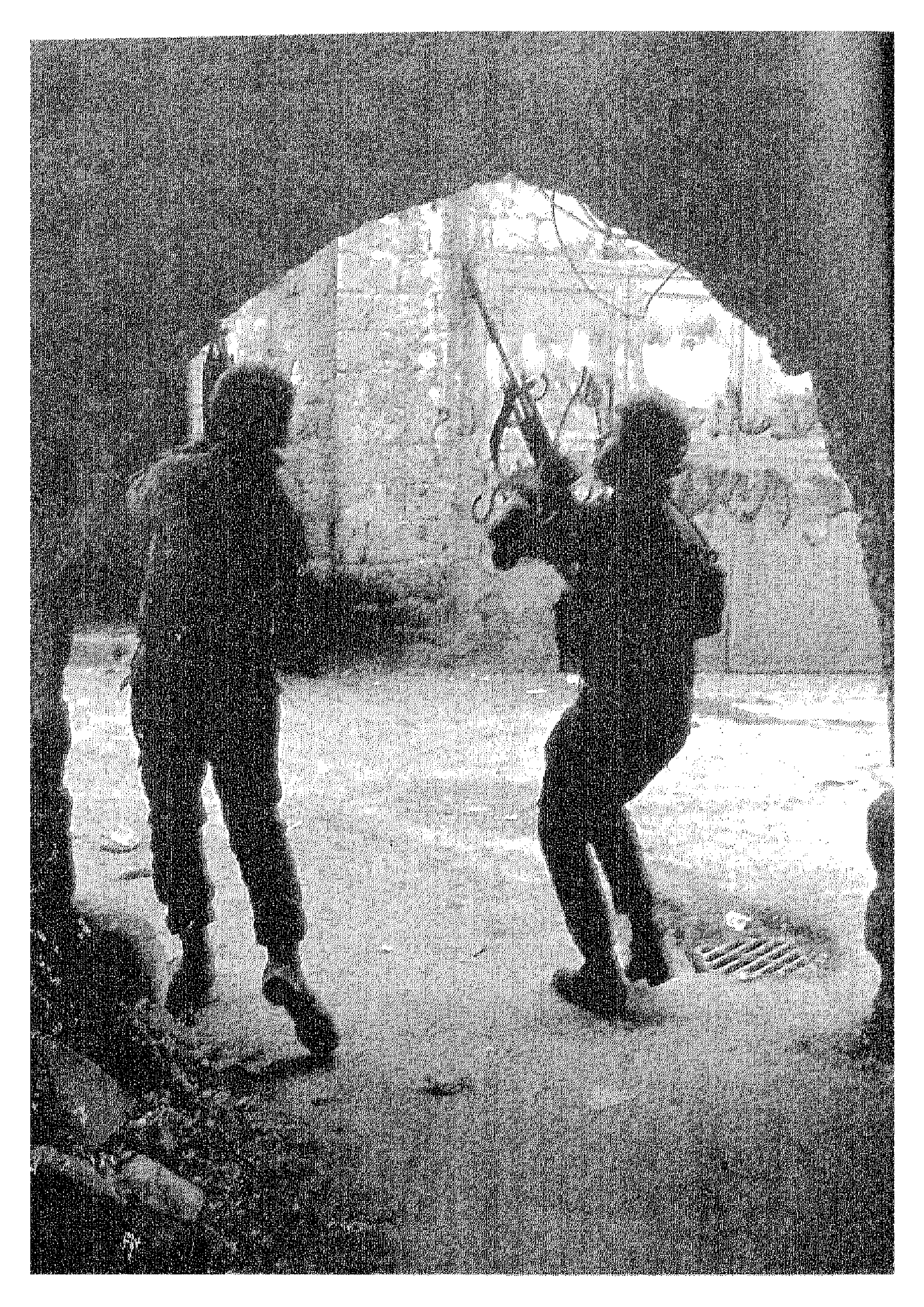
جندي اسرائيلي

الإنتفاضة
دُروس وَعِبَر للعَرب واليهُود

أقفرت أحياء نابلس وأزقتها الشعبية وسادها الهدوء لليوم السادس. وأخضع سكانها العرب العشرون ألفاً لمنع تجول قاس احتجزهم في منازلهم ليلاً ونهاراً انتقاماً لمقتل جندي أسرائيلي قبل بضعة أيام. واذ راح الجندي المظلي الاحتياطي موشيكو غيات وسبعة من عناصر دوريته يتحركون بوجوه مكفهرة عبر الممرات الضيقة المتلوية ويسيرون بحذر في محاذاة الجدران، بدا واضحاً أنهم يشعرون بالخطر يتربص بهم.

وكان يتناهى إلى مسمع الجنود، من وقت إلى آخر، صفير ينبّه «الشباب» إلى اقتراب الدورية الاسرائيلية. ومع كل صَفْرة كان الجنود يحدقون إلى أعلى بحثاً عن حركة قد تدلهم على عربي يكمن لهم كي يرمي أحدهم بحجر ثقيل على رأسه، وهذا ما حدث فعلاً قبل أسبوع حين قُتل الرقيب الاسرائيلي بني مايزنر في هذه الأزقة.

وبعد دقائق أشار أحد الجنود بيده صارخاً: «هناك، على السطح!» وبدا في



جنود اسرائيليون من وحدة «غولاني» الخاصة في الضفة الغربية.

أعلى المبنى شاب يرمقهم بنظرة حادة. وبلمح البصر انطلق الجنود نحو المبنى المؤلف من أربع طبقات، فالتف بعضهم لحماية المؤخر في حين طرق جنديان باباً حديداً بعنف.

وهتف أحدهما بلغة عربية: «دعونا ندخل إفتحوا الباب!»

وفتح لهم رجل عجوز يجر قدميه متثاقلاً. فاندفع خمسة جنود يتسابقون صعوداً على السلالم. وعندما لم يجدوا أحداً على السطح عادوا إلى الشقق يفتشونها واحدة واحدة. وأخيراً خرجوا يجرون فتى هزيلاً مرتعداً. فاقترب منه غيات وانحنى مسدداً أصبعه إلى وجهه وقال: «أني أعرف هذا المبنى وهذا الشارع. واذا أمسكت بك ثانية، فلن آخذك وحدك، بل سآخذ جميع أفراد أسرتك.»

أطلق غيات الصبي مقراً بأن تهديده غير ذي نفع. لكنه أضاف: «قد نخيفه قليلاً.» وهذا بالضبط ما يتوخاه أكثر من ١٠٠٠جندي اسرائيلي هنا في الناصرة وفي أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة، اذ انطلقوا يجوبون الأراضي المحتلة في هذا اليوم الدافىء من مارس (آذار) ١٩٨٩، الشهر السادس عشر من عمر الانتفاضة. قال غيات: «يجب أن نريهم أننا غير خائفين. فنحن المسيطرون هنا.» لكنه اعترف لاحقاً في مركز القيادة الحصين وسط نابلس: «ما نتوخاه فعلاً هو ألا يصاب أحدنا بأذى، وأن نعود إلى بيوتنا سالمين.»



يتوجب على كل بالغ في إسرائيل، باستثناء بعض الحالات النادرة، أن ينخرط في الخدمة العسكرية بعد إكمال الدراسة الثانوية. ومنذ أربعة عقود يعود الرجال مرة في السنة على الاقل لتأدية الخدمة الاحتياطية. وهكذا تعرّض عشرات ألوف الاسرائيليين، بعد قيام الانتفاضة، للرمي بالحجار وقنابل المولوتوف بينما كانت دورياتهم تجوب الأراضي المحتلة. وقد وقع بينهم أكثر من ١١ قتيلاً وأكثر من ١٣٠٠ جريح.

ويمنع الجيش الاسرائيلي جنوده من التحدث علناً عن محاربة الانتفاضة. لكن استثناء نادراً لهذه القاعدة حصل في مقر للجيش قرب بيت لحم حين جلس ثلاثة مظليين في مكتب قائدهم الذي راح يصغي إلى الملازم أوزيا لندر (٢١عاماً) وهو يقول: «لا أتصور نفسي أحارب أطفالاً صغاراً. أنا لم أتدرب على مثل هذا الأمر، ولست فخوراً بتأديته، ولكن لا خيار لي.»

فقبل أسبوعين أُرسل الملازم لندر ضمن دورية، وهو مسلح بهراوة خشبية، ووجد نفسه، كما يقول، في وضع أجبره على ضرب أولاد فلسطينيين. يقول: «عندما يرميك صبي فلسطيني بالحجار، عليك أحياناً استعمال القوة للامساك به.»

كان أول انطباع راود الرقيب إلاد بن دافيد (١٩ عاماً) بعد الانتفاضة هو «الفقر الرهيب.» يقول: «عندما وقفت للمرة الأولى داخل مخيم للاجئين شعرت أنني في بلد آخر. لم أر شيئاً كهذا في حياتي.»

وبعد أشهر كان بن دافيد ضمن دورية في مدينة غزة. قال: «لقد اصطدمت مراراً بأولاد ونساء وأطفال رموا علي حجاراً وبصقوا في وجهي وشتموني. ازاء ذلك يشعر المرء برغبة في الرد. وقد انطلقت مطارداً هؤلاء الناس. لكن أسأل نفسي: ماذا أفعل؟ انهم أطفال صغار، تماماً كأخي.»

وفي العام ١٩٨٨ انطلق بن دافيد في دورية وواجه متاعب تحدث عنها: «فجأة رمتنا مجموعة من الأولاد بالحجار. أمسكنا بأحدهم وحاولنا اعتقاله، لكن حشوداً غاضبة انطلقت الينا.»

هرب بن دافيد ورفقاؤه ومعهم الصبي إلى أن وجدوا أنفسهم محاصرين في نهاية شارع لا منفذ له. ويقول متابعاً روايته: «وقف مئات العرب في آخر الشارع، والنساء والاطفال في المقدم، وراحوا يرشقوننا بالحجار بحيث لم نتمكن من اطلاق النار عليهم. لكننا أطلقنا النار في الهواء، فلم تتفرق المجموعة. وبعد دقيقة أطلقنا الصبي وتسلقنا الحائط وشرعنا نركض. غالبني شعور رهيب آنذاك. كنت مسلحاً. كان من المفروض أن أسيطر على الموقف. لكنهم كانوا الأقوى.»

وجلس إلى جانب بن دافيد جندي آخر هو نصراني من أصل سويسري هاجر إلى اسرائيل قبل ثماني سنوات، وتحول إلى الديانة اليهودية، وأصبح في

فلسطيني يحرس تظاهرة.

العام ١٩٨٧ مواطناً اسرائيلياً اختار لنفسه اسماً يهودياً هو بن أفراهام. وبعد سنتين حان دوره للخدمة العسكرية وهو في الثانية والثلاثين من عمره.

انخرط بن أفراهام، ذو اللحية القصيرة المشذبة، في صفوف الجيش ووجد نفسه يحارب الانتفاضة. يقول: «عندما التحقت بالجيش أُرسلت إلى قطاع غزة. أردت أن أكون شهماً متفهماً. قضيت الأشهر الثلاثة الأولى ضمن دورية في مخيم للاجئين. في الشهر الاول لم أضرب أحداً. وفي الشهر الثاني بدأت أضرب الناس. وفي الشهر الثالث أردت قتل الجميع.» وبعد وقفة سريعة تابع: «خسرت كل ما آمنت به. لم تعد تراودني أي أوهام. فقدت شعوري الانساني.»

حرب شعارات! ذات يوم من شهر مارس (آذار) ١٩٨٩ طار الجنرال أفرام متزنا إلى نابلس وكان آنذاك الآمر العسكري في الضفة الغربية. ومن هناك انتقل في سيارة «جيب» إلى مخيم لوحدة «غولاني» الخاصة وتحدث إلى ١٠٠ جندي أصغوا اليه جالسين على الأرض. قال: «أوجه سؤالي إلى من خدموا سابقاً في الأراضي المحتلة: هل لاحظتم أي فرق عن المرة السابقة؟»

وقف جندي يافع وقال: «إنهم اليوم أكثر اتحاداً في المناطق الشعبية. في كل مرة نتوجه إلى تلك الانحاء يرموننا بالحجار من دون تردد. وقد وقف أحدهم أمام فوهة بندقيتي ولم يأت بحركة. انهم على علم بأوامرنا. فهم يدركون متى يُسمح لنا باطلاق النار ومتى لا يسمح.»

وقال جندي آخر: «نود أن نخدم كمشاة، كما تدربنا، لا كرجال شرطة. السؤال هو: هل ضروري أن نكون هنا؟ أضروري أن ننزع كل الأعلام ونزيل كل الشعارات؟»

من أوامر الدوريات إجبار الفلسطينيين على طلاء الشعارات على الجدران ومصادرة الاعلام الفلسطينية. وذات مرَّة وجد الجنود أنفسهم يطلقون النار في نابلس على أعلام فلسطينية مدلاة في الهواء من بالونات منفوخة بغاز الهيليوم.

وقد شرح الجنرال متزنا الأمر لجنوده: «إنها حرب شعارات، فإن لم تهتموا للأمور الصغيرة فلسوف نضطر إلى معالجة أمور أكبر كثيراً. لقد خفَّت حدة العنف الآن لأننا نعالج موضوع الأعلام والشعارات.» ولهذا السبب أيضاً بدأ الجنود يجوبون أنحاء نابلس الشعبية. وكان الجيش، خلال الأشهر الأولى من عمر الانتفاضة، يكتفي بالبقاء خارج الاحياء. وهكذا، يقول متزنا، استغل الفلسطينيون جو الهدوء والأمان داخل مناطقهم، فنظموا صفوفهم وجعلوا مهمة الجنود في الخارج أكثر صعوبة.

ولدى انتهاء الاجتماع في مخيم



في احياء نابلس الشعبية جنود يضبطون مخبا لاسلحة فلسطينية من صنع منزلي

«غولاني» انتقل الجنرال متزنا إلى المدينة وسط حماية ١٥ جندياً مسلحاً، وسار داخل الأحياء الشعبية. ثم دخل مغارة تحت الارض حيث صادر الجنود بعض السكاكين والفؤوس والاسلحة البدائية قبل بضعة أيام. وظهرت على أحد الجدران نجمة داود مرسومة بطلاء.

لكن الجنرال أمر رجاله: «إنزعوا هذا الشعار! ماذا لو أتى مصورو التلفزيون ورأوه؟»

وبعد جولة في أحياء نابلس الشعبية ركب الجنرال مروحية حلقت به فوق المنطقة. وما ان رآها صبي فلسطيني فوق منزله حتى شرع يرميها بالحجار باهتياج غاضب.

وعندما زار رئيس الوزراء الاسرائيلي إسحق شامير مدينة نابلس في يناير (كانون الثاني) ١٩٨٩، توقف لمحادثة الجنود. فالتفت قائد الكتيبة إلى جنوده مخاطباً: «قولوا ما تشاؤون.» فكانت النتيجة أن شامير سمع أكثر مما أراد أن يسمع.

بادره أحد الجنود: «أنتم تتلقون تقارير عن عدد القتلى والجرحى، لكنكم لا تعلمون شيئاً عن حقيقة الوضع.»

وتكلم جندي آخر بالفظاظة عينها، وقد عرَّف عن نفسه أنه يوتام من طبريا. قال: «إن فرض النظام في الاماكن الشعبية يتطلب عنفاً ووحشية. إننا نخرق الاوامر العسكرية على نحو جلي. لكن هذه الأوامر لا تصلح في الاحياء الشعبية. أنا أعلم أن عليّ الامساك بثائر كل يوم - بعاملٍ يداه خشنتان كيديّ - وضربه كي أزرع الخوف في قلبه. لكني أشعر أن ذلك يزيده قوّة فيما يزيدني ضعفاً.»

مدافن للشباب. باكراً في الصباح تفتح المحلات في المناطق الشعبية ويندفع المئات من السكان العرب لانهاء

أعمالهم قبل الحادية عشرة، موعد اقفال المحلات في إضرابها اليومي. وعند تقاطع في وسط السوق يتحرك «الشباب» بعصبية بحثاً عن الجنود. وتمر صبية على عجلة من أمرها وتقول: «إنهم هناك الآن.» فيتطلع «الشباب» إلى حيث أشارت، ولا يجدون أحداً.

يقول أحد الفتيان واسمه رياض (١٦ عاماً): «حيث لا جنود، نكون نحن. وعندما يأتون نهرب.» ويبدو أن رياض لم ينجح دوماً في الهرب، فآثار الرصاص ظاهرة على ساقه اليمنى. ويضيف: «لقد قبض عليّ سبع مرات. لكننا هنا، بحمد الله، متحدون. إننا عائلة واحدة.»

جولة سريعة في الاحياء الشعبية تريك كم هو على حق. اذ عندما يسير الجنود عبر هذه الاحياء يواجهون شعباً يملأه الحقد. وعلى التلّة يقهقه صبيّ ملوحاً بمسدس لعبة ويتوعَّد: «سنقتلهم. مسدسي محشو وجاهز.»

وعند زاوية يقف محمود (٢٠ عاماً) مع مجموعة أخرى من «الشباب.» لقد أصيب برصاص الجنود الاسرائيليين قبل أشهر. يقول، ويده اليمنى مدلاة إلى جانبه بلا حياة: «كنت أُطيِّر طائرة ورقية تحمل العلم الفلسطيني عندما أطلقوا علي النار. فأصبت في ذراعي. آمل أن أُشفى كي أعود إلى رمي الحجار.»

وفي شارع ناصر وقف شاب حاد النظرات متكئاً إلى صندوق بضاعة. قال: «الشباب أقل عدداً الآن، لأن كثيرين منهم في السجن. ولا يسعنا الهجوم إلا ضمن ساعات محددة. والجيد في الأمر أن في وسع «الشباب» اللجوء إلى أي منزل هنا، وفي أي وقت شاؤوا. فالجميع يستقبلونهم.»

وفي عمق المنطقة الشعبية، في معمل للسكاكر، يجلس رمزي حوش (٦٧ عاماً). ويتحدث بهدوء عن الثورة العربية في العام ١٩٣٦ عندما كان في الرابعة عشرة من عمره، وهو أمضى آنئذ بضعة أشهر في سجن بريطاني. يقول: «استمر الاضراب التجاري ستة أشهر. ولم تكن المحال تفتح أبوابها وإن ساعة واحدة. لكن الشباب اليوم يتمتعون بشجاعة أكبر. فهم حين يرون بندقية اسرائيلية يشرِّعون صدورهم ويقولون: «هيا، اقتلني!»

ويتابع العجوز: «انه لشرف كبير أن يقتلك العدو. اذهب إلى المقبرة الآن، وسترى ستة مدافن أو سبعة جاهزة لاستقبال الشباب.»

يقول أحد جنود الاحتياط الاسرائيليين، دوكس فكسمان: «عندما تتجول، تقرأ في عيون الناس كم يكرهوننا.»

وسجّل احتياطيّ آخر في مذكراته عندما كان يخدم في بلدة قباطية في الضفة الغربية: «عندما يرمقني طفل في الثالثة من عمره بكراهية، أشعر بخجل مما أفعل.»

والكراهية ليست أمراً مفاجئاً، باعتبار أن الأشهر التسعة والعشرين الماضية شهدت مقتل أكثر من ٦٠٠

فلسطيني وجرح ألوف آخرين واعتقال أكثر من ١٠ آلاف وتفجير أكثر من ٣٠٠ منزل وطرد أكثر من ٦٠ فلسطينياً خارج البلاد. ويتساءل بعض الجنود الاسرائيليين كيف سيتمكن هذان الشعبان من التعايش متى انتهى هذا الصراع. ويعتبر الجنرال يهود غروس، رئيس «جهاز الارشاد والتربية» في الجيش، أن أي حلّ ـ سواء أكان بضم الأراضي المحتلة إلى اسرائيل، أم بإقامة دولة فلسطينية، أم باستمرار الوضع الراهن ـ «سينتهي بنا إلى العيش على مقربة من هذا الشعب لوقت طويل، طويل جداً.»

وبمقدار ما يستمر هذا الصراع يزداد التنافر بين الجانبين. يقول موشيكو غيات: «في كل حرب ثمن يدفعه الشعب. والثمن الذي ندفعه هو على حساب أجيالنا الصاعدة التي تبدأ خدمتها العسكرية في مواجهة الانتفاضة. اذ كيف سيتأثر أبناؤنا بعد عشر سنين بالانطباع الذي يكوّنونه عن الفلسطينيين؟»

وقد لخص فكسمان القضية بملاحظة بسيطة: «يبدو أن قنابل الغاز المسيل للدموع التي نُطلقها عليهم، ترتد وتنفجر فينا.»

جويل برنكلي ■

لطفي الطيب الذكر

في ليلة ماطرة تواريت بسرعة داخل سيارة أجرة اتفق مرورها حالما خرجت من مكتبي.

قال السائق: «توقيت رائع. انت مثل لطفي.»

سألت: «من؟»

اجاب: «لطفي حمدي، افضل شخصية تُذكر بالخير. لقد قام بكل شيء على أكمل وجه. مثل هذه السيارة التي أطلت لحظة كنتَ في حاجة إليها. هذا تماماً ما كان يمكن أن يحدث للطفي.»

قلت: «لست أعرف احداً بهذا الكمال.»

قال: «كان رياضيًّا عظيماً وراقصاً رائعاً.»

فسايرته: «لا بد انه كان شخصية فذة.»

تابع: «لم ينس لطفي أبداً أعياد المولد والمناسبات الخاصة. وعرف أي شوكة طعام يستخدم وكيف يتذوق الشراب. وكان لطفي أيضاً رجلاً لكل المهمات. أما أنا فأخرق على الدوام.»

سرعان ما وصلنا إلى حيث أقصد. فقلت وأنا أنزل من السيارة: «لطفي هذا كان نعم الرجل، فلا عجب إن كان بالنسبة إليك افضل شخصية تُذكَر بالخير.»

فرد وهو ينطلق: «وسيكون كذلك في نظرك أيضاً لو تزوجتَ أرملته.»

ف.ف.



كرّس المخترع الهولندي حياته لانتاج محرّك يعمل بجميع أنواع الوقود ولا يتسبب في التلوث ويبدو أن جهوده المضنية بدأت تعطي ثماراً

مُحَرّك الغَد

صبيحة عيد الميلاد، عام ١٩٢٦، مناسبة تذكر في حياة رولف مير الذي كان في السادسة من عمره. فلقد تلقّى في هذا اليوم، في بلدته إيمر كومباسوم بهولندا، مجموعة تركيب من نوع «ماتادور» وهي لعبة تربوية مؤلفة من عجلات ومكعبات وقضبان خشبية. وتضمنت اللعبة، إضافة الى ارشادات الاستعمال، عرضاً تمنح الشركة بموجبه جائزة لمن يبتكر تركيبة مبدعة. فأكبّ رولف على العمل ونجح في ابتكار جسر متحرك بعجلات وبكرات شبيه بالجسر الصغير المجاور لمنزله.

وبعد ستة أسابيع وصلت جائزته، وكانت مجموعة تركيب أكبر من تلك التي لديه. ومضى رولف، سنة بعد سنة، يربح جوائز أكبر فأكبر حتى بلغ السن العاشرة حين تلقّى أكبر ما صنعته الشركة من ألعاب، وهي مجموعة «إلكترو - ماتادور» العملاقة. فصنع منها جهازاً لاسلكياً بدائياً لاقطاً ومرسلاً.

وكبر المخترع الصغير ليصبح واحداً من أهم المهندسين والمخترعين لدى مصانع «فيليبس.» وانساق، على شاكلة توماس أديسون وألكسندر غراهام بل، وراء رؤيا داخلية، غير مبال بالنقد ولا بالنكسات. واندفع نحو مبتغاه حتى النهاية. وقد أمضى هذا الرجل عمره

PHOTOS: STIRLING MOTORS EUROPE, THE HAGUE

يكافح من أجل البلوغ بمحرك «سترلنغ»[1] حد الكمال. والمعروف أن هذا المحرك، الذي لم يعمَّم بعد، غير مسبب للتلوث ويعمل بجميع أنواع الوقود، من أشعة الشمس الى... زيت الزيتون. ونتيجة للتحسينات التي أدخلها رولف ميير على المحرك نال اكثر من مئة براءة اختراع وغدا من أهم المراجع في هذا المضمار.

وعلى أثر تقاعده عن العمل لدى شركة «فيليبس» عام ١٩٧٩، ولما يقوَ الشيب على خطف بريق الأمل من عينيه الزرقاوين، أسس شركته الخاصة «محركات سترلنغ الحرارية المتحدة» في آن آربر بولاية ميشيغن الامريكية. وبعد سنوات من الخيبات المتلاحقة بدأ النجاح يكلل مساعيه في تحويل محرك «سترلنغ» الى الاستعمال التجاري.

نظيف وفاعل. اطلع ميير على فكرة محرك «سترلنغ» في العام ١٩٤٧، أي بعد سنة من تخرجه في الجامعة التقنية في دلفت. فهو قرأ في إحدى المجلات مقالاً كتبه عالم من شركة «فيليبس» عن محرك قد يغيِّر العالم. وكان ميير في ذلك الحين يعمل لدى إحدى الشركات الصغيرة. وعلى الأثر فكر في أن هذا هو بالتأكيد ما يروم عمله، وكتب رسالة الى ن.ف. فيليبس في ايندهوفن مبدياً اهتمامه بالموضوع. فاستجيب لطلبه وضُم الى فريق العمل في مختبرات الشركة. وخلال الأسابيع الأولى من عمله، علم ميير أن الشركة تسعى منذ العام ١٩٣٧ الى ابتكار مصدر جديد للطاقة يزيد مبيعاتها من أجهزة الراديو ومعدات الاتصال في المناطق النائية من أفريقيا والشرق الأوسط والشرق الأقصى. في ذلك الوقت كانت أجهزة الراديو تعمل بالانابيب المفرَّغة، وفي غياب الكهرباء تستمد الطاقة من بطاريات حَمْضية ثقيلة الوزن. وقد أمضت شركة «فيليبس» سنوات تدرس البدائل، الى أن نفضت الغبار في العام ١٩٣٧ عن «محرك الهواء الساخن» الذي اخترعه القس روبرت سترلنغ قبل أكثر من مئة سنة.

ففي العام ١٨١٦، هال القس الاسكوتلندي تفجُّر مراجل البخار التي كانت تمد مضخات المناجم بالطاقة، فصمم وهو في السادسة والعشرين من عمره محركاً يعمل بالاحتراق الخارجي ولا ينفجر. أما طريقة عمل الـ «سترلنغ» فبسيطة: يضغط المكبس (البستون) الهواء داخل أسطوانة، ثم يُسخَّن الهواء من الخارج، فيتمدد المكبس الى أسفل ويدير العمود المرفقيّ. وبعد التمدد يبرد الهواء بواسطة مبرِّد (رادياتور)، واذ ينخفض ضغطه يعود المكبس فيضغطه مجدداً. ويظل الهواء هو ذاته في الداخل.

ومحرك «سترلنغ» نظيف وفاعل لأنه يستهلك الوقود كلياً، بدلاً من قذف مزيج محترق جزئياً من الهيدروكربون

(١) The Stirling Engine

والهواء الساخن. وهو، الى ذلك، هادىء بنسبة ٤٠ ديسيبيل أقل من محركات الديزل ذات الحجم المماثل. كما أنه مصمَّم ليخدم فترة أطول عشر مرات من «عمر» محركات الغازولين (البنزين). ومحرك «سترلنغ» لا يستهلك الزيت، ونادراً ما يحتاج الى تشحيم.

غير أن أهم مزاياه أن الهواء في الاسطوانات (أو غاز الهيليوم اليوم) يُسخَّن من الخارج بأي نوع من الوقود. ولإظهار هذه الميزة صنعت شركة «فيليبس» مرة محركاً للعرض ألحقت به عشرة أنواع من الوقود. وحين أُدير المحرك وبدأ يعمل بهدوئه المعهود مولداً الكهرباء، أبدل الوقود تكراراً: من الكحول الى الديزل، ثم الى زيت الزيتون فالزيت النباتي وزيت التزليق والنفط الخام وغازي البروبين والبيوتين والغاز الطبيعي. كما توصل مير أخيراً الى بناء محركات تُسخَّن بالضوء المركز من أشعة الشمس أو بواسطة نار تضرم في الهواء الطلق.

فرد من العائلة. حين بدأ مير العمل في مختبرات «فيليبس» كان تم تصميم عشرين محركاً من طراز «سترلنغ» وبني بعضها. وفي العام ١٩٤٨ صنع أحد فروع الشركة في دوردركت «مجموعة بنغالو» وهو محرك هادىء ونقال يعمل بالكيروسين ويُولِّد ٢٠٠ واط من الكهرباء.

واستناداً الى الرغبة في تنشيط المبيعات الى البلدان النامية، وُضعت دراسات للانتاج بالجملة. غير أن اختراعاً غير متوقع وضع حداً لهذه المخططات بين ليلة وضحاها.

فيما كان مير يتمشى في ممر داخل المبنى، أخبره أحد أصدقائه: «عليك أن تنسى محركك ذا الهواء الساخن. فلسوف نتمكن قريباً من بيع أجهزة راديو تعمل ببطاريات المشعل الكهربائي.» فلقد اخترع الباحثون في مختبرات شركة «بل» الامريكية جهاز الـ «ترانزستور.» وعلى الأثر تحولت شركة «فيليبس» من الانابيب المفرَّغة الى راديو الترانزيستور. وفجأة انتفت الحاجة الى المولّد «بنغالو».

فكَّر مير مراراً في ترك العمل لدى شركة «فيليبس»: لكنه أيقن أنه لا يستطيع التخلي عن مشروع «سترلنغ.» وهو يقول مستعيداً الى ذهنه تلك اللحظات الحاسمة: «للسترلنغ خصائص رائعة وجميلة. ولقد أدركت أننا لم نحقق سوى ١٠ في المئة من الفاعلية، لكنني أدركت أيضاً أن في وسعنا بلوغ نسبة ٤٠ في المئة أو اكثر، خطوة خطوة. فمن الناحية النظرية يعتبر السترلنغ أكثر محركات العالم فاعلية، ولا يمكنني التخلي عنه.» ازاء ذلك قررت الشركة ترك مير وفريقه يعملون على تحسين الـ «سترلنغ» أملاً ببروز حاجات تجارية اليه.

يقول مير: «ساعدتني زوجتي في تحقيق أحلامي.» وحين سئلت زوجته

جيني عن تلك الحقبة قالت: «اني متزوجة من رولف ومن السترلنغ في آن.» أما ابنهما إرنست (٣٦ عاماً) وهو اليوم نائب الرئيس الاداري في شركة «محركات سترلنغ الحرارية» في ميشيغن، فيقول: «كنت أخبر الناس أن لي أختين وأخاً محركاً.» وتعيش أخته ألبرتا في غارمني مع زوجها فيلم الأستاذ في جامعة دلفت، وتعيش غيردا في بريدا حيث يعمل زوجها بيتر مديراً للشركة في أوروبا.

[illegible] مع الوقت حقق مشروع «سترلنغ» بعض نجاحات، منها جرّار زراعي بقوة ١٠ أحصنة، ومحرك زورق بقوة ٤٠ حصاناً، ومحرك بأربع أسطوانات لحافلة ركاب. أما الانتصار الكبير الذي بان وشيكاً حين أبدت شركة «جنرال موتورز» اهتمامها بتطوير سيارة تعمل بمحرك «سترلنغ»، فلم يرَ النور. فلقد وضعت هذه الشركة المشروع جانباً وحولت اهتماماتها الى أبحاث أخرى تتعلق بتقنية جديدة.

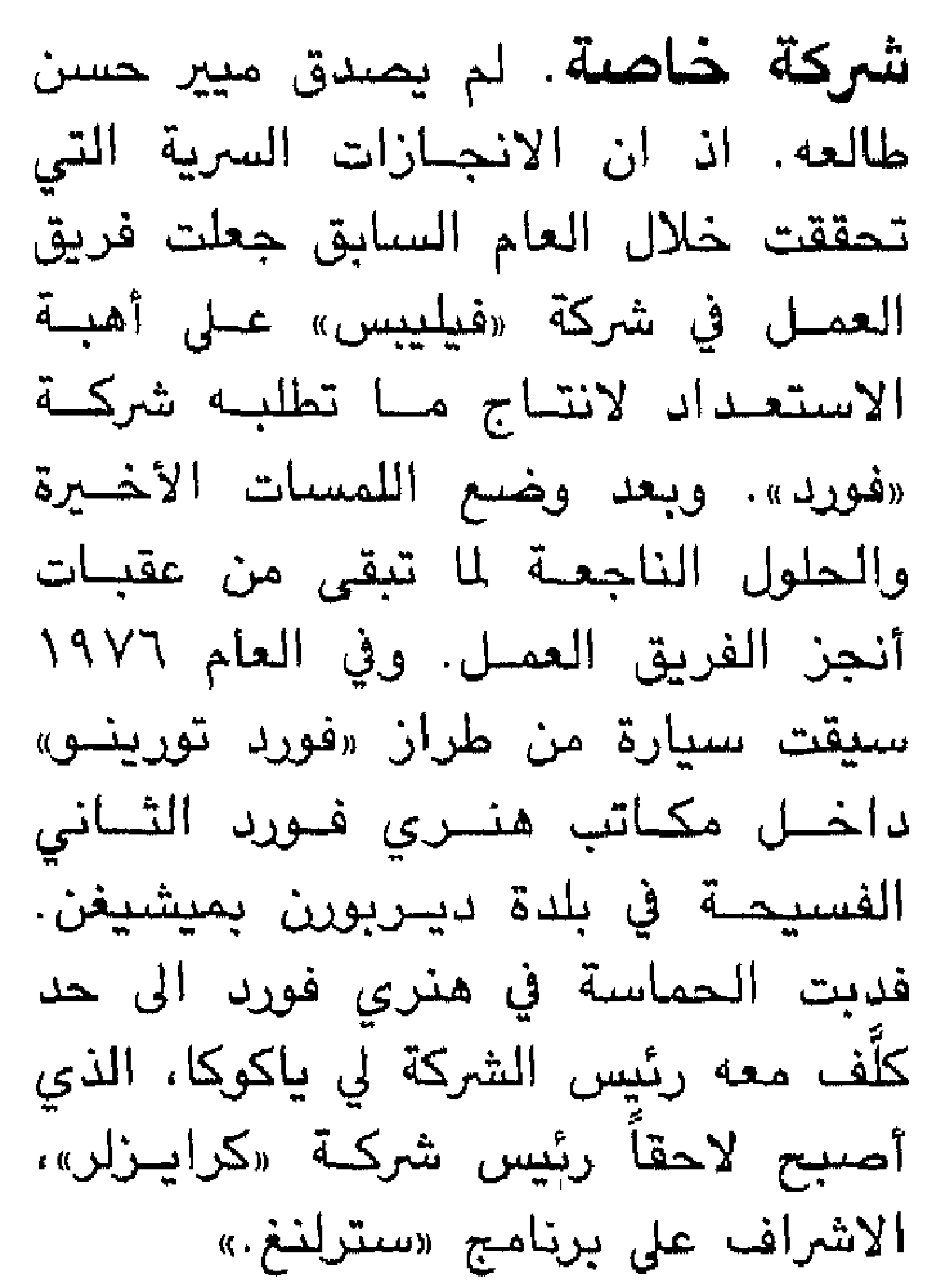
مع ذلك لم تفتر همة مير. اذ بعدما اجتذب اهتمام كبرى الشركات العالمية لصناعة السيارات، قرر المضي في صنع محرك يُستعمل مستقبلاً في هذه الصناعة. وكان حجم محرك «سترلنغ» ووزنه أنذاك أقرب الى محرك الديزل منه الى محرك البنزين الخفيف الوزن. لذلك أكب فريق العمل لدى شركة «فيليبس» طوال سنوات على اختبار خلائط معدنية حديثة وتصاميم مبتكرة من أجل خفض وزن محرك «سترلنغ» وحجمه وزيادة قدرته. وراعوا في ذلك أقصى درجات السرية، رغبة من مير في مفاجأة العالم بتصميم نهائي لا منافس له.

وفي العام ١٩٧٠ عرضت شركة «فيليبس» على الدوائر الحكومية الامريكية وشركات صناعة السيارات فكرة اقتباس محرك «سترلنغ» في السيارات. فما كان من «الادارة الامريكية لابحاث الطاقة» التي دعيت لاحقاً «مديرية الطاقة» إلا أن خصصت مبلغ ١٠٠ مليون دولار لهذا المشروع. وخصصت شركة «فورد» كذلك مبلغ ٥٠ مليون دولار وأيدت اجراء دراسة لكشف مدى ملاءمة هذا المحرك للحاجات القائمة. وكان من الشروط إثبات امكان ضبط الابتعاث[٢]. وقد اجتاز محرك «سترلنغ» هذا الامتحان بتفوق ملحوظ. ونتيجة ذلك وقَّعت شركة «فورد» عقداً مع شركة «فيليبس» لانتاج محرك بقوة ١٧٠ حصاناً لاستعماله في سيارات «تورينو» المتوسطة الحجم.

وكانت تعليمات شركة «فورد» واضحة ومحددة: يجب ألا يؤدي استعمال المحرك الجديد الى أي تبدل في أداء سيارة «تورينو.» فيراعي مقاييس الابتعاث الصارمة، ويؤمن فترة تحمية مقبولة، ويدفع بقوة تُقنع السائق بأن سيارته ما زالت تعمل بمحرك البنزين المألوف لديه.

---

(٢) Emissions-control potential



شركة خاصة. لم يصدق مير حسن طالعه. اذ ان الانجازات السرية التي تحققت خلال العام السابق جعلت فريق العمل في شركة «فيليبس» على أهبة الاستعداد لانتاج ما تطلبه شركة «فورد». وبعد وضع اللمسات الأخيرة والحلول الناجعة لما تبقى من عقبات أنجز الفريق العمل. وفي العام ١٩٧٦ سيقت سيارة من طراز «فورد تورينو» داخل مكاتب هنري فورد الثاني الفسيحة في بلدة ديربورن بميشيغن. فدبت الحماسة في هنري فورد الى حد كلَّف معه رئيس الشركة لي ياكوكا، الذي أصبح لاحقاً رئيس شركة «كرايزلر»، الاشراف على برنامج «سترلنغ.»

على الأثر وجه ياكوكا دعوة الى مير للحضور الى الولايات المتحدة والاشراف على الانتاج. وهكذا توجه مير الى ديترويت ليعمل مستشاراً لـ ٤٥ من كبار المهندسين القيمين على المشروع في مقر الشركة الرئيسي. ولكن بعد سنة من العمل أعلن هنري فورد بحياء أن شركته غير قادرة، لأسباب مالية، على متابعة المشروع. أذهل الخبر مير، وتساءل: «اذا كانت شركة سيارات ضخمة مثل فورد عاجزة عن تمويل المشروع، فمن يستطيع ذلك؟» وزاد النكسة أن شركة «فيليبس»، وقد أثبطت عزمها خسارة هذا العقد الرئيسي، أوقفت جميع الجهود المتعلقة بالـ «سترلنغ.»

عند هذا الحد بلغ مير سن التقاعد، وبدأ يفكر في ما يفعله بقية حياته. أراد



رولف مير.

متابعة العمل في تحسين «سترلنغ» لكن عدم توافر التمويل اللازم جعل المضي في هذا المشروع أمراً مستحيلاً. غير أنه، بمساعدة من صديقه ورئيسه السابق فريتز فيليبس، اتصل برجال أعمال متقاعدين ساهموا بمالهم وخبراتهم في تأسيس شركة عام ١٩٧٩ عرفت لاحقاً باسم «محركات سترلنغ الحرارية المتحدة.» وبعد فترة وجيزة رخصت لهم شركة «فيليبس» الافادة من جميع المعلومات التي أمضى رولف حياته في ابتكارها.

خدمات متنوعة. باشرت الشركة الجديدة العمل الى أن أنتجت في شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٨٩ محركاً جديداً (STM4-120) جرى تسليمه الى شركة «كلوكنر ـ همبلت ـ دويتز» الألمانية الغربية المختصة بصنع محركات الديزل، من أجل اختباره على أمل اقتباسه في إنتاجها. واللافت أن

هـذا المحرك يـزن ٨٥ كيلوغـراماً فقط ويعمل بقوة ٥٣ حصاناً وبفاعلية مذهلة تصل الى ٤٥ في المئة. وهذا إنجاز مهم اذا قارناه بفـاعلية محـركات البنـزين العادية التي لا تتجاوز فاعليتها ٢٥ في المئة. الى ذلك، تعتزم «مديـرية الطـاقة الأمـريكية» تـزويد هـذا المحرك طـاقة شمسيـة بعدمـا تسلّمت عينة منـه في أغسطس (آب) ١٩٨٩. كمـا تـعتـزم تهجين محرك يعمل بالطـاقة الشمسيـة والغاز الطبيعي معاً، بحيث يصبـح في مقدور الـ «سترلنغ» توليد الكهرباء على مدى ٢٤ ساعة يومياً.

وأنتجت الشركـة محـركـاً لحسـاب مصنع بلجيكي يعتزم بيعه في أفريقيـا لتحويل الطاقة الشمسية كهربـاء. كما قـررت أسـوج (السـويـد) اعتمـاد «سترلنغ» في غواصاتها من فئة «A-19» الجـديدة التي بـدأت ارساء روافـدها. والى ذلك باشرت مصانع «مان» الألمانية الغـربية المختصـة بصناعـة محركـات الديزل انتـاج تجهيزات للجيش تعمـل بمحركات «سترلنغ.» وقد يفيد عدد من الزبائن من المحرك في التوليـد المختلط للطاقة، أي استعمال الحرارة المهدورة ـ من المحـركات والتجهيـزات البخـاريـة وأجهـزة التدفئـة المنزليـة ـ في توليـد الكهرباء.

ويعتقد رولف ميير أنـه، عاجـلاً أم آجلاً، سيصار الى اعتماد سيارات تعمل بمحرك «سترلنغ.» فاليـابانيـون مكبون عـلى الـ«سترلنـغ» منذ سنـوات. وقـد شـاهد ميـير في العـام ١٩٨٨ سيـارة «تويوتا» تعمل بمثل هذا المحرك.

بلغ المخترع الكبير عامه السبعين في شهر أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٨٩، وما زال مندفعاً بعـزم وتصميم الى مبتغاه. وما زال يؤمن بأن محركه «سترلنغ» هو «محرك المستقبل» من دون منازع.

وواضـح أنـه ليس وحيـداً في هـذا الاعتقاد.

جون تومبكنز ■

امشوا وتأملوا

ان غايتي من التمشي كل مساء هي المشي في ذاته، وما يسديه من منافـع ذهنية وعاطفية وبدنية. لكنّ هدفي الأسمى مختلف.

إذ أعود من سيري التأملي ينتصب منزلي أمامي عند ركن الشارع. فأتوقف وأنظر، وأفكر في أولادنا الصغار الثلاثة يرقدون في أسرتهم، وفي زوجتي تقرأ في غرفة الجلوس أو تعزف على القيثارة وتغني بهدوء في المكتب. ثم آخذ نفساً عميقاً من هواء الليل النظيف وأفكر: يضم هذا المنزل كل ما هو عزيز علي قلبي.

هذا هو السبب الأول الذي من أجله أسير ليلياً حوالى كيلومتر بعيداً من منزلي ومسافة مماثلة رجوعاً، ثم اتوقف لأذكّر نفسي بأثمن ما في حياتي.

وانه ليس سبباً تافهاً للتمشي.

م.ف.



نحتاج احياناً
الى من يذكّرنا كم هي
واهية أحزاننا اليومية

أمثولَـــة الـــدَلافـــين

لا تـزال هناك أمكنـة عذراء قبـالة شـاطىء جورجيـا بين سـافـانـا بيتش ومضيق أوسابو. جزر مقفرة كما كانت منذ قرون. تلك هي الأمكنة التي أرتادها كلما سنحت لي الفرصة.

احـدى هـذه الجـزر تحتضن عش عقاب في شجرة صنوبر عتيقة تعصف بها الرياح، كما تحتضن شاطئاً عريضاً بـديعاً. وبلغني أن عـاصفـة هبت من الشمال الشرقي على مـدى ثلاثـة أيام فحملت كميـات ضخمـة من الـرمـل الأبيض الى الشـاطىء الشرقي جاعلـة اياه مكاناً مناسباً للتخييم. وتوجهنا الى هنـاك، ستة أصـدقاء حميمـين، ثلاثـة رجال وثلاث نساء، لنمضي ليلة خـارج منازلنا.

وفيمـا زورقي يمخـر ميـاه مضيق أوسابو غمرنا شعور عارم بـأن رحلتنا ستنطوي على بعض من تلـك اللحظات الـذهبية التي يتمتـع فيها الأصـدقـاء الحميمون بالرفقة من دون تحفظ.

سمعت صـوتـاً يشبـه نبـاح كلب، فاستدرت. كان هنالك دلفين ضخم يفرغ منخـره على مسـافـة لا تتجـاوز عشرة أمتار. فجأة ظهرت وراءه دلافين أخرى. ظلت جميعها عند طرف الأثر الذي خلفه زورقنا في الماء. الذكر أولاً، تتبعه بقية الدلافين وعددها يقارب العشرين.

PHOTO: © ZIG LESZCZYNSKI/ANIMALS ANIMALS

كنت أعرف أن الابتسامات الجامدة التي علت وجوه الدلافين هي وليدة مصادفة. ولكن من يستطيع الشك في نيتها الطيبة؟ اندفعت في محاذاتنا كأنها زوارق خفيفة، وزعانفها الظهرية تشق المياه الدافئة من غير جهد.

كان واحدها يتبع الآخر، والكل يتموج ويتواثب، كأنها تتحدانا لنلعب معها بحسب شروطها. قاومت رغبتي في قبول التحدي واجراء سباق معها. وكنت فعلت ذلك كثيراً من قبل، واستنتجت أن هذه الكائنات المتحمسة تستطيع بسهولة أن تسبق معظم المراكب بمجرد تحريك أذنابها بسرعة أكبر.

لم يكن هنالك ما يشير الى شيء غير عادي فيما سرب الدلافين يتواثب مرحاً في محاذاتنا. ثم تغير شيء ما، شعرت به قبل أن أعي ما حصل فعلاً. هنالك أمر قطع على السرب انسيابه. تخلف عن الركب دلفينان انثيان على ما أعتقد. خففت سرعة الزورق وأدرته قليلاً كي تتسنى لنا مراقبة ما يجري. كانت احدى الانثيين تلوي جسدها على شكل قوس مشدود كأنها تنتفض من الألم، بينما وقفت الثانية منتصبة قربها.

واذ رأينا الدلفينة البائسة تتلوى في الماء أدركنا، لعظم بطنها، أنها على وشك الولادة. أما ما حصل بعد ذلك فلم تتسنَّ لنا رؤيته. غاص السرب على نحو مفاجىء كأنه أراد التواري لحظة الولادة.

ولما كنت قضيت معظم حياتي مبحراً فقد سمعت روايات أن أنثى الدلفين التي تنتظر مولوداً تعمد الى تقويس جسدها أثناء السباحة، في ذروة مخاضها، بحضور واحدة من رفيقاتها على الأقل. وتكون في هذه الأثناء محاطة ببقية أفراد السرب. وفي النهاية تظهر غمامة من دم ويخرج دلفين صغير الى الحياة.

اضمحلّ النور، فأدرت المحرك وغادرنا المكان قاصدين جزيرتنا.

كانت أشجار السنديان والنخيل الغضة منتشرة على طول الشاطىء ومطرزة بالطحلب الاسباني. وأرسل نور المغيب الوردي بريقاً أرجوانياً على الشاطىء. كنا أحضرنا معنا شرائح لحم وسلطة وخيمة تتسع لنا جميعاً. وبشرتنا النشرة الجوية بليل لطيف يليه نهار صافٍ.

لكنّ المنجمين لم يصدقوا، اذ سرعان ما تلبدت السماء وأنذر البرق والرعد باقتراب عاصفة. أسرعنا الى العمل على تثبيت الخيمة. وقف ثلاثة منا في الداخل وقماش الخيمة يغطيهم، بينما ظل الثلاثة الآخرون في الخارج يحملون ثماني قطع من الهيكل.

ضحكنا عندما اكتشفنا قلة براعتنا في نصب خيمة جديدة عصرية في العاصفة الهوجاء. ولكن في النهاية وتحت المطر العنيف نجحنا في نصبها، على رغم أنها بدت بعيدة جداً عن الخيمة الأنيقة المصورة في الكتاب الايضاحي الذي جاء معها.

احتمينا داخل الخيمة ونحن مبللون. وبحكم مسؤوليتي كقائد للرحلة كان الطهو من مهماتي. وبعد أربعين دقيقة كانت الشرائح جاهزة. واذ سمعت صوت الطحن بين الأسنان أدركت أن الرمل نفذ الى كل شيء.

تخطينا كل المستجدات بطريقة أو بأخرى ونحن نضحك على المنحى الغريب الذي اتخذته رحلتنا الرومنطيقية. وبعدما أنهكنا التعب والبرد خلدنا الى النوم.

في ساعات الصباح الأولى سمعنا صوت ارتطام هادر، اذ ضرب الزورق أحد جوانب الخيمة بعدما حملته الريح والأمواج والمد المرتفع، فقوضها وكاد يصدم ثلاثة منا.

أثناء الفطور كان مزاجي والجو الداخلي المخيم على المجموعة بأسرها قاتمين كالغيوم المتلبدة. وقبل التاسعة فككنا الخيمة وركبنا الزورق وقفلنا عبر المياه. صددت عدة محاولات كلامية لاخراجي من مزاجي العكر. وفي غمرة انزعاجي وتألمي تساءلت لماذا تبدو الحياة أحياناً كأنها تحمل نحوساً أكثر من السعود.

واذ توجهنا شمالاً رأينا سرباً من الدلافين (أيكون السرب نفسه؟) يطفو على مقربة من مقدم الزورق. وسمعت من الرفقاء همساً فأدركت أنهم رأوا شيئاً فاتتني مشاهدته.

وعندما اقترب الزورق من السرب استطعت أن أميز الذكر الضخم الذي ظهر فجأة الى جانبنا في الأمس. كذلك رأيت الدلفين الصغير خلف الذكر وأمه تدفعه. لكنه لم يكن يتحرك على الاطلاق. لقد كان نافقاً. ونحن الآسفين على عطلتنا والمنزعجين من ثيابنا المبللة وفقداننا الراحة لفترة قصيرة، ادركنا فجأة كم أحزاننا واهية بالمقارنة مع ما رأيناه. كان افراد السرب يحيطون بالأم الثكلى ليحموها من أي سمكة قرش قد تقترب منها.

أطفأت المحرك. ونظرنا جميعاً بصمت الى الموكب المهيب، البرهان الحي على الالتزام غير المشروط لدلفين تجاه آخر.

خيل الي أن الدلفين الصغير النافق كان ينقل الى المياه العميقة حيث سيدفن في البحر.

ورفعت قبعتي من دون تفكير فيما انعطف الموكب مبتعداً.

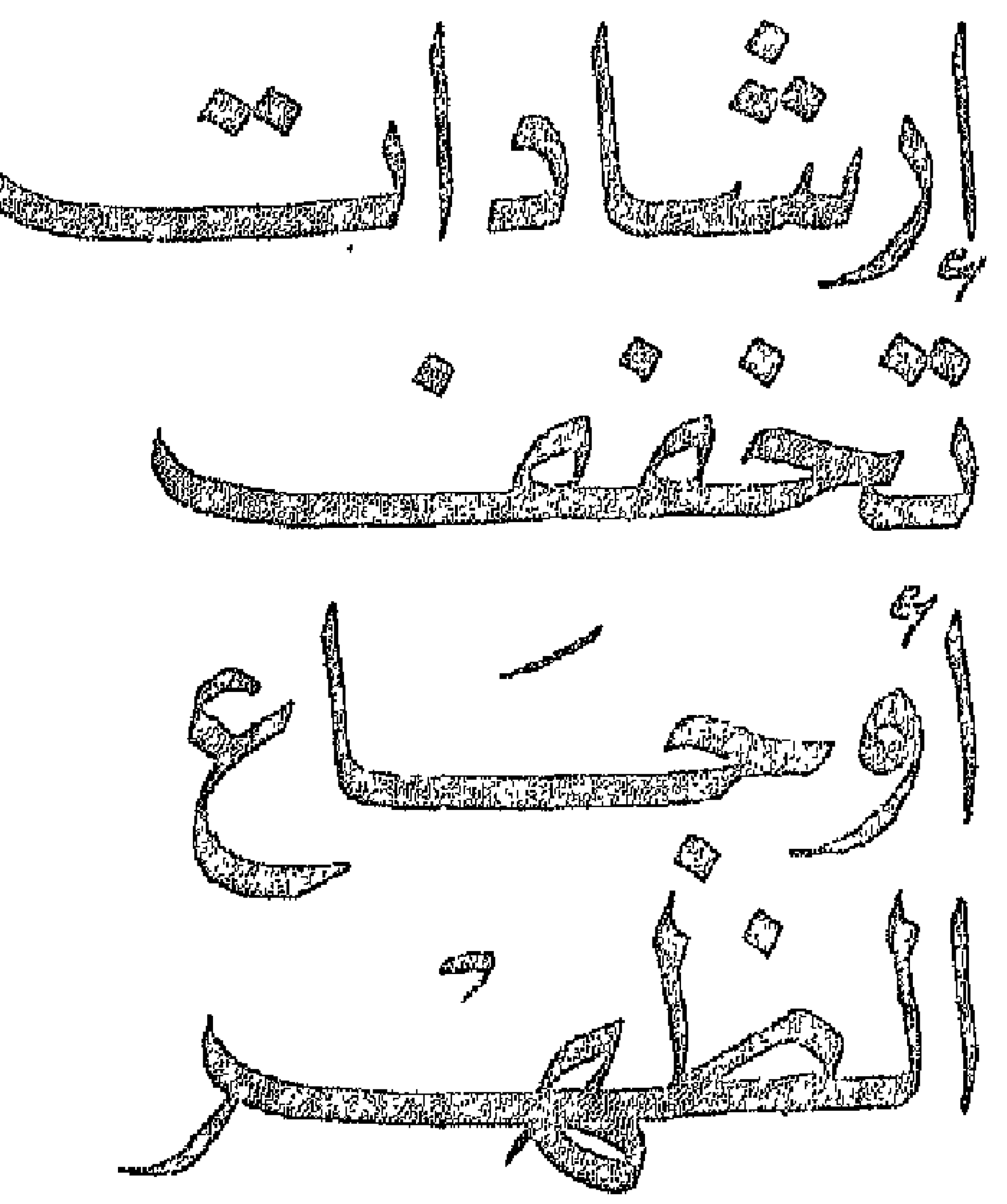
وفيما أنا أراقب الدلافين وهي تبتعد أدركت أننا، نحن الذين في الزورق، عدنا موحَّدين. لقد زال انزعاجنا البسيط وعاد الينا الشعور بالتفاهم والاحترام المتبادل، وكان شعوراً سليماً غير متأثر بأحداث الليل.

أدركت كل ذلك على رغم أن أحداً منا لم يتفوه بكلمة.

وعندما استدرت لأشعل المحرك انبثق شعاع من شمس الصباح واخترق الغيوم الراحلة وأضاء تلك الاجسام السابحة بعيداً في المضيق. وما هي الا لحظات حتى خرجت الى البحر العظيم.

ناش كانتوش ■

تبتلي أوجاع الظهر
معظم الناس
في فترة من حياتهم
ولكن من الممكن
تفادي العوامل التي تسببها



أنا ألم الظهر. أضرب على حين غرّة، فأوجع وأعذب كطعنة نجلاء. ويُشعر بي أولاً في مكان محدد، ومن ثم أتشعّب في أنحاء الجسم. وقد يبلغ وجع عُمَر حداً يعجز معه عن رفع فنجان قهوة الى فمه.

أنا الألم الذي يحل بظهر عمر من دون انذار. لكن ذلك ليس بالأمر النادر. فأنا أُنزل إصابتي بالناس الذين يحملون حقائبهم في المطارات أو ينحنون لربط أحذيتهم. أحياناً لست سوى وخز مفاجىء عابر، وأحياناً أخرى، كما في حال عمر، أنا مقيم لفترات تطول وتجعل من حياته جحيماً من العذاب.

لا أحد مفضّلاً لدي، فأنا أبتلي الرجال والنساء على حد سواء. فأصيب النساء عادة في السن الستين وما فوق، وأصيب الرجال عادة منذ السن الرابعة والاربعين وهي السن النموذجية التي أصبت فيها عمر.

هناك ظروف خارج ارادة عمر قد تؤول الى الاصابة بي: التقلص العضلي ومشاكل القرص (الديسك) ونتوءات العظم، والتهاب المفاصل والاختلالات الشاذة في العمود الفقري. وقد يكون السبب مشكلة في القدم أو الساق تخلّ بالتوازن مما يسبب اعوجاجاً في الظهر.

إنما في أكثر الاحيان هناك سبيل لتفادي ضربتي. وفي حال عمر فإن وقفته وجلسته غير سويتين، وهو لا يرفع الأشياء بطريقة صحيحة ولا يتمرن بانتظام، وقد زاد وزنه ٤،٥ كيلوغرامات تركزت في وسطه خلال السنوات الخمس الماضية.

وهناك أمر مطمئن هو أن الطب الحديث يزداد معرفة بطرق معالجتي والوقاية مني. لكن الحقيقة المؤسفة هي أني لا أتوانى عن انزال ضربتي كلما سنحت لي الفرصة، وقد هيأ لي عمر تلك الفرصة.

فقرات عمر. في أحد أيام الربيع المنصرم رفع عمر كيس تراب يزن ٢٠ كيلوغراماً في حديقته. لم يشعر بثقلها، لكن الكيلوغرامات العشرين شكلت على عضلات ظهره وأوتاره ثقلاً يعادل ١٢ ضعفاً. كذلك شكلت الكيلوغرامات الاربعة والنصف المترهلة الاضافية ضغطاً يعادل ٢٠ كيلوغراماً زائداً على ظهره.

في اليوم التالي كاد عمر ان يعجز عن النهوض من فراشه. وكانت كل خطوة يمشيها عذاباً مبرحاً.

ان عمر، في حياته اليومية، ينحني ويلتوي ويتحرك ويروح ويغدو، فيقتضي أن يكون عموده الفقري مرناً. لذلك فإن الفسحة بين فقرات عمر الـ ٢٤ المتحركة هي أقل من ٢٥ مليمتراً. ولهذه الفقرات العظمية المستديرة فتحات في الوسط يمر خلالها الحبل الشوكي. أما وطأة ثقل الجسم فتتركّز على فقرات القطَن[1] الخمس، وهي المكان الذي أُنزل فيه ضربتي غالباً، مع اني أهاجم الكتف والرقبة أحياناً.

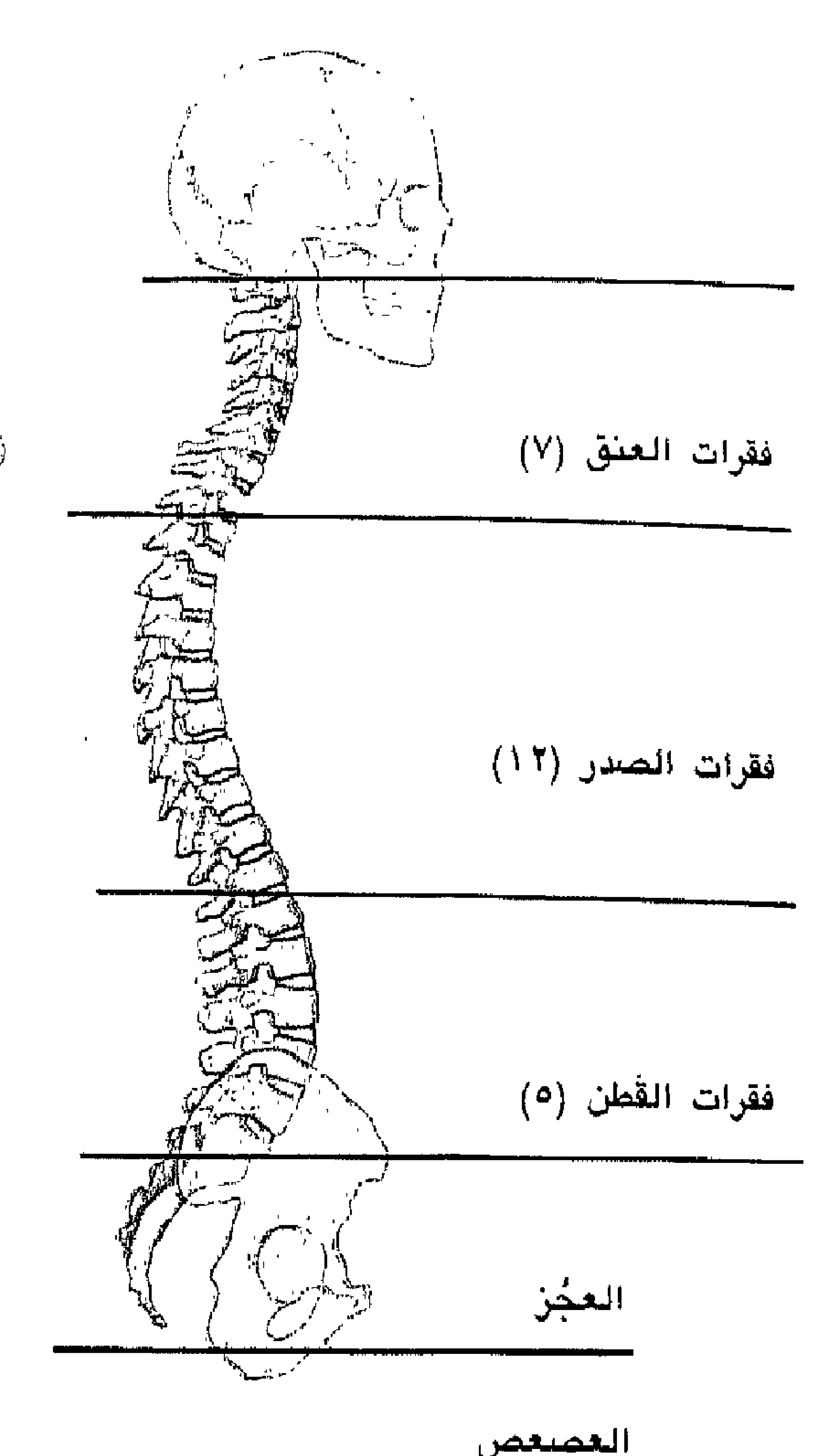
وكل فقرة مفصولة عن الأخرى بقرص (ديسك) مكون من أربطة غضروفية صلبة تساعد في الحفاظ على الفسحة بين الفقرات. وشكله شبيه بحبه فاصولياء، ووسطه لين هلامي يوفر المرونة للعمود الفقري ويعمل كممتص صدمات.

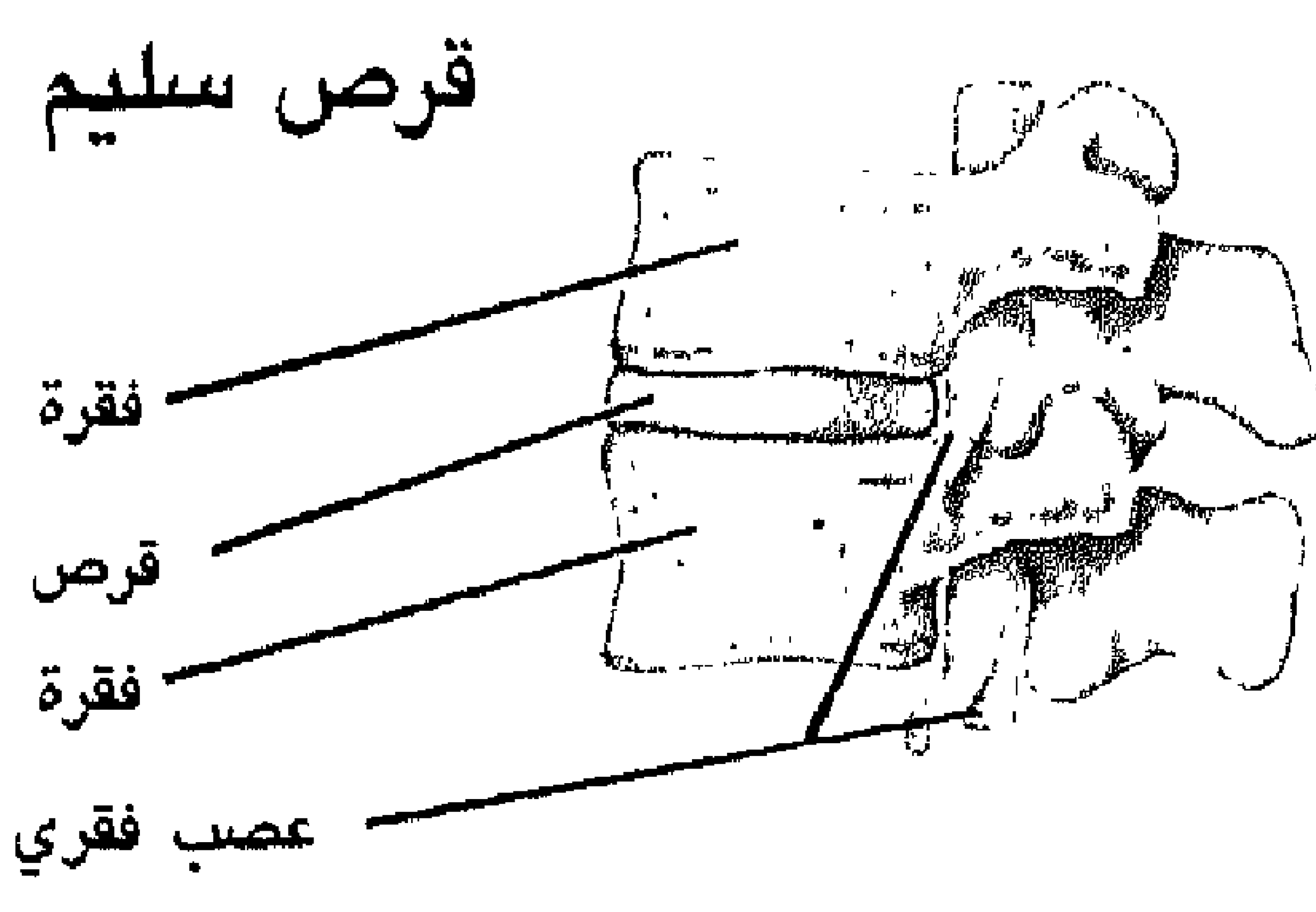
وارهاق القرص وتمزقه يسببان شقوقاً في الحلقات التي تحيط بوسطه الهلامي. فيتسرب الهلام الى تلك الشقوق ويبدأ القرص بالنتوء. وفي حالات الضغط القاسية قد ينعصر الهلام خارج القرص مسبباً فيه تمزقاً أو فتقاً.

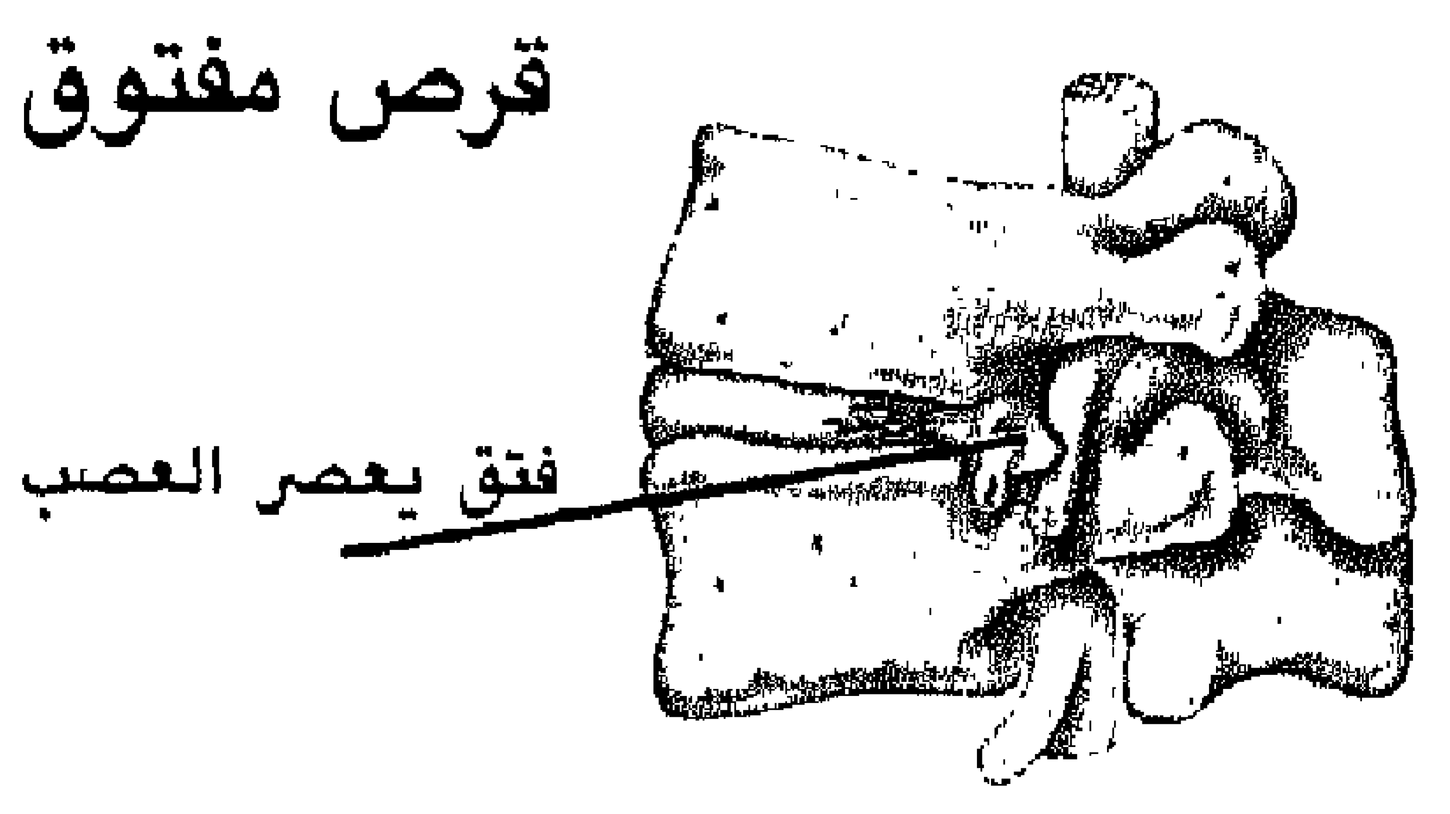
لازم عمر فراشه يوماً كاملاً. وفي الصباح التالي اتصل بطبيبه الذي نصحه بالبقاء ممدداً ٢٤ ساعة أخرى. وتُظهر الدراسات الحديثة أن يومين من الراحة في الفراش اتقاء لألم الظهر يعادلان فاعلية معالجة سبعة أيام. وأضاف الطبيب: «لتخفيف الألم والالتهاب عليك بتناول الأسبيرين.»

فحص طبي. بعد ٤٨ ساعة في الفراش ظل عمر يعاني ضيقاً في التحرك، فأشار عليه طبيبه بالذهاب الى

(١) Lumbar vertebrae







جراح عظم متخصص بمعالجة مشاكل الظهر.

سأل الجراح عمر في عيادته بعد أيام: «هل سبق أن عانى أحد أفراد عائلتك مشاكل في الظهر؟»

أجاب عمر: «لا علم لي بشيء من هذا القبيل.»

كان ذلك مؤشراً مهماً، لأن بعض الدراسات بيّن أن مشاكل «ديسك» العمود الفقري تنتقل وراثياً في العائلات. وبعد عرض ماضي عمر الطبّي بدأ الجراح فحصاً كاملاً دقيقاً.

في الغالب، حين يفتق أحد أقراص الفقرات الخمس في أسفل الظهر، يتسرب الهلام من وسط القرص ويضغط على العصب الوركي (عرق النسا) محدثاً ألماً في الردف والساق.

وفي حالات الفتق الحادة قد تعاق الرجلان أو تشلان بفعل الضغط على جذور العصب المنبثقة من العمود الفقري.

في مثل هذه الحالات يُنصح باللجوء الى جراحة طارئة. في الجراحة التقليدية يعمد الأطباء الى إزالة قلب القرص كله والكسَر المفتّتة حول حافته. أما الجراحة المجهرية الأكثر حداثة فتقتضي اجراء شقّ أصغر وازالة الجزء الممّزق فقط. وفي عملية أخرى، تستخدم ابرة

ILLUSTRATION: CYNTHIA TURNER

امتصاص لسحب الجزء الممّزق واحداث شق صغير.

وللتأكد من أن القرص المفتوق لم يكن سبب العلة، عمد الطبيب الى نقر ركبتي عمر ورسغي قدميه بمطرقة صغيرة لاختبار ارتكاساته اللاإرادية[٢]. وهو شرح الامر لعمر: «حين تضعف هذه الارتكاسات فذلك يعني أن جذور أعصاب العمود الفقري مضغوطة، ربما من جراء قرص مفتوق.»

بدت انعكاسات عمر اللاإرادية طبيعية. من ثم تمدد على طاولة الفحص ورفع كلاً من رجليه. فلو كان قرص مصاب هو الذي سببني لأدى رفع رجله الى اثارة عصبه الوركي وتفاقم الألم.

بعد مراجعة الماضي الطبي لعمر وتفحص صور الأشعة السينية لظهره، استبعد الطبيب الأسباب الأخرى المحتملة لأوجاعي، بما فيها التهاب المفاصل وأمراض الكليتين والرئتين والفتق ومشاكل البروستات. وشخّصني الطبيب على أني «إجهاد قَطَني ـ عجُزيّ حادّ.» بكلام آخر، كانت اصابتي أصلاً في العضل، وهذا سبب ٩٠ في المئة من المشاكل التي أبتلي بها الناس.

حين تتمزّق العضلات أو تمطّ متجاوزة حدودها الطبيعية، تأخذ في نوع من الانقباض أو التشنّج اللاإرادي وتنتهي الى التصلّب: في بادىء الأمر،فيما كان عمر يعمل في فناء منزله، بالغ في مط عضلة واحدة في اسفل ظهره، لكني جعلت عدة عضلات مجاورة تنقبض. وكان هدفي لمصلحته لأن الألم الشديد الذي سببه تشنج العضلات المحيطة حمل عمر على تحاشي استخدام عضلته المصابة. وذلك أتاح لها وقتاً للشفاء.

سأل عمر الطبيب: «هل تفيد الجراحة؟»

أجاب الطبيب: «ليس في مشاكل العضل. والذين يعانون ألم الظهر ويفيدون من الجراحة لا يتجاوزون نسبة ٢ في المئة من المصابين.»

اثارة كهربائية. تزول غالبية تشنجات الظهر من دون معالجة. ولكن في حال عمر وصف له الطبيب أدوية لتخفيف الألم وأي التهاب عضليّ. ونصحه بأن ينشط بمقدار ما يسمح له الألم: «ليس ثمة دليل على أن الحركة تزيد ألم الظهر، بل ربما هي تعجّل في الشفاء.»

يجب تفادي استخدام الحرارة خلال المرحلة الباكرة او الحادة من الاصابة العضلية لأن ذلك قد يزيد الالتهاب والألم. ولكن هناك دلائل جديدة على أن البرودة والحرارة قد تساعدان، بعد مرور ٢٤ ساعة على الاصابة، في تنشيط جريان الدم وتعجيل الشفاء. وبما أن اصابة عضل عمر بدت في عمق ظهره فقد عمد الى وضع كمادة مبللة ساخنة تكراراً، لعشرين دقيقة كل مرة، سواء أكان في مكتبه أم في بيته مساء.

---
(٢) Reflexes

كان عمر يذهب الى المستشفى ثلاث مرات في الاسبوع للمعالجة الفيزيائية التي تشمل التمرين والتدليك والاثارة الكهربائية للأعصاب عبر الجلد[٣]. تمدّد عمر على احدى الطاولات فيما ثبت أحد المعالجين رقعاً على ظهره أولج فيها أقطاباً كهربائية صغيرة. ومررت تيارات كهربائية خفيفة في البقع التي ينبعث منها أشدّ الألم. هذه الاثارات التي دامت ٣٠ دقيقة في كل جلسة، ساهمت في تخفيف تشنّجات عضل عمر.

بعد نحو ١٠ أيام منذ أنزلت ضربتي لاحظ عمر تحسناً ملموساً واخذ يشعر بي كألم كليل مكبوت وليس مُقعداً. وحسب أنه تجاوز متاعبه فحذّره طبيبه: «مهلاً، إن الذين يعانون أوجاع الظهر مرة تعاودهم مرة ثانية على الأقل. ولكن اذا أجريت بعض التغييرات فقد يمكننا تجنّب تكرار الاصابة.» فوافق عمر على حضور جلسات «مدرسة الظهر» في مستشفى محلّي.

بدأ البرنامج بمعالجة طريقة جلوس عمر ومشيته. فهو اعتاد أن يجلس مترهلاً في كرسيه مما سبب ضغطاً على بنية عموده الفقري وعضلات ظهره. لذلك تعلّم أن يجلس مستقيماً. وللحفاظ على انحناء العمود الفقري نحو الداخل واراحة عضل ظهره، بات يضع وسادة قطنية ملتفّة بين ظهره وكرسيه.

وبدل الجلوس لفترات طويلة أخذ عمر يمشي قليلاً كل ٢٠ دقيقة لتليين عضلات ظهره. وبات يرفع صدره في الوقوف، فترتخي كتفاه الى الخلف ويحافظ عموده الفقري على انحنائه الطبيعي.

وكان فراش عمر لان على مرّ السنين وصار ظهره يغرق في رخاوة الاسفنج مسبباً ضغطاً على عضلات ظهره. فأبدله بفراش جديد جامد وفّر له الراحة والليونة والثبات. ومعلوم ان النوم على المعدة يشكل ضغطاً على عضلات الظهر، لذا بدأ عمر ينام على جنبه.

علّم المدربون عمر ألا ينحني من خصره أبداً حين يرفع ثقلاً، بل يحني ركبتيه ويرفع ضاغطاً برجليه وحاملاً الثقل قريباً من جسمه من دون أن يلتوي أو يلتفّ. بذلك ينتقل معظم الضغط الى رجليه.

والتوتر يعوق جريان الدم الى عضلات الظهر ويسهّل إصابتها بالتشنج. وقد جهزت آلة خاصة[٤] لمراقبة سرعة نبض عمر واستجابات غدد العرق وظواهر طبيعية أخرى تصاحب التوتر. وقد ظهر انخفاض ملحوظ في هذه القراءات حين استرخى عمر وأغمض عينيه وتنفّس بعمق واستحضر في مخيلته صوراً مبهجة. وهكذا تحسّنت مقدرته على ضبط وطأة التوتر.

وتركز القسم النهائي من البرنامج على التمرين. وعندما خف ألمي بدأ عمر اتباع نظام تمريني بهدف تقوية ظهره وعضلات بطنه:

---

(٣) Transcutaneous electric nerve stimulation

(٤) Biofeedback machine

١. الركبتان الى الصدر. يتمدد عمر على ظهره وركبتاه مثنيتان وقدماه تلامسان الأرض. يرفع كلتا ركبتيه ببطء الى جهة صدره مستعيناً بيديه لتقريبهما تدريجاً. يبقى خمس ثوان في هذا الوضع ثم يعيد رجليه الى نقطة البداية الواحدة بعد الأخرى.

٢. رفع الوركين. يستلقي عمر على ظهره وركبتاه مثنيتان وقدماه على الأرض. يرفع وركيه عن الأرض من دون تقويس ظهره. يبقى خمس ثوان في هذا الوضع ثم يسترخي.

٣. «الجلوس»[٥] بركبتين مثنيتين. يتمدد عمر على الأرض وركبتاه مثنيتان. يشبك يديه وراء رأسه ويرفع كتفيه عن الأرض، ثم يرفع جسمه، بعد ذلك يرجع ببطء الى الوضع الأول. (ان تمارين «الجلوس» العادية قد تزيد الضغط على الظهر. هذا التمرين يقوي البطن الذي يخفف، بدوره، الضغط عن الظهر.)

٤. تليين الظهر. ينبطح عمر على معدته ويضع كفيه على الأرض الى جانب كتفيه. ثم يرفع رأسه وصدره عن الأرض لخمس ثوان مبقياً حوضه على الأرض.

وبعد توصّل عمر الى القيام بهذه التمارين الأربعة بسهولة، أضاف اليها تمرينين آخرين:

٥. الركبة والساق. يتمدد عمر على الأرض وظهره مستقيم وركبتاه مثنيتان. يلف يديه خلف فخذه ويجذب ركبتيه نصف المسافة الى صدره، باسطاً رجله الى أن يشعر بتوتر خفيف على الوتر المأبضي (في باطن الركبة). يبقى في هذا الوضع وهو يعدّ الى العشرة مع ابقاء ركبته مستقيمة. ويكرّر التمرين برجله الأخرى. فهذه التمديدات تمنح ظهر عمر وعضلات رجليه ليونة أكبر وتقلّص احتمالات ضربي اياه ثانية.

تمارين حيهوائية (آروبيك).
تعلّم عمر أن تحسين دورته الدموية من خلال تمارين حيهوائية منتظمة يجعل أنسجته وعضلاته أكثر عافية، بما فيها تلك التي في الظهر. والتمرين الحيهوائي الصحيح يساعد في كسب هدف آخر هو انقاص الوزن.

استبعد عمر السباحة لأنها لا تخفض الوزن كثيراً وان تكن تمريناً حيهوائياً جيداً. وحذره الطبيب: «الى أن تصبح في حال صحية ممتازة، تجنب رياضات الهرولة والقفز على الحبل والتمارين الأخرى الشديدة الوطأة، لأنها قد تزيد الضغط على عمودك الفقري وعضلات ظهرك وتسبب عودة مشاكل ظهرك.»

اختار عمر دراجة ثابتة وبدأ يتمرن بالدوس على مهل لبضع دقائق يومياً. وتدرّج الى التمرين لعشرين دقيقة

(٥) Sit-up

في الجلسة الواحدة خمس مرات في الأسبوع. فخفض الوزن واكتساب خصر أدقّ يعنيان إجهاداً أقلّ على الظهر. وما عتم أن بدأ ممارسة رياضة المشي.

بعد شهر من اصابتي عمر اختفيتُ كلياً من حياته. لكنه يواصل تمارينه تحسباً للحؤول دون عودتي اليه بأوصابي ومشاكلي. ليس هناك علاج يضمن الشفاء مني. لكن عمر بات يعرف عني أكثر، وهو الآن أوفر عافية وسعادة.

سأفتقد عمر، لكن عزائي أن أمثاله كثيرون.

جون بكانن ■

يرغب الكاتب في شكر الأطباء والتقنيين الذين قدموا اليه النصح والارشاد خلال تحضيره هذا المقال. ويخص بالشكر الدكتور فرانك كاميسا الجراح التقويمي في «مستشفى الجراحة الخاصة» في نيويورك.



من الصغار إلى الكبار

يا لترف الاستراحة! يبدو أن الاولاد والحيوانات يعرفونه على نحو أفضل. فالوقت عندهم ليس طاغية. وليس لشروق الشمس وغروبها في عرفهم علاقة بعمل يجب أن ينجز او بمال يجب ان يكسب. وعلى رغم أن لهذين الأمرين أهمية لا جدل فيها عند البالغين، فهي نادراً ما تهم الكائنات الأصغر، الشديدة التدقيق في توافه الأمور.

الاولاد والحيوانات يولون عناية فائقة لانجاز ما يقومون به على وجه صحيح في اي وقت. لم ألتق ابداً انساناً بالغاً يغفو بمهارة مثلما يفعل هري. ولا أعرف رجلاً أو امراة في سني يمكنهما أن يتمايلا بوَلَهٍ مثلما يفعل ابني. فلا شيء يلهيه، وهو عندما يرقص متمايلاً يرقص فحسب، وعندما ينام يغفو ملء جفنيه، وعندما يستيقظ يعلم أنه قادر على النوم مجدّداً. ذلك لأن امتلاكه ترف الاستراحة يخوله، وإن بعد توقُّف، متابعة ترف الوقت حيث الساعات دوائر مسطحة تتكتك فحسب، وحيث العمل الآتي هو العمل الوحيد المهم.

احب أن أعتقد أن الاولاد والحيوانات، لا سيما الاولاد، ليسوا مجرد بواعث على الحنين. ولا هم ينقضّون علينا كمجرد امتحان جديد يقيس جَلَدنا الذهني والعاطفي. انهم يأتون لاننا نستطيع أن نتعلم منهم شيئاً، وكلما صَعُب علينا التعلم ازدادت حاجتنا إليه.

في ودي أن أجرب هذا التعلُّم الجديد، وإن من أجل أن أقر بأني في منتصف عمري تيقنت فجأة أني افتقر إلى التمام، وهو الأمر الوحيد الذي يهم حقاً. فإذا استطعت أن احصل عليه من ابني الذي ينام بعمق عندما يحلو له النوم، فسيكون في متناولي، مرة اخرى، ضرب من الترف لا يشتريه مال أبداً.

ت.س.

قصة قصيرة



أرماندو العاشق

المجازفة الأخيرة التي أداها «الساحر» الشهير كانت الاكثر تهوراً... وحباً

عام ١٩٥٥ كنت أنكش في صندوق قديم. فوقعت على سترة شبيهة بتلك التي يرتديها المجانين والمساجين الخطرون، مصنوعة من قماش القنب وفيها سيور جلدية وعُرى (بكَل) حديد. وكانت لا تزال عالقة في كميها تلك «الخدعة» الشيطانية التي قضت على «أرماندو العظيم» كما تقضي رصاصة في الدماغ على امرىء.

لكن أحداً لم يعثر على جثته.

جو فاريس هو الاسم الحقيقي لارماندو العظيم. كانت مهنته تأدية عروض «سحرية» بارعة. وكنت شريكه وقد أحببته كشقيق. لكن أحداً لم يكن يتقرب منه، إذ كان غالباً متقلب المزاج كثير الشكوك والارتياب. وكان يخبىء أمواله في صناديق الامانات تحت أسماء مختلفة.

وعلى رغم قصر قامته (١٦٥ سنتيمتراً) وامتلاء جسمه فقد كان أقوى رجل عرفته في حياتي. وكانت قوته تكمن خصوصاً في أصابعه. وكان يفخر بأن ما من قيد أو قفل قاومه أو عصاه. لكن جو لم يصبح «أرماندو العظيم» ولم يجنِ هذه الثروة الا بعدما التحقت به، أنا كارل هيجماير، سيد صانعي الاقفال. كنت أملك الوسيلة التي يحتاج اليها ليصل إلى مصاف أعظم مشعوذي العالم لأنني ما نظرت إلى مفتاح إلا ونسخته لاحقاً معتمداً ذاكرتي. وكنت أحمل أثناء جولاتنا مخرطة حديد صغيرة ومقص مفاتيح. وبعد مضي ساعة

ILLUSTRATIONS: KEITH RICHENS

على اللقاء التمهيدي مع ضامني العرض أزوّد أرماندو نسخة عن المفتاح كي يتمكن من فتح القفل.

كان جو شجاعاً. فالمرء وإن أتقن هذه الحيل، يحتاج إلى شجاعة كبرى لكي يقبل تقييده في هذه السترة ووضعه في كيس مقفل وتسميره داخل صندوق يربط بحبل ثم يلقى في الماء.

لا شك في أن أرماندو كان على علم بالمخاطر التي يواجهها. وهو قال ذات يوم: «عندما ينتابني أول شعور حقيقي بالخوف سأعتزل مهنتي فلا يعود أحد يسمع بأرماندو العظيم. ولكن إلى الآن لم تعترضنا صعوبة لم نستطع التغلب عليها معاً.»

لكن ذلك كان صحيحاً قبل أن نلتقي الشريف جول ماسان في ديترويت عام ١٩٢٥، حين كنا سنقدم عرض «الافلات من الصندوق» ويتولى الشريف تكبيل أرماندو داخل السترة.

لقد أدينا هذه المجازفة عشرات المرات سابقاً. وكان في امكان أرماندو الخروج من أي سترة من هذا النوع في أقل من دقيقة. فهو كان ينفخ صدره أثناء تكبيله في السترة لكي تتوافر له لاحقاً فسحة كافية لاخراج ذراع من الكم. وهكذا، عندما تتحرر يده تحت السترة، يمدها من فتحة الرقبة ويحلّ السيور التي في الظهر.

لكننا لم نخاطر يوماً. ففي اللقاء التمهيدي كنا نُصر على أن يفتح قفل الكيس ويغلق أمام ناظرينا، مما يُتيح لي أن القي نظرة على المفتاح. وكان الصندوق يعرض دائماً قبل يوم من المجازفة. وفي المساء نقلد المفتاح بحيث يتمكن أرماندو من الخروج بعد خمس عشرة ثانية من إغراق الصندوق.

الشريف القاتل. عقد اللقاء الذي سبق عرض ديترويت في مكتب الشريف. وغصت القاعة بالصحافيين والمصورين. وبين الحضور كانت تينا زوجة الشريف. كانت تضع وشاحاً على رأسها، وبدت عيناها جاحظتين وخاليتين تماماً من أي تعبير. وكل خلجة في محياها دلت على أنها امرأة مروَّعة، كالنسوة الخاضعات لرجال قساة.

كان الشريف طويل القامة، سميناً قوي البنية، لئيماً. وفي أثناء اللقاء التمهيدي رمى السترة على طاولته وقال هازئاً: «هل من اعتراض على هذه السترة.»

فالتقطتها لكي يراها أرماندو، لكنه لم يكن ينظر الي. كان يحدق إلى تينا ماسان. لقد انزلق الوشاح عن رأسها واستقر حول رقبتها فبان شعرها الاشقر ووجهها البيضوي الرائع. وتشابكت نظرات الغريبين المتناقضين: هو المجازف الثاقب النظرات، وهي المرأة الشاحبة التي دبت الحياة للمرة الاولى في عينيها فامتلأتا بما يشبه الرجاء. ألقيت السترة على الطاولة قائلاً: «اننا موافقان.»

أطلق الشريف ضحكة مكبوتة كريهة. ثم جيء بالكيس. كان في حوزتي عشرات

المفـاتيح التي تـلائم القفل. وسيحتفظ أرماندو بمفتـاحين يخبئهمـا في ثيابـه. وعندما يتحرر من السترة يعمد إلى فتح قفل الكيس.

أوقعت السيـدة مـاسـان منـديلهـا. فانحنى أرماندو لالتقاطـه، وانحنت هي في الـوقت ذاته، فتـلامست أصابعهمـا لبرهة. وسمعتها تهمس: «بالله عليك، لا تقم بهذه المجازفة.» وكان ذلك شعوري أيضاً، فأنا لم أطمئن إلى هذه الخطة. ولحظة دخولي مكتب الشريف خـامرني أنه قاتـل، لكنه قـاتل ضمن القـانون. فـأرمانـدو يوقِّـع دائمـاً وثيقـة تـرفـع المسؤولية عن الشريف والشرطة.

ذهبت لمقابلة مخبر في ديترويت هـو صـديق لي وسـألتـه: «ماذا تعـرف عن شريف المدينة؟»

فأجابني: «انه يكره رجـال السيرك. فخذ حذرك منه.»

هتفت: «ولكن لماذا؟» قال: «قبل ست سنوات مر سيرك من هنا ودفع أصحابه مبالغ طائلة للشريف كي يسمح لهم بالعمل في المدينة، لكنه طالبهم بالمزيد فأوسعوه ضرباً. ولعل صديقك كان بينهم ورأى الحادث.»

أخبـرت أرمانـدو بما قـاله صديقي، فغرق في التفكـير ثم قـال: «هنـاك إذاً تعـرفت إلى الشريف: عندما جاء يطلب مالاً لكمتـه على وجهه.»

فحذرته: «انـه لم ينسَ لك فعلتـك. دعنا نلغي العرض.» وكـان موعـده في تمام العاشرة صباح اليوم التالي.

نظر اليّ أرماندو العظيم كأنه خالني فقدت رشدي.



لحظة وداع. كان الصباح بارداً وغائماً. وطفت كتل الجليد على سطح النهر. وعلى رغم الطقس البارد العاصف غصّ الرصيف بحشود المتفرجين. وعندما وصلنا كان النقيب هاري ستيفنز يعطي التعليمات إلى طاقم الزورق الذي سينشل أرماندو عندما يخرج من تحت الماء. ووقف الشريف ماسان ممسكاً السترة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة بغيضة.

أما تينا ماسان فكانت في الصف الاول بين الحشود وقد بدت على وجهها آثار دموع وبان عليها الخوف وتسمرت عيناها على السترة.

لاحظتُ أن تعديلاً طرأ على الكمّين فقلت: «لقد عبث أحدهم بهذه السترة.» لقد خيطت عشر «ملاقط» أصابع من التبن المطوي داخل بطانة الكمين، حتى اذا ما دخلتها الاصابع أطبقت عليها الملاقط وازدادت احكاماً كلما حاول المرء جاهداً التخلص منها. وما من طريقة للتحرر الا بالدفع في اتجاهها حتى تمزيق الكمّين. لكن أرماندو العظيم الموثق داخل السترة عاجز عن الدفع. واذا كان غير قادر على استعمال أصابعه فهو هالك لا محالة.

ضاقت عينا أرماندو عندما رأى الفخ القاتل. وتلك كانت المرة الاولى أرى جو خائفاً. فقلت: «هذه الاشياء لم تكن داخل السترة عندما رأيناها البارحة.»

فرد ماسان: «حسناً، لقد أصبحت داخلها الآن.» وأضاف بصوت عالٍ كي يسمعه الصحافيون: «يقول هذا المكسيكي انه قادر على الخروج من أي شيء، أليس كذلك؟»

بدا الارتياب على النقيب ستيفنز فقال لنا: «ما رأيكما؟ انكما لستما مرغمين على تأدية العرض إذا كنتما غير مطمئنين.»

فضحك ماسان: «كنت أعلم أن الغشاش جبان.»

فصرخت: «لسنا بجبناء!»

وارتفع صوت: «اصمتوا جميعاً!» كان ذلك أرماندو. حتى في هذه الازمة لم ينسَ استعمال لكنته المزيفة. وأضاف: «اصمت يا كارل.» لكنه لم ينظر اليّ. كان يحدق إلى تينا ماسان وهي تحدق اليه. لم أكن مخطئاً، لقد وقعا في الحب وها هما في لحظة وداع.

قال أرماندو العظيم: «حسناً أيها الشريف، أنا مستعد.»

خطا الشريف إلى الوراء وقال: «وداعاً أيها المغفل، لقد جنيت على نفسك.»

وتسارعت الامور: شرع الشريف في القضاء على غريمه. فأدخل كل اصبع من أصابع أرماندو في ملاقط التبن، ثم ضغط بركبته ظهر أرماندو محكماً شد أقفال السترة. وتولى أربعة رجال حمل الكيس الذي ربض أرماندو داخله ووضعوه داخل الصندوق. وأنزلت رافعة كهربائية الغطاء على الصندوق.

الافلات الاخير. اعتدتُ، عندما يبدأ الرجال تسمير الغطاء، أن أماطلهم

فأقترح عليهم تارة أن يزيدوا المسامير وطوراً أن يُحكموا شد الحبل. لأن من شأن هذه المماطلة منح أرماندو وقتاً للخروج من السترة ومن الكيس. وكان عادة يقرع قرعة خفيفة اشارة لي إلى أنه حرر نفسه.

قفزت على الصندوق لاكسب بعض الوقت. لكن أرماندو لم يعطِ أي إشارة.

صرخ الشريف: «ارموه في الماء.» وتعالت أصوات ابتهاج الحضور عندما ارتخى الحبل. وسقط الصندوق وبدأ يغوص.

تراءى لي أرماندو محزوماً كمومياء في سترة القنب، وأصابعه العاجزة عالقة في ملاقط التبن، والماء الجليدي يتدفق إلى الصندوق ومنه إلى الكيس، وصديقي يلهث طالباً الهواء ويجاهد إلى الدقيقة الاخيرة مقاوماً القبضات الصلبة، وفقاعة هواء أخيرة تخرج من رئتين مجهدتين، ويطبق الصمت.

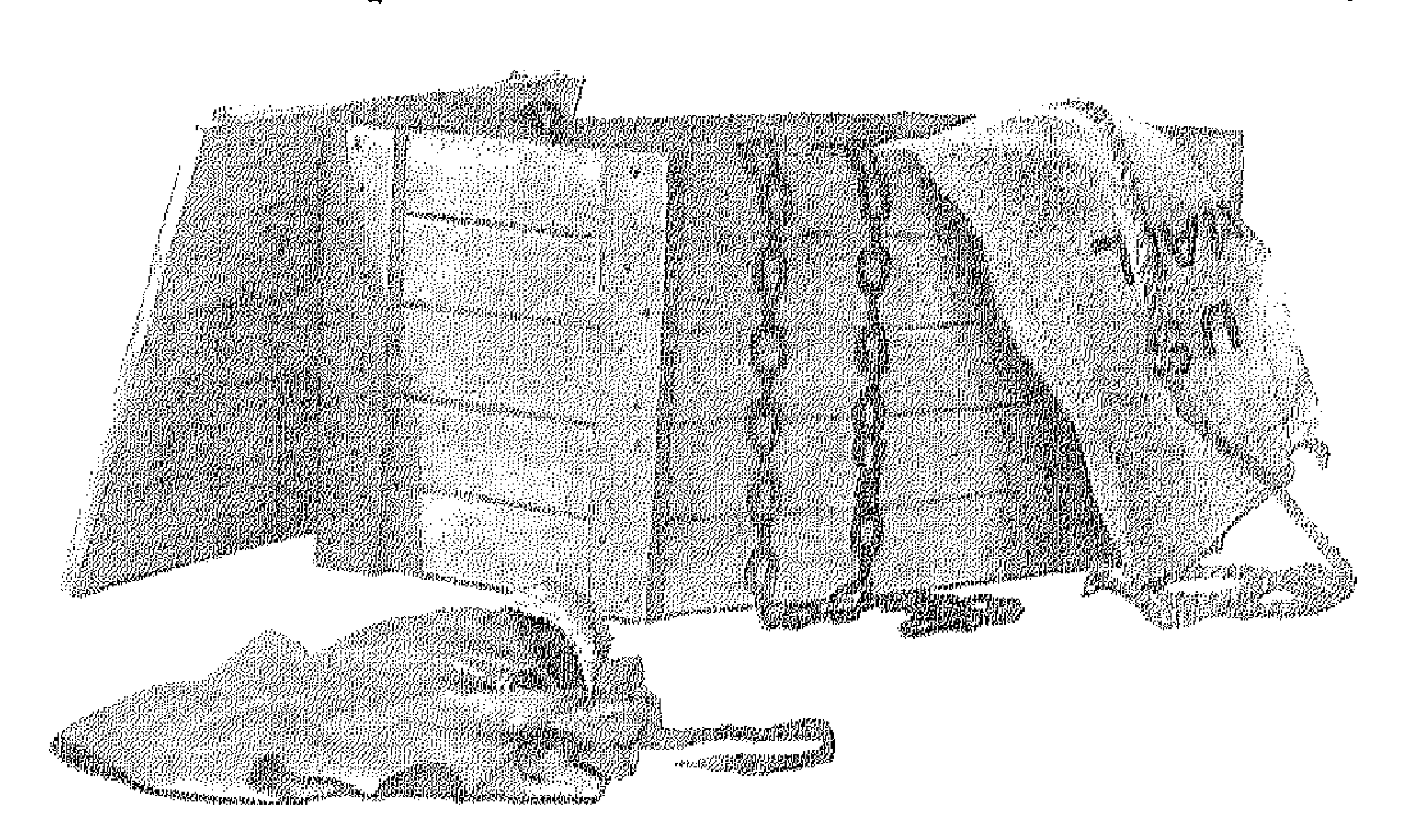
بعد مرور دقيقتين، وفقاً لساعة التوقيت لم يظهر أثر لشعر أسود يعكر صفحة النهر الخضراء. فأفلتت مني صيحة رعب: «اسحبوه، اسحبوه، لقد حصل له مكروه.» ورأيت النقيب ستيفنز يصرخ في سائق الرافعة. لكني لم أسمع هدير المحركات فقد انقطع التيار الكهربائي. وتعالى صراخ الرجال والنساء والاولاد.

غطست في النهر وقد تملكتني فكرة مجنونة. توهمت أن في امكاني الغوص وفتح الصندوق وإخراج أرماندو والكيس وكل شيء. لكن زورق الشرطة انتشلني وأودعني درجات الجسر.

عاد التيار الكهربائي بعد عشر دقائق ورُفع الصندوق. فعالجه العمال بالفؤوس والعتلات. فانكسر جانبه وظهر الكيس... خالياً... الا من السترة. ما من أثر لارماندو العظيم. لقد أنجز إفلاته الأعظم والاخير.

لم يره أحد ثانية. وأمضت الشرطة ثلاثة أيام تبحث عن جثته.

لقاء عجيب. بعد ستة أشهر قرأت في صحيفة أن الشريف ماسان قتل على يد صاحب حانة حاول ابتزازه. ولم تأت الصحيفة على ذكر السيدة ماسان. وأرسل الي النقيب ستيفنز السترة



كتذكار. لكنني لم أكن أقوى على النظر اليها، فأخفيتها في صندوقي وعدت الى عملي كصانع أقفال.

عام ١٩٥٥ أخرجت السترة وحملتها بين يدي في منزلي في نيويورك، لأنني قبل يومين رأيت جو فاريس وتينا ماسان. أقسم أنني لم أكن مخطئاً، مع أن ملامحه تغيرت وابيضّ شعره. أما تينا فلم تتغير، لكنها بدت سعيدة.

حصل هذا اللقاء عندما كنت خارجاً من دار سينما في أثينز بولاية جورجيا. هتفت: «جو! تينا!» فتوقفا بتهذيب، لكن وجهيهما ظلاّ جامدين. وقال لي الرجل: «أنت مخطىء، اسمي فرنون هاورد، وهذه زوجتي. الجميع في أثينز يعرفني. والآن اعذرنا.»

أجريت بعض التحريات لاعرف متى قدم آل هاورد إلى أثينز. فتبين لي أن السكان يعرفونهما منذ العام ١٩٢٥ وليس قبل ذلك.

لا تزال ملاقط التبن المطوي عالقة في أكمام السترة، تماماً كما كانت في ذلك اليوم المشؤوم. ارتديت السترة ووضعت أصابعي داخل الملاقط وجذبتها فتفككت للحال. وهكذا عرفت كيف تخلص أرماندو العظيم من الفخ الذي نُصب له: لقد قصّت تينا التبن فزال ضغطه. ونفذت العملية بدقة كي لا تكشف عند التدقيق في السترة.

ولا أزال أذكر نظرة التفاهم التي تبادلها جو وتينا قبل أن يوثق داخل السترة. كما أذكر صناديق الامانات في المصارف وما قاله لي: «عندما ينتابني أول شعور حقيقي بالخوف سأعتزل مهنتي فلا يعود أحد يسمع بأرماندو العظيم.»

كم كان سهلاً عليه أن يسبح إلى الشاطىء بينما الحشود في حال اضطراب وضياع ويختفي ليعود بعد موت الشريف ماسان.

عندما خططنا لعرض ديترويت درسنا العملية معاً من جميع جوانبها باستثناء ملاقط التبن. وفي النهاية، وجده أرماندو العظيم ملك الشجاعة ليثق بالحب خدعةً.

بول غاليكو ■

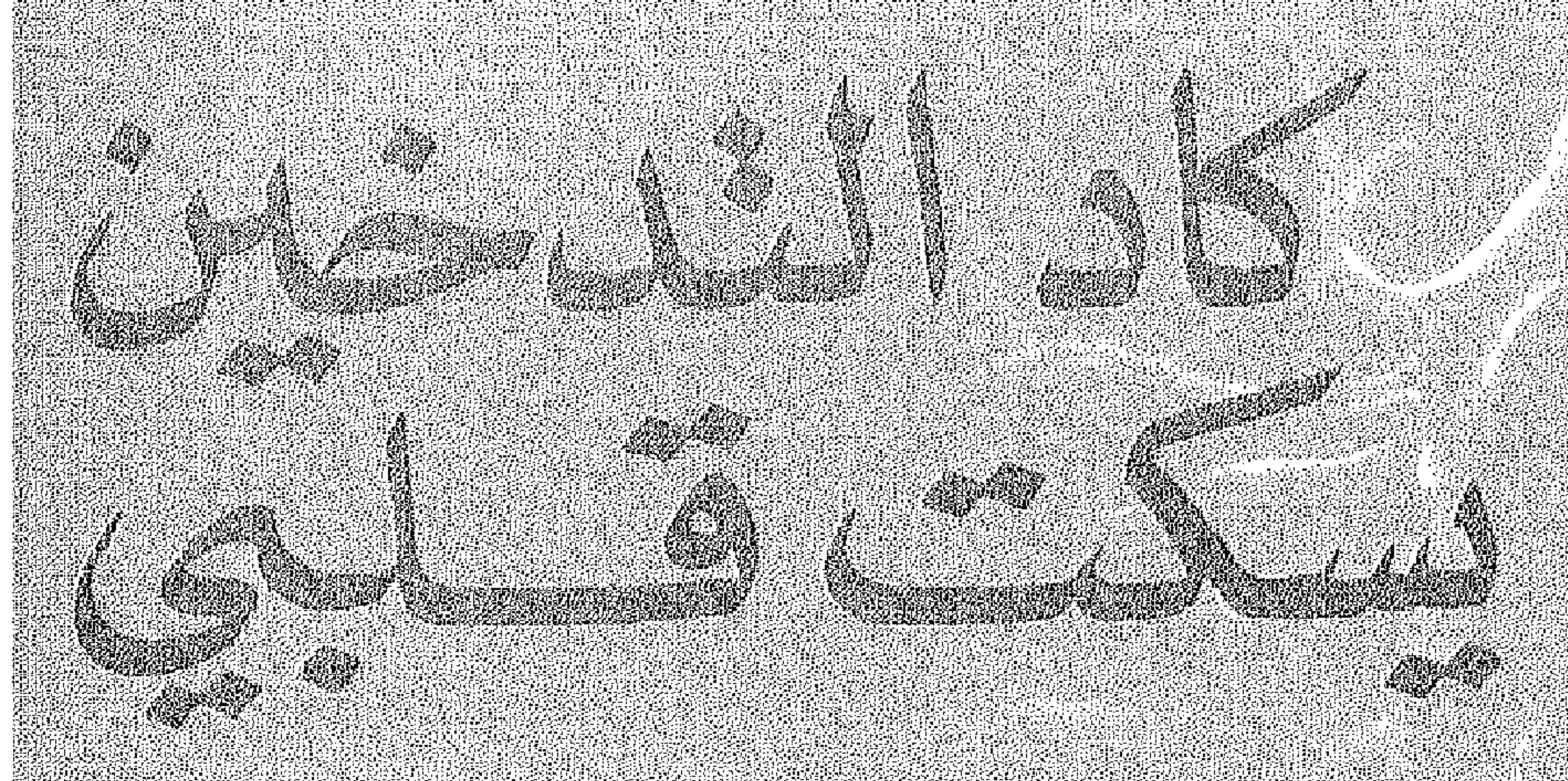
العمر كله!

علياء زبونة قديمة جداً في صالون التزيين الذي أملكه. وكانت على وشك الاحتفال بعيد مولدها المئة، فوعدتها بتصفيف شعرها مجاناً يوم اكمالها القرن. وسررت عندما أتت اليّ في حينه لتحصل على هديتها.

وفيما أنا أسرّح شعرها المتموج ذكرتها بأن عمرها هو ضعفا عمري تماماً. فصمتت علياء لحظة ثم قالت: «هناك أمر واحد يقلقني: ماذا تراني أفعل عندما تشيخين وتصبحين عاجزة عن تصفيف شعري؟»

د.و.

أدمنت التدخين ٤٠ عاماً
وحذّرني الأطباء مراراً من أخطاره
وها أنا أواجه إنذاراً أخيراً



كاد التدخين يسكت قلبي

حين تلحّ علي الرغبة في تدخين سيجارة، وهي عادة أقلعت عنها بعد ٤٠ سنة، فما علي سوى الوقوف أمام المرآة وفتح قميصي، فأرى ندباً أحمر يمتد من تحت عقدة الحنجرة وصولاً إلى السرّة، وآخر نزولاً في ربلة ساقي اليسرى. هذان الندبان، إضافة إلى فاتورة بقيمة ٣٥ ألف دولار وذكريات مفجعة، هي الشواهد على جراحة القلب التي أجريت لي في السنة الماضية.

ولكن، ما علاقة ذلك بالتدخين؟

الجواب، كما في ألوف الحالات كل سنة، هو أن الجراحة لم تكن ضرورية لو لم يكن المريض مدمناً تدخين السجائر.

طوال ٤٠ سنة كنت أدخن علبتي سجائر يومياً، وهكذا أشعلت ٦٠٠ ألف سيجارة وحرقت ١٣ ألف دولار. ولحسن

ILLUSTRATION: DICKRAN PALULIAN

حظي ما زلت حياً، اذ ان التدخين هو انتحار بطيء. ويواجه المدخنون أكثر من ضعفي خطر الاصابة بمرض القلب مما يواجهه غير المدخنين.

حين بدأت التدخين في أوائل الاربعينات في المدرسة الثانوية لم يكن هناك الا القليل من الدليل الطبي على ذلك. والدليل الذي كان يومذاك طمسته الحملات الاعلامية التي حاولت اقناعنا بأن التدخين صحّي ورائع. وكان غاربي كوبر وغيره من نجوم شبابنا يظهرون في اعلانات المجلات مبتسمين يشيدون بمزايا أصناف السجاير التي يدخنونها. وكنا نشاهد الممثل همفري بوغارت، البطل المقدام، يفتن النساء والسيجارة تتدلى من شفتيه.

كان التدخين هوس الشباب. والذي لم يدخن لم يكن مماشياً العصر. وأنا أردت أن أكون عصرياً.

سموم وأخطار من مجرد ظاهرة هوس في سن الحداثة أصبحت لي السجائر ضرورة ملحة ونمط حياة. كانت تشعرني بتحسن في أوقات الشدة والكآبة، وتهدىء أعصابي قبل الفحوص المدرسية. انما كانت لها تأثيرات خافية علي أيضاً. كان دخان السجاير يلوث قلبي وأوعيتي الدموية باثنين من أخطر أعدائها: أول أوكسيد الكربون والنيكوتين. فأول أوكسيد الكربون هو الغاز الذي تنفثه السيارة من العادم، وهو سبب الموت الاول المعروف في المرائب المقفلة. وقد لا يكون تأثيره في دخان السجائر مميتاً بالسرعة ذاتها، الا أنه يظل قاتلا. فأول أوكسيد الكربون الذي يكّون بين ٣ و ٥ في المئة من الدخان، يستنفد الاوكسيجين في كريات الدم الحمراء وقد يكثف تأثير ترسبات الكولسترول في الشرايين مما يحدّ جريان الدم الى القلب.

أما النيكوتين فهو أحد السموم الكائنة في الطبيعة، ويستخدم أحياناً في المبيدات وفيه طاقة قاتلة حتى للبشر. واذا استُنشق كدخان فانه ينبه القلب ويحفز الغدد الكظرية[1] على افراز هورمونات تزيد سرعة نبض القلب وترفع ضغط الدم. (اذا كنت من المدخنين، افحص ضغط دمك قبل تناول أول سيجارة في الصباح ثم بعدها مباشرة، فقد يدهشك الارتفاع في ضغط الدم.)

وقد يزيد النيكوتين من خطر تكثيف الصفائح[2] مما يسدّ الشرايين التاجية. وقد عرف العلماء حديثاً أن التدخين يحفز على نشوء جلطات دموية قد تؤدي الى نوبة قلبية.

ودور التدخين في تسبيب سرطان الرئة معروف منذ أمد طويل. وحين نُشر تقرير وزارة الصحة الامريكية عام ١٩٦٤ رابطاً التدخين بالسرطان، تجاهلته، فقد كنت غارقاً في الادمان. ويجد المدخنون المدمنون صعوبة في الاقلاع عن التدخين لا تقل عن صعوبة

---

(١) Adrenal glands

(٢) Plaques

الاقلاع عن الكوكايين أو الهيرويين. وحتى إن لم تلح علي الرغبة في التدخين، فاني لم أتحمل يوماً فكرة عدم توافر علبة سجائر في متناولي في أي وقت. وكان يجفوني النوم اذا لم أنهض لتدخين سيجارة، وكنت أؤجل سفري في الطائرة اذا كان قسم التدخين فيها مكتظاً.

دلائل خطر. ثابرت على عادتي حتى عندما بدت انذارات الخطر الداهم تقترب مني. وأذكر، حين توفي شقيقي بسكتة قلبية عن ٥٥ عاماً، كيف انسللت من بين المعزين الى الخارج لتدخين سيجارة. وقد فاتتني الحقيقة في تلك اللحظة، اذ كان أخي يدخّن علبتين ونصف علبة يومياً.

وذات مرة جاءني ابني المراهق، وكان من المتشددين ضد التدخين ويتهيأ للركض في سباق ماراثون. وقدم الي عرضاً: «اذا أكملت هذا السباق، فهل تمتنع عن التدخين يا أبي؟»

قبلت عرضه بعزم صادق وفي نيتي الالتزام. وقطع ابني خط النهاية مكملاً السباق، ووفيت أنا بوعدي... طوال ١٢ ساعة. وكم تأكّلني الندم لأني لم أقلع عن التدخين منذ ذلك الحين والى الأبد.

دهمني الانذار الخطير الاول. فذات يوم كنت أرفع شراع مركب العائلة حين شعرت بألم حاد في صدري ودوار تبعهما تعب شديد. وكشف الفحص الطبي أنني مصاب بالخناق الصدري[3] وهو شكوى القلب من الافتقار الى الاوكسيجين ودليل على مرض في الشرايين التاجية. وحذرني أحد أطباء القلب من مغبة التدخين، لكني تجاهلت تحذيره مفترضاً أن في قدرتي تفادي الذبحة بمجرد تخفيف التدخين سيجارة من حين الى آخر.

لم تعاودني دلائل الخطر حتى العام ١٩٨٨ في مستهل الربيع. فقد كان تعبي يزداد باطراد، حتى باكراً في النهار، وصرت أشعر بضغط ممضّ ينمو في صدري كلما مشيت مسافة قصيرة لشراء صحيفتي (ومعها سجائري). وشعرت زوجتي بأني لست على ما يرام. قالت لي متوسلة: «اذا كنت لا تريد أن تقلع عن التدخين، فعدني على الأقل باجراء فحص طبي.»

فحصني الدكتور فيليب عكر وهو طبيب قلب مرموق في كورونادو بولاية كاليفورنيا. فقال لي: «المشكلة التي سببت لك الذبحة الصدرية قد اشتدّت. انك مصاب بداء تصلّب الشرايين التاجية[4] واصابتك هي من النوع الحاد.»

ومع أن أسباب هذا الداء معقّدة فهناك عوامل كثيرة مؤدية اليه، ومنها الوراثة والغذاء الغني بالدهن والكولسترول وضغط الدم المرتفع، وخصوصاً التدخين. فهذه العوامل جميعها تعزّز تكوّن صفائح شمعية في

(٣) Angina أو الجرحة الصدرية.
(٤) Coronary atherosclerosis

الشرايين التاجية. وإذ يضيق الشريان، يصعب سريان الدم فيه. وفي المراحل المبكرة يمكن أن يسبب ذلك ذبحة صدرية خفيفة. انما في الحالات المتقدمة فانها تؤدي الى الاصابة بنوبة قلبية.

خيار أخير. أجرى لي الدكتور عكر فحصاً للاجهاد. وفيما كان يراقب المعلومات الصادرة من مجسّات تخطيط القلب[٥] الملصقة الى صدري، كنت أمشي على حزام متحرك يزداد سرعة كل ثلاث دقائق. وكانت الفكرة تهدف الى قياس تأثير الجهد الاقصى. وبعد أربع دقائق فقط كنت ألهث بشدة طالباً الهواء.

قال الدكتور عكر: «نتيجة الفحص لا تبدو حسنة، عليك أن تجري صورة وعائية[٦] لكي نتمكن من تحديد نتيجة التشخيص.» وشرح لي أن هذه العملية خالية من الالم: يولج أنبوب صغير في أحد شرايين الأربية (أصل الفخذ) ويدفع الى أعلى حتى يصل الى الشرايين التاجية. وتحقن صبغة داخل الانبوب. وأضاف: «هذه الصبغة تتيح مشاهدة جريان الدم في مرقاب الاشعة السينية (إكس). واذا كان هناك انسداد في الشرايين فيمكننا عندئذ أن نحدد موضعه.»

ان فكرة ادخال انبوب في جسمي هدّت أعصابي. فهمت على وجهي ليلا في الشوارع قبل موعد الصورة الوعائية، أغالب الأرق وأنا أدخن سيجارة اثر سيجارة. وربما خشيت في لاوعيي أن تخيفني الصورة الوعائية فأمتنع عن التدخين. فاتصلت عند الفجر بالدكتور عكر وقلت معتذراً: «لست قادراً على الخضوع لهذا الاجراء.»

اني مدين بحياتي الى زوجتي التي ظلت تلح علي كي أطلب موعداً ثانياً لاجراء الفحص. ولخص لي الدكتور عكر النتائج بصراحة مقلقة، فقال: «لقد وجدنا بقعتين من الصفائح متقاربتين جداً في الشريان الرئيسي الأيمن. والأسوأ من ذلك أن الشريان واسع على نحو غير عادي. انه يغذي عضل القلب بكمية كبرى من الدم، وأنا أنصح باجراء جراحة تحويل[٧] لمجرى الدم.»

هل كان هناك من بديل؟

كلا. فاذا اصابتك نوبة قلبية ـ وأنت معرض لنوبة ثانية خلال ستة أشهر ـ فان فرص الشفاء التام ضعيفة جداً.

في غرفة العمليات. ما زلت أتذكر السيجارة الاخيرة التي دخنتها. كان ذلك في الثانية بعد ظهر ١٨ يوليو (تموز) ١٩٨٨ في موقف للسيارات، قبيل دخولي مستشفى ميرسي في سان دييغو بكاليفورنيا لاجراء الجراحة. فبدلا من التمتع بتلك السيجارة أطفأتها بغضب بعد ثلاث نفثات ورميت العلبة بما فيها في سلة المهملات.

أثناء العملية، فيما أنا مخدّر، بَضَع

---

(٥) Electrocardiogram sensors

(٦) Angiogram

(٧) Coronary bypass

الجراح شقاً في وسط صدري ثم قص عظم الصدر بمنشار دائري كهربائي. وفُصل جزءا عظم الصدر وأُسندا كي يبقيا مفتوحين.

في ذلك الوقت شق جراح آخر باطن فخذي الايسر لانتزاع جزء من أحد الاوردة يجعل منه التحويلة، أي «الالتفاف» أو «الجسر» الذي يوجه الدم من الشريان الأورطي متخطياً نقطة الانسداد في الشريان التاجي.

ووعاء التحويلة رفيع لا يتجاوز نصف قطر قلم رصاص، وتجب خياطته تحت مكبِّر، بخيط دقيق كشعر الانسان. والجراحون لا يستحبون اتمام هذا الاجراء فيما القلب يضخ الدم. لذلك يجب ايقاف القلب. وهذه هي لحظة الحقيقة الحاسمة.

وبينما كان المشرفون يراقبون علاماتي الحيوية كالنبض والحرارة والتنفس، حُوِّل دوران دمي وتنفّسي الى «جهاز قلب ورئة.» وأدار أحد الفنيين مفتاحاً، واذا بالدم الذي كان يتدفق من قلبي واليه طوال ستين سنة أخذ يتدفق من الجهاز واليه. وفي الجهاز أضيف الاوكسيجين الى الدم وأزيل منه أول أوكسيد الكربون. وأجري تبريد للدم بحيث هبطت حرارتي وباتت أنسجة جسمي أقل افتقاراً الى الاوكسيجين. ثم عمد الجراح الى الخياطة والقلب هامد، وأنهى عمله في أقل من ساعة. وأخيرا بدأ المساعدون الطبيون تحرير جسمي من الجهاز ليستعيد عمله الطبيعي.

حين أفقت بعد ساعات شعرت كأنما شاحنة دهستني. وكان صدري يخفق وبدا لي كأنني سأتقيأ الانبوب الذي أولج في حلقي للتنفس أثناء الجراحة.

في الايام القلائل الاولى كنت أشعر بضيق في التنفس، وهي حالة عقدتها سنوات ممارستي التدخين. ولم يفت ذلك الدكتور بول فيليبس زميل الدكتور عكر الذي قال لي: «شاهدت البارحة رئتيك كتلة قبيحة سوداء.»

في اليوم السادس غادرت المستشفى الى البيت. وكانت تلك نهاية ٤٠ سنة قضيتها في التدخين. وبفضل الجراحين البارعين ومحبة زوجتي وعنايتها نجوت من أسوأ ما يحل بالمدخن المدمن: الموت المبكر.

في الاسابيع التي تلت مغادرتي المستشفى شعرت بتحسن كبير. فقوي تنفسي وأصبح الطعام أفضل مذاقاً وغدت نظرتي الى الحياة أكثر اشراقاً. فلم أعد أتوق الى قيلولة طويلة بعد الظهر. وبعد شهر فقط مشيت مع زوجتي ثلاثة كيلومترات. ويمكنني الآن أن أمشي مسافات أطول. وأنا أدرك أن جراحة التحويل لا تعني شفاء. لذلك أمارس التمارين الرياضية وأنظم غذائي كغيري من الذين أجريت لهم الجراحة.

ولكن ماذا عن التدخين؟

ما يدهشني هو أنني بعد نفث دخان السجائر لأربعين عاماً أراني لا أفتقدها مطلقاً. وقد طويت صفحتها الى الأبد.

جوزف براون ■

صور من الحياة

طفل كبير

عندما كنا صغاراً احضر لنا أبي ذات مساء قطة سيامية صغيرة. وكانت بهجتنا بها عظيمة فنسينا مرور الوقت، إلى أن لاحظ الوالد فجأة أننا في حاجة إلى صندوق رمل تقضي فيه الهرة حاجتها. فقام برحلة عجلى إلى المدينة ليجد أن كل المحلات مقفلة. ولم تثبط الخيبة همته فأغار على صندوق ألعابنا وأخذ منه دلواً ورفشاً صغيرين وانطلق نحو فناء المدرسة المحلية.

وكان جاثماً فوق مرملة الأطفال عندما دخلت الفناء سيارة شرطة. وقبل أن يستطيع الوالد تقديم أي شرح خفض الشرطي زجاج نافذته وسأله: «هل تأتي غالباً إلى هنا لتلعب؟»

ر.ج.

أستاذ انكليزي

كان عميد كلّيتنا يتوقع زيارة أستاذ انكليزي، وطلب مني أن أرافق الأستاذ إلى المكتبة حيث سيكون العميد في انتظاره. وإذ وصل الأستاذ متأخراً عن الموعد رأيت أن أختصر الوقت بسلوك باب جانبي مخصّص للموظفين. ففتحت الباب وأشرت على الأستاذ بالدخول إلى المكتبة حيث كان طلاب يدرسون، ثم أقفلت الباب وراءنا. فظهرت على وجه الأستاذ أمارات الذهول والتفت إليّ وسألني مستغرباً: «لماذا تحجزون طلابكم؟»

«مسجلة» بلهاء!

أنا أم لأربعة أولاد، أكبرهم في الخامسة من عمره. أجدني أحياناً في خضم من الفوضى أحاول أن أعتني بالجميع في وقت واحد. ذات ليلة كنت أغسل الولدين الأصغرين فيما أحاول أن ألبس الاثنين الآخرين ثياب النوم عندما رن جرس الهاتف. فرفعت السماعة وقلت بعجلة: «هالو، لا أستطيع التحدُّث الآن، قل لي من أنت وسأتصل بك لاحقاً!» فسمعت امرأة تلعن قبل أن تقفل السماعة: «كم أكره هذه الآلات البلهاء!»

ج.ك.

فندق الامنيات

كنا عائدين بسيارتنا من العطلة، عندما قررنا أن نُمضي الليلة الأخيرة من رحلتنا في فندق ريفي. فطلب زوجي من موظف الاستقبال «غرفة هادئة بعيدة من ضجيج السير على الطريق العام وساكنة «سكون الموت» إن أمكن.»

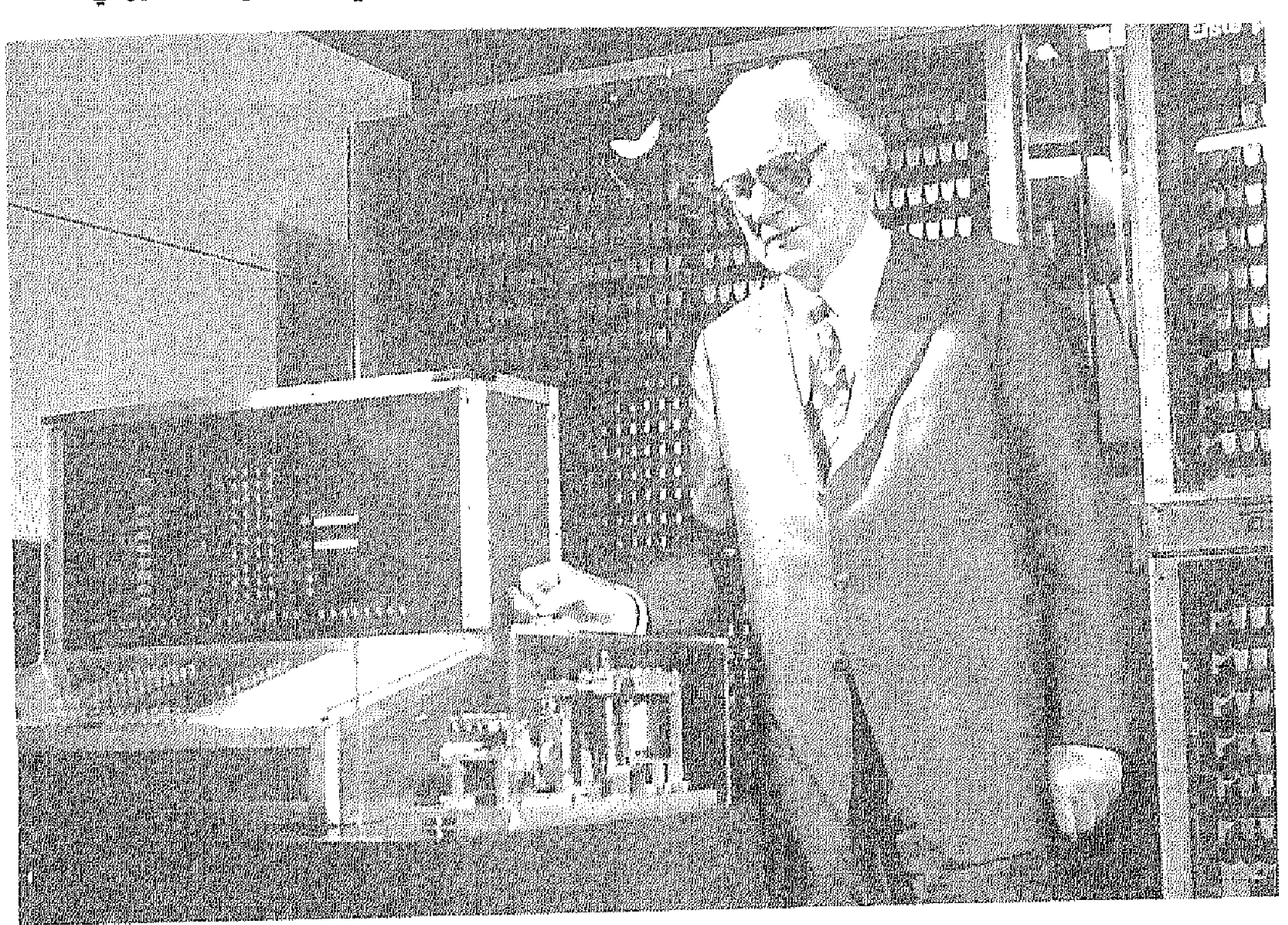
فحظينا بغرفة مريحة في الطبقة الأولى ونعمنا بنوم هادئ وراحة تامة طوال الليل. وفي صباح اليوم التالي ناداني زوجي الذي كان واقفاً أمام النافذة، لالقي نظرة على مشهد خارجي. فأسرعت إليه ودهشت لما رأيت، فقد كانت الغرفة ساكنة سكون الموت فعلاً، لأنها تشرف على مقبرة!

إ.ف.ش.

حكاية الكمبيوتر

قد لا يعني اسمه شيئاً
لكن اختراعه غيّر العالم

كونراد تسوسي والدماغ الالكتروني "Z3".



في خزانة لها واجهة من زجاج، بدت مئات الموصلات الكهربائية كأنها لوحة مفاتيح لشبكة هاتفية قديمة الطراز. وبدت بجانبها لوحة أخرى عليها مفاتيح تحويل وسلسلة أزرار بيضاء حفرت فيها أرقام ورموز.

هذه الآلة التي تدعى "Z3" المعروضة في متحف دوتش في ميونيخ ليست سوى نسخة مطابقة لأول دماغ الكتروني مبرمج وفاعل كلياً. أما النسخة الاصلية القادرة على حل عشرين مسألة حسابية معقدة في دقيقة واحدة فقد اخترعها الألماني كونراد تسوسي[١] عام ١٩٤١.

أصبحت الادمغة الالكترونية اليوم آلات مألوفة في المصانع والمكاتب والمستشفيات وغرف الاطفال. لكن قلة من الناس تعرف قصة هذا الرجل الذي

(١) Conrad Zuse

PHOTO: DEUTSCHES MUSEUM MÜNCHEN

أمضى سنوات من العمل المضني في بناء النماذج الاولى. بل ان الخبراء أنفسهم ظلوا حتى أواسط الستينات يربطون تاريخ هذه الآلات بالأمريكي هاورد أيكن الذي كشف النقاب عام ١٩٤٤ عن الدماغ الالكترو- ميكانيكي[٢] الذي اخترعه وسماه "Mark I". ولم يُعرف دور تسوسي الطليعي في هذا المضمار الا بعدما أقرّ أيكن في رسالة شخصية بانجازات المخترع الالماني.

ويعرض المتحف الالماني اثنين من «أدمغة» تسوسي الاصلية. وقد أُسبغت على المخترع شهادات وجوائز وأوسمة، إذ وضعت في لائحة ملأت ثلاث عشرة صفحة مطبوعة على الدماغ الالكتروني، وبينها وسام ألماني رفيع ولقب «أستاذ فخري» في جامعة غوتينغن وعضوية في الاكاديمية الوطنية للهندسة في الولايات المتحدة.

مع ذلك، عندما زرت تسوسي في منزله في بلدة هونفلد الصغيرة الواقعة على بعد ١٣٠ كيلومتراً شمال شرق فرنكفورت، بدا شغوفاً بالحديث عن الفن كشغفه بالحديث عن الادمغة الالكترونية. اذ بعد تقاعده عام ١٩٦٦ عاد ليمارس هواية الرسم. وأراني بعضاً من لوحاته التي أُنزلت في معارض كثيرة وتباع بمبالغ تبدأ بألف مارك (نحو ٦٠٠ دولار). وأخبرني تسوسي، الرجل الفارع الطول والابيض الشعر محدقاً من خلال نظارة سميكة: «في صغري كنت دائماً أتساءل أيهما أحب الى قلبي: الرسم أم الادمغة الالكترونية؟ أما اليوم، بعد سنين طويلة من التركيز على الرياضيات، أجد متعة كبيرة في ابداع شيء ما على أقمشة الرسم.»

الضجر الخلاق. ولد تسوسي في برلين في ٢٢ يونيو (حزيران) ١٩١٠. وأمضى صباه في مدينتي برونسبرغ (بروسيا الشرقية) وهويرسفردا (سيليسيا) حيث عمل والده مديراً لمكتب البريد المحلي. وظهرت باكراً عبقريته في الفن والتكنولوجيا. وملأ ملفات ضخمة بالتصاميم والرسوم. ومع ذلك كانت لعبته المفضلة مجموعة تركيب بنى منها رافعات وآلات ضخمة.

عندما تخرّج تسوسي في المدرسة الثانوية وهو في السابعة عشرة من عمره، حار بين دراسة الفن أو دراسة الهندسة الميكانيكية. لكنه وجد أن الهندسة تؤمن مجالات أفضل للعمل. فاختار جامعة برلين التقنية. بيد أن الصراع ظل قائماً في ذاته. يقول: «كانت الدراسة تقتصر غالباً على رسوم وتصاميم روتينية، في حين كنت أريد ابتكار الاشياء.»

وبعد سنة ترك تسوسي الجامعة وامتهن الرسم. ولكن في العام ١٩٣٠، بعد سنة من «الانهيار الاقتصادي الكبير»، بات ملايين الناس عاطلين عن العمل. فعاد تسوسي إلى الجامعة مبدلاً اختصاصه بالهندسة المدنية.

(٢) Electromechanical computer

تخرّج عام ١٩٣٥ وحصل على وظيفة مهندس سكونيات[3] ومحلل إجهاد في شركة «هنشل» للطائرات في برلين، حيث انهمك في الحسابات مستخدماً الحاسبات الميكانيكية. فتبين له أن العمل يقتضي وقتاً طويلاً جداً. وضجر من تحويل نتائج العمليات الحسابية من جزء من المسألة الى جزء آخر، ونسخ النتائج التمهيدية على الورق، ثم ترقيمها لاسترجاعها لاحقاً.

إذذاك أخذ يفكر في امكان إختراع آلة تنجز هذا العمل الروتيني بكامله.

ولكن على رغم معرفته العميقة بالميكانيك والرسم التقني كان إلمامه قليلاً بالهندسة الكهربائية وبمبادىء الحاسبات الميكانيكية. وكان في الواقع يجهل المنطق الحسابي تماماً. فناقش المسألة مع أصحاب له من أيام الدراسة وبينهم والتر بوتمان وهلموت شريير واندرياس غروهمان. فانطلقوا معاً الى المكتبات لسد النقص في معرفتهم. وفي هذه الاثناء ترك تسوسي عمله في شركة «هنشل» وأنشأ محترفاً في مسكن ذويه في برلين.

وكان كلما ازداد معرفة ازداد رفضاً للطرق المتبعة في الآلات الحاسبة حيث تمثّل الارقام باصطلاحات ميكانيكية للأرقام العشرية ومثال على ذلك المسنّنات[4] التي اعتمدت في المراتب المراوحة بين الصفر والتسعة. وعوض ذلك اختار تسوسي «النظام الثنائي»[5] الذي لا يتضمن الا مرتبتين، على غرار الزر الكهربائي الذي يكون إما موصلاً وأما قاطعاً للتيار.

ولبناء هذه الآلة توجب صنع ألوف الصفائح المعدنية يدوياً للذاكرة. فبدأ تسوسي رسم التصاميم، وساعده أصدقاؤه في الأعمال الميكانيكية ومده بأموال استدانوها من ذويهم لشراء اللوازم.

وذكر غروهمان لاحقاً: «إن أداء الآلة الخالي من الاخطاء كان يتوقف الى حد بعيد على دقة عملي اليدوي. كنت ألصق تصاميم تسوسي على رقائق خشبية وأضع الصفائح المعدنية اللازمة بين لوحين، وأثبّت المجموعة ببراغي. ثم أقتطع الاشكال المطلوبة بواسطة منشار كهربائي صغير.»

بدل ٢٠ موظفاً. في أوائل ١٩٣٧ أُنجزت الذاكرة الميكانيكية العاملة، ونجح تسوسي لاحقاً في وصلها بوحدة حسابية ميكانيكية. وكانت الآلة تُشغّل بواسطة محرك كهربائي. وأطلق تسوسي على هذا الدماغ الالكتروني البدائي اسم "Z1" وبرمجه بتخريم ثمانية ثقوب مرمّزة على فيلم قديم من قياس ٣٥ مليمتراً.

على رغم العيوب الكثيرة التي حالت دون عمل هذا الدماغ الالكتروني على

(٣) Statics engineer. والسكونيات أو الاستاتيات فرع من الميكانيكا يعنى بدراسة الاجسام الساكنة او القوى المتوازنة.

(٤) Gears

(٥) Binary system

نحو ملائم، لم يفقد تسوسي ورفاقه حماستهم. وبدأ تسوسي يختبر امكان ابدال الوحدة الحسابية الميكانيكية بمرحِّلات كهربائية[٦]، يساعده مهندس اتصالات اسمه شرير. لكنه اصطدم بعقبتين كبريين هما التمويل والحجم الملائم. ففي أواخر الثلاثينات بلغ ثمن أبسط مرحِّل بضعة دولارات. ولصنع دماغ الكتروني ذي قدرة وسعة معقولتين، كان تسوسي في حاجة الى ألوف المرحِّلات. وبما أن كل مرحِّل يشغل عدة سنتيمترات مكعّبة حجماً، تبين أن الدماغ الالكترو-ميكانيكي سيملأ غرفة بكاملها.

وحين حصل شرير على مرحِّلات مستعملة بخسة الثمن عدَّلها بحسب الحاجة وقرّر بناء نموذج تجريبي مؤلف من مئتي مرحِّل يتسع لها محترفه الضيق. وفي صيف ١٩٣٩ كان "Z2" على وشك الاكتمال.

ولكن عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، ألحق تسوسي بالخدمة العسكرية. وبعد ستة أشهر سمح له بالعودة الى عمله السابق في شركة «هنشل» لأن الطائرات كانت ضرورية في المجهود الحربي. فواظب على العمل على الدماغ الالكتروني في أوقات الفراغ.

أخيراً، عام ١٩٤٠، أصبح "Z2" جاهزاً للعرض وأدى وظيفته على نحو ممتاز أثار اهتمام أدولف تاشمان من المعهد الالماني لأبحاث الطيران، وهو اختصاصي ومرجع في «رفرفة» أجنحة الطائرات. أدرك تاشمان أن دماغاً الكترونياً مثل "Z2" سيعجِّل العمليات الحسابية في حقله على نحو مثير. ووعد بالمساعدة المالية.

أسس تسوسي شركته الخاصة، وفي نهاية العام ١٩٤١ أنجز "Z3" الذي يقوم بعمل عشرين موظفاً. وهو ضمّ وحدتي ذاكرة وُضعت كل منهما في حجرة بعرض متر ونصف متر وارتفاع مترين. وكانت وحدة الحساب والمراقبة ذات حجم مماثل. وبلغت كلفة المعدات نحو ١٠ آلاف دولار. ويقول المؤرخ الامريكي بول سيروزي، وهو قيّم على قسم تكنولوجيا الادمغة الالكترونية في معهد سيمسونيان في العاصمة واشنطن: «كان Z3 يؤدي عمله تماماً، وكان بحق صالحاً في ميادين شتى.»

انتصار وربح. استعمل تسوسي "Z3" كنموذج إلى أن دمر خلال غارة جوية. لكنه تلقى طلبات تجارية كثيرة وأصبح لديه عام ١٩٤٤ عشرون موظفاً. وما لبث أن صنع "Z4" الذي بلغ وزنه نحو ثلاثة أطنان وكان قادراً على إجراء ألف عملية حسابية في الساعة.

وفي فبراير (شباط) ١٩٤٥ غادر تسوسي برلين التي مزقتها الحرب مصطحباً عماله وزوجته جيزيلا التي تزوجها في يناير (كانون الثاني) الى غوتينغن ومعهم صناديق كثيرة احتوت على قطع "Z4". وهناك أُعيد تجميع

(٦) Electrical relays

الدماغ الالكتروني في «معهد الديناميكا الهوائية الاختبارية» ووضع قيد التجربة. يقول تسوسي: «كان فرحي لا يوصف لدى عرض قدرات آلتي على الاختصاصيين، فتلك كانت اللحظة التي عملت لأجلها وانتظرتها عشر سنين.»

لكن عمر الانتصار كان قصيراً. فمع اقتراب القتال من برلين انسحب تسوسي وفريقه الى قرية في جبال الألب البافارية حيث وضع "Z4" في اسطبل.

ولم يظهر انجاز تسوسي إلا بعد أربع سنوات. ففي أوائل العام ١٩٤٩ قدم البروفسور ادوارد ستيفل من «المعهد السويسري الاتحادي للتكنولوجيا» الى البلدة بعدما تناهت اليه أخبار "Z4". وأدرك فوراً أنه أمام آلة تتفوق عملياً على غيرها من المرحِّلات أو الأدمغة الالكترونية الكبيرة الحجم التي طورت في أماكن أخرى. ووقّع عقداً استأجر بموجبه "Z4" لمعهد الرياضيات التطبيقية. وقد عمل هذا الدماغ الالكتروني بفاعلية في زوريخ طوال خمس سنوات ثم نقل الى مختبر سان لوي للأبحاث التقنية في فرنسا.

لقد أمّن العقد مع المعهد السويسري الاتحادي للتكنولوجيا المال اللازم الذي مكن تسوسي من إعادة إطلاق شركته في نوكيرشن بمقاطعة هيس عام ١٩٤٩. وفي السنوات اللاحقة صمم، وبنى، كثيراً من الأدمغة الالكترونية الصغيرة والمتوسطة الحجم لحساب المعاهد العلمية والتقنية والسلطات الرسمية



المخترع غارق في هوايته: الرسم

والشركات الخاصة. وعلى سبيل المثال، اعتمدت شركة «ارنست ليتز» طراز "Z5" في صناعة عدسات التصوير والأجهزة البصرية. وفي الخمسينات والستينات اشترت سلطات ألمانيا الغربية طراز "Z11" المبرمج لاجراء الحسابات الجيوديسية[٧] ومسح الأراضي. وانضمت الجامعات التقنية الى عداد زبائن "Z22" وهو أحد أكثر منتجات تسوسي دراً للربح. وقد أُنتج منه نحو خمسين جهازاً خلال خمس سنوات.

(٧) الجيوديسيا فرع من الرياضيات التطبيقية يعنى بدراسة شكل الأرض وبقياس سطحها.

PHOTO: ACTION PRESS/ERICH GUTBERLET

وفي أوائل الستينات أصبح تسوسي منافساً حقيقياً لشركة «أي بي ام» في سوق ألمانيا الغربية وحقق مبيعات سنوية بلغت ٢٥ مليون مارك . وبلغ عدد موظفيه ألفاً. لكن المشاكل بدأت تلوح في الافق لاخفاقه في بناء أدمغة الكترونية أصغر حجماً على رغم أنه ضم اليه شركاء أقوياء كمؤسسة «براون بوفري» وشركة «سيمنز.»

وفي العام ١٩٦٦ أصبح تسوسي شبه متقاعد وضمت «سيمنز» شركته اليها. لكنه، الى عمله كمستشار، ظل يعلم ويلقي محاضرات وعاد الى حبه الأول: الفن. وهو جمع في لوحاته الزاهية الألوان عناصر تعبيرية وسوريالية وتجريدية.

ومضى يراقب عن كثب تطور الأدمغة الالكترونية التي تختلف كثيراً اليوم عن تلك التي صممها. يقول: «كان هدفي الاساسي صنع أداة نافعة تحرر الناس من الحسابات المضيعة للوقت. ولم أحلم يوماً بمدى التطور الاجتماعي والعلمي والتكنولوجي الذي بات ممكناً بفضل الدماغ الالكتروني ولا شك في أن التطوير المستمر سيكشف كثيراً من ألغاز الطبيعة ويطرح حلولاً لمشاكل عالمنا المعقدة ولمنفعة الجنس البشري.»

جون دورنبرغ ■



نومة الحمق

كان جحا يعاني صعوبة في النهوض من النوم صباحاً. فطلب من طبيبه أن يصف له دواء. وذلك المساء تناول قرصاً من الدواء فنام نوماً عميقاً وافاق نشطاً قبل أن يرن جرس المنبه. فلبس ثيابه على مهل وتناول فطوره بروية ثم غادر البيت الى العمل. وعند وصوله قال لرئيسه: «أشعر بنشاط تام ولم أواجه مشكلة في النهوض هذا الصباح.»

فرد رئيسه: «عظيم، لكن أين كنت طوال الايام الثلاثة الماضية؟»

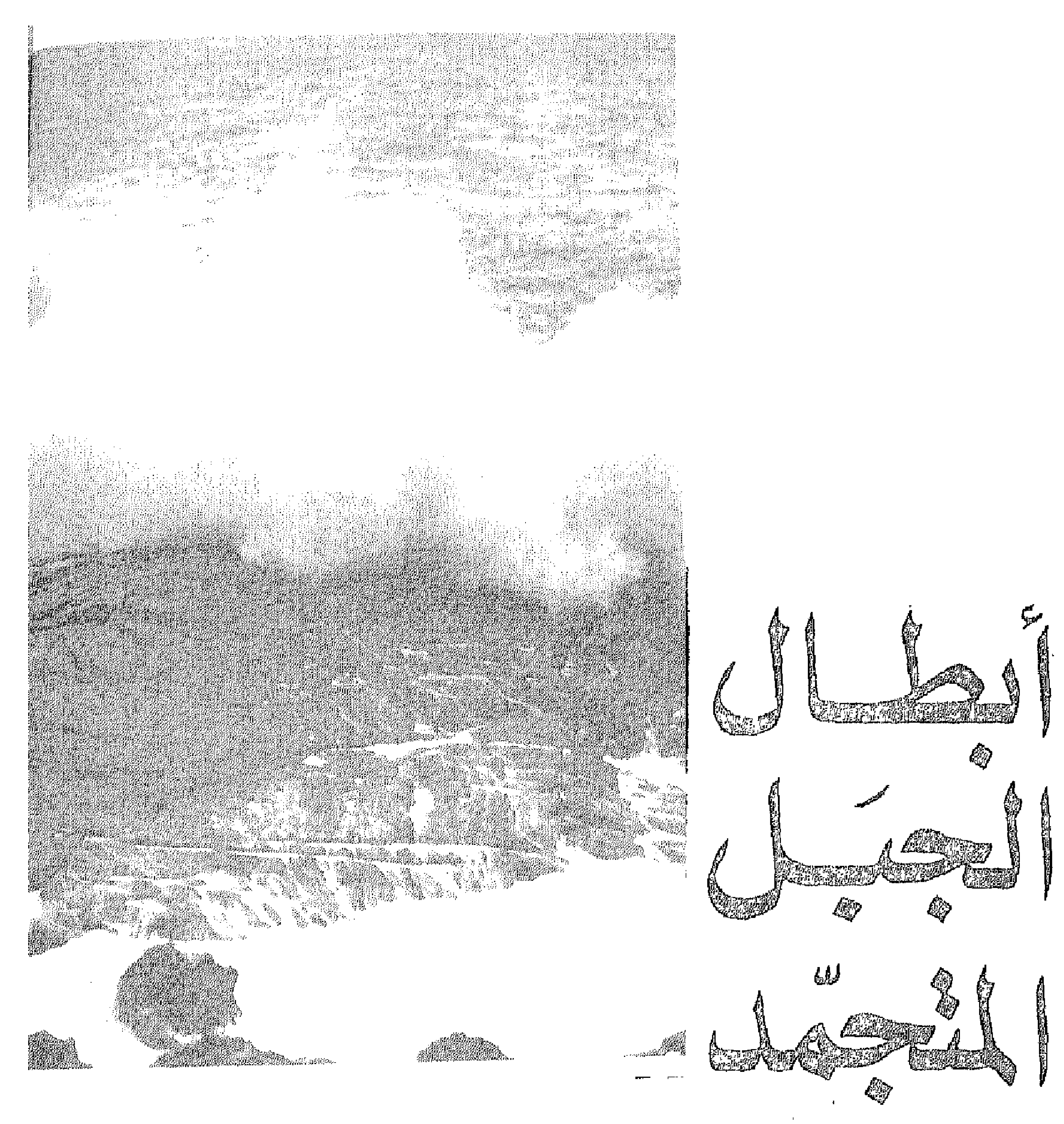
ك.ل

سؤال تقويمي

اعتاد أحد زملائي المدرِّسين أن «يذيِّل» امتحانات آخر السنة بسؤال يساعده على التقويم الذاتي لاسلوبه. والسؤال هو: «ما رأيك في هذه المادة الدراسية؟»

لكنه أبطل عادته عندما قرأ جواب أحد الطلاب: «انها أكمل مادة تابعتها في حياتي. فما لم يُشرح في الصف عولج في امتحان آخر السنة.»

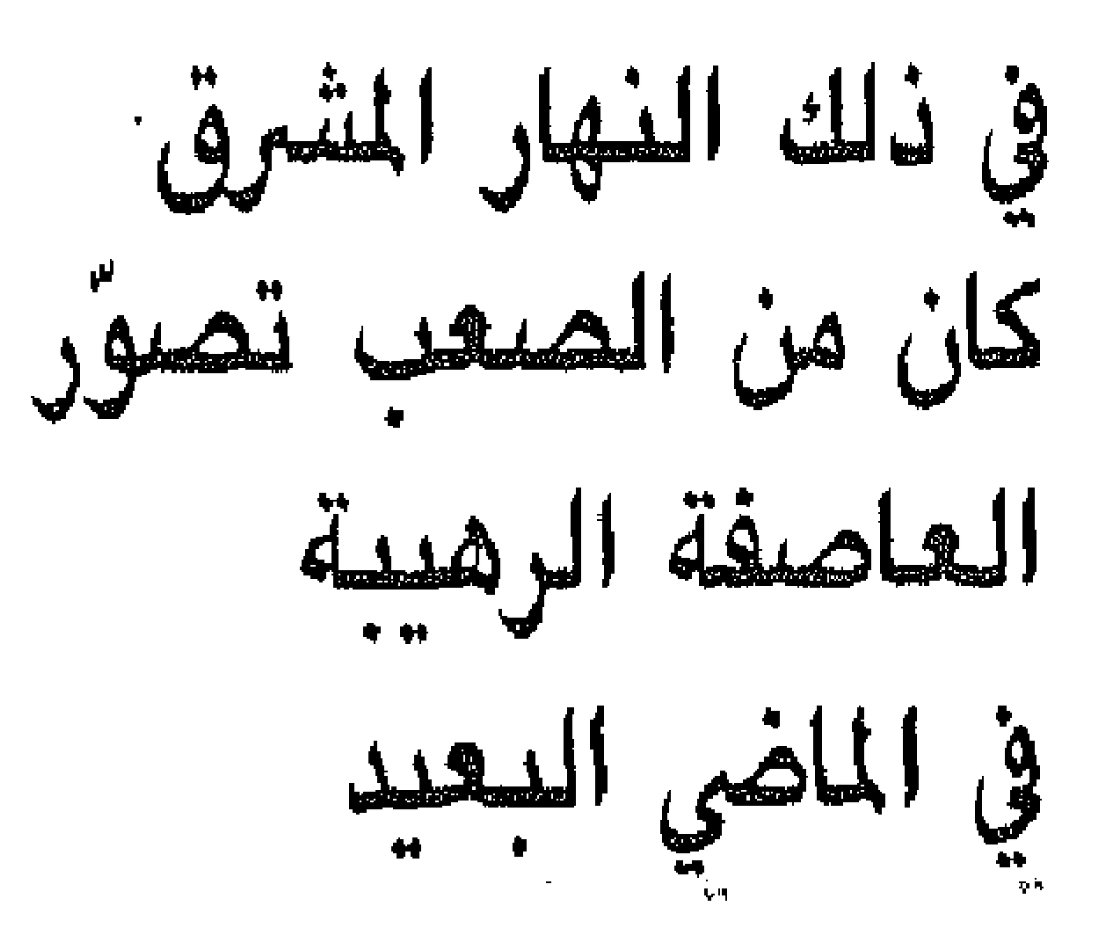
و.هـ.



أبطال الجبل المتجمّد

مضى علينا يومان ونحن نشق العباب وسط الأنواء الغاضبة والثلوج والرياح العاصفة على متن «بولوكس»، وهي باخرة تموين للبحرية الامريكية كانت في طريقها الى نيوفاوندلند حيث للولايات المتحدة قاعدة عسكرية كبيرة. وقبيل الثامنة مساء، في ١٧ فبراير (شباط) ١٩٤٢، أنهيت نوبتي في المراقبة على منصة القيادة. ولم يكن في امكاني الرؤية أبعد من كيلومتر أمامي. وفي مكان ما في تلك المتاهة البيضاء كانت المدمرتان «تروكستون» و«ويلكس» تواكباننا على امتداد الشاطىء الكندي المثلّم.

قلت لبدلي: «ها ان كل شيء في يدك الآن. وأنا لا أحسدك.» كان البرد اخترق جسمي حتى العظم، فنزلت مسرعاً الى مخدعي الدافىء.



في ذلك النهار المشرق كان من الصعب تصوّر العاصفة الرهيبة في الماضي البعيد



الباخرة «بولوكس» قُبيل انشطارها، وشاطىء نيوفاوندلند حيث جنحت.

لم تنقضِ بضع ثوان، في تصوري، حتى أيقظني في الرابعة صباحاً صوت تحطم أعقبته ثلاث رجات متلاحقة. سرتُ بين المهاجع المتساقطة والرجال المتعثرين متوجهاً الى ميسرة منصة القيادة حيث كان هدير الامواج المتكسرة يصم الآذان. فشاهدت جرفاً ثلجياً ينعكس بياضه في ظلام الليل ولا يبعد اكثر من مئة متر. واذا بالباخرة تترنّح وتميل على جنبها الأيمن. وكرّت على المتن موجة عارمة فجنحت الباخرة ورست على حيد صخري قليل العمق.

الشاطىء القاتل. في الفجر الرمادي البارد رأينا أنفسنا على بعد ٥٠ متراً من شاطىء صخري صغير، وراءه طنف صخري يرتفع حوالى ثمانية امتار، وخلفه جرف يكسوه الجليد.

كانت خزانات الوقود تمزّقت، وتدفق السائل الكثيف منها وغطى الامواج. وكان مؤخر الباخرة لا يزال عائماً يترجج بعنف مع الامواج المتدافعة، وقعرها ينسحق على الصخور. وكانت العاصفة تزداد عنفاً فتمزق فتحات العنابر التي تحولت مجمّعاً مزبداً من الماء والخشب والكرتون وبقايا الحمولة. وكانت الباخرة تهتز بضربة كل موجة.

كانت المدمرة «ويلكس» طليقة من الصخور لكنها تتخبط في الامواج الثائرة، ولم تتمكن من الاقتراب لمساعدتنا. فأرسلت الينا شارة بمعنى: «تسربت المياه الينا أيضا. سنبقى معكم الى أن تصل النجدة.» أما المدمرة «تروكستون» فلم يبن لها أثر.

أيقنا أن ليس في استطاعتنا انقاذ باخرتنا، وسنكون محظوظين اذا نجونا بأنفسنا. وتطوع خمسة من الملاحين للوصول الى الشاطىء في الزورق الآلي الوحيد الذي نجا من التحطم. فقادوه عبر متاهة من الصخور الناتئة الخطرة وما لبث أن قُذف الى شق ضيق في جنباتها. لم يصل سوى ثلاثة الى الشاطىء، فأرسلوا الينا اشارة بمعنى: «ذاهبون لطلب النجدة.» وبانوا وهم يتسلقون الجرف كأنهم ثلاث نملات سود. كانوا أملنا الوحيد في النجاة، خصوصاً لأن الخريطة لم تُظهر لنا شيئاً سوى قفر خال ينبسط حولنا مسافة كيلومترات.

وعنفت الرياح. وشاهدت شقاً على امتداد متن الباخرة ابتداء من مقدم منصة القيادة. واذا بموجة كالطود تضرب، وسُمع صوت كقنبلة مدفع، وشاهدت بهلع مقدم الباخرة ينفصل كلياً ويصطدم بالصخور، فاعتلى القبطان منصة القيادة متجهم الوجه، وخاطب البحارة: «كل من يشعر بالقدرة على بلوغ الشاطىء يمكنه مغادرة الباخرة.»

نزل أكثر من ٩٠ بحاراً بالحبال على جوانب الباخرة، وبعضهم غاب في اللجة حالما بلغ المياه الجليدية المغطاة بالحطام والوقود، وبعضهم جرفته الامواج المتدافعة الى الشاطىء. ولم يكتم هدير الامواج استغاثات الغارقين.

كان القبطان من منصته يشاهد بحارته يبتلعهم البحر الهائج واحداً بعد الآخر. شعر بأن كلا منهم مثل ولده. ثم أصدر أوامره: «ليكف الرجال عن النزول.» فمن الذين نزلوا تمكن عشرة أو خمسة عشر فقط من الوصول سالمين الى الشاطىء، وطفت جثث الباقين مالئة صفحة الماء.

دروع جليد. في وقت متقدم من الصباح عاد الينا الأمل، اذ نجح اثنان من الذين نزلوا على الحبال في الوصول الى الشاطىء. فتوجه بعض البحارة الى المنصة المحطمة وحاولوا قذف حبال نجاة الى الرجال على الشاطىء.

ومرّت في مخيلتي البرقية التي ستتسلمها زوجتي والتي تعلن وفاتي: «تأسف البحرية اذ تعلن وفاة...».

وكان القبطان يقف على جناح المنصة، فأخذ لفة حبل رفيع متين وربط بطرفها سماعة هاتف ولوّح بها مراراً ثم أطلقها برمية رائعة أوصلتها الى الشاطىء. بعد ذلك ربطنا حبلا أثخن بالحبل الرفيع سُحب الى الشاطىء حيث شد الى صخر.

علّقنا على الحبل كرسياً وتطوع مجنّد قوي لاختبار العبور. فجلس في المقعد وانزلق بحذر على الحبل فوق المياه المزبدة وما لبث أن وصل الى الشاطىء سالماً. وجاء دوري بعده واستمرت العملية المكوكية على مدى ساعات. وعند اقتراب الغسق بقي على المنصة شخص وحيد ركب الكرسي وانزلق نحونا. ولدى وصوله اطلقنا هتافاً مدوياً على الجرف. انه القبطان.

انتقلنا الى رف صخري أعلى وتكوّم بعضنا على بعض التماساً للدفء كالماشية في عاصفة ثلجية. كنا مئة رجل محتجزين على ذلك الجرف ومعزولين عن كل أسباب الحياة. وكان يراود كلا منا هاجس واحد هو: هل نجونا من السفينة لنموت على هذا الجرف العاري؟

كنا نضرب الارض بأقدامنا ونلكم بعضنا بعضاً خوفاً من التجمد والموت. وحين مُرّر علينا اللحم المعلّب دفعناه الى أفواهنا بأيد قذرة ملوّثة بالوقود والتهمناه بشراهة. وحوّل الرذاذ القطبي بذلاتنا دروعاً من جليد.

ثم سمعت صوتاً يخترق هدير العاصفة: «ها هو آت!» واذا بأحد البحارة يُسحب الى أعلى الجرف بحبل. لقد وصل المنقذون!

جبابرة. لم يكن الخطر قد زال بعد. فالمد في ارتقاع متعاظم مع كل موجة تتكسر على الجرف، فهل يتسع الوقت لانقاذنا جميعاً واحداً بعد واحد؟

مرت ساعة مثقلة بالخوف، واذا بي أسمع صراخاً وصياحاً، لقد جرفت الأمواج عن الطنف خمسة رجال غابوا في غمار الأعماق والظلام. كانت الساعة الثامنة مساء وقد مرت ١٦ ساعة من الرعب والارهاق منذ جنوحنا. وما لبثت ان وجدتني مربوطاً بحبل حول خصري ورحت أرتفع الى أعلى الجرف. ولدى بلوغي القمة نُزع عني الحبل فسقطت على الثلج منهكاً لا أقدر على الحراك. فساعدني أحد سكان نيوفاوندلند على الوقوف وقادني وأنا أتعثر فوق الصخور والروابي الجليدية الى حيث كانت نار تتوهج على بعد حوالى ٤٠٠ متر. وكانت النار أوقدت في أخدود صغير هو البقعة الوحيدة التي توفر وقاية من البرد في كل تلك الانحاء. وجرّني أحدهم الى وسط الدائرة فغمرني الدفء وكأني أحس الحرارة لأول مرة في حياتي.

وحين استعدنا حواسنا علمنا أن منقذينا هم جماعة من صيادي الاسماك من لون التي تبعد ستة كيلومترات. فقد كان الفتى أدولف جارفيس يصطاد طيور البحر في رأس ويبرز ذلك الصباح، وحين توقف سقوط الثلج شاهد سفينتنا

راسية على الحيد قريباً من الشاطىء. فأسرع وسط العاصفة طلباً للنجدة.

لم يصدقه أحد في بادىء الامر. لكن أحد القرويين قال: «لو كنت أنا في خطر في مثل هذا الطقس لرغبت في أن يعمد أحد الى التدقيق في الامر.» ومضى الفتى الصياد والقروي يشقان طريقهما الى رأس ويبرن. فشاهدا السفينة الجانحة وعادا الى قرية لون واصطحبا عدداً من الرجال وجصاناً لحمل الحبال الثخينة والفؤوس، وظل الرجال يصارعون الثلج والعاصفة والارض الوعرة طوال ساعات حتى انتهوا الينا. ثم عملوا ليلا كي ينتشلونا من ذلك الطنف الخطر.

ووصلت مجموعة أخرى من المنقذين بينهم عمال مناجم من سانت لورنس التي تبعد عشرة كيلومترات. وكان أحد البحارة الذين ركبوا الزورق الآلي من الباخرة نجا وأكمل مسيرته وطلب النجدة وروى لنا عمال المناجم مصير المدمرة «تروكستون.» فهي أيضاً جنحت الى الشاطىء وتحطمت. ومن بين ١٥٦ رجلا كانوا على متنها لم ينج سوى ٤٦. وهؤلاء أنقذهم العمال أنفسهم الذين شاركوا في انقاذنا. ولم يسعني الا الاعجاب ببلاد تنبت أمثال هؤلاء الجبابرة في الجلّد واحتمال المشقات.

قبيل مطلع الفجر انطلقنا الى منجم ارون سبسرينغز. وحُمِّل الرجال الذين كانوا في حال سيئة جداً على المزالج، فيما مشى الباقون متعثرين في مناسف الثلج وعلى الارض المكسوة بالجليد.

ولدى بلوغنا المنجم أعطانا أهل سانت لورنس طعاماً من غداء عمال المناجم ونظفوا أجسادنا المتجمدة من الزيت والوقود وأصرّوا على أن نأخذ قفازاتهم وكنزاتهم ولفاعاتهم حتى نهاية الرحلة.

ونقلتنا شاحنة الى سانت لورنس حيث أُخذنا الى منازل للسكان وقدمت الينا عناية طبية. وألبسنا ثياباً نظيفة ونمنا في أسرة وحولنا حجار ساخنة لتدفئة عظامنا التي نخرها البرد. أما أنا فكان نصيبي الاقامة في منزل السيدة لورا روز التي أظهرت من اللطف والعطف ما لا يوصف.

وما بقي من الرواية لا يزيد على نتف بقيت عالقة في ذاكرتي، الى نوم عميق هادىء لم تعكره كوابيس.

فقدنا ٩٣ رجلا ونجا ١٤٠. وقد أثرت شجاعة النيوفاوندلنديين في الرئيس الاميركي آنذاك فرنكلين روزفلت الى حد أنه بعث برسالة شكر شخصية. وشيّدت حكومة الولايات المتحدة في ما بعد مستشفى لهم عربون شكر وعرفان.

فيض محبة. في ٢٩ يوليو (تموز) ١٩٨٨، بعد ٤٦ سنة، عدت الى نيوفاوندلند لمدة خمسة أيام للاجتماع ثانية بهؤلاء الناس الذين جازفوا بحياتهم في سبيل انتشالنا من أشداق الموت في الخضم الثائر. وفيما سارت بنا الحافلة في ظلام الريف الكندي في الثانية صباحا وهي تقلّ ١٣ بحاراً أمريكياً قديماً، شاهدنا توهج الانوار في

سانت لورنس، ولم نكن نتوقع انواراً متوهجة في بلدة لا يتعدى عدد سكانها الالفين.

كانت البلدة كلها بقيت ساهرة استعداداً لاستقبالنا. فالشيب والشباب اصطفوا في الشوارع يهتفون ويلوحون، ورافقنا موكب من ٥٠ سيارة. وفي كل بيت أنوار وأعلام تكاد تحجب معالمه، ولافتات جاء فيها: «اهلا وسهلا بالناجين من بولوكس وتروكستون.»

هؤلاء الناجون المسنّون الثلاثة عشر استُقبلوا كالابطال. والدموع التي عزّ سكبها في ذلك اليوم المتجمد من العام ١٩٤٢ هطلت في هذا اليوم السعيد.

صباح اليوم التالي زرت وزوجتي مسكن الفتى بروس لايك (١٣ عاماً) الذي كان جده أحد المنقذين.

وفيما كنا على أهبة مغادرة المنزل ناولني بروس مفتاحاً وقال لي: «أرجو أن تعتبر هذا المنزل بيتك.»

خلال اللقاء كان هناك فيض من العواطف والمحبة وصل فراغ نصف قرن. في تلك البلدة الصغيرة كان كل من السكان يمتّ بنسب اما الى صياد ساعد في سحبنا الى أعلى الجرف، واما الى عامل منجم سار كيلومترات متحدياً العواصف والثلوج، واما الى ربة منزل نظفتنا وأطعمتنا.

ذهبت الى منزل واليس روز الذي كانت أمه اعتنت بي في تلك الليلة. فأخبرني أنها ماتت. لكن واليس كان هو ذاته ذلك الشاب ابن الثامنة عشرة الذي نزع قفازه ومعطفه وأعطاني اياهما حين أحضرني الى المنجم.

والتقيت جيم درايك، الوحيد الباقي من المجموعة التي شدّتنا الى أعلى الجرف. كان قصير القامة متين البنية وقد قال لي: «كنتم في نظري دائماً أبطالاً.»

فأجبته: «أنتم لم تكونوا تعرفون أحداً منا، ومع ذلك كابدتم الاهوال وخاطرتم بأرواحكم لانقاذنا. كنتم انتم الأبطال الحقيقيين.»

لقاء أخير. بعد صلاة تذكارية توجهنا الى المقبرة حيث دفنت الضحايا في انتظار نقل رفاتها الى الولايات المتحدة. وكانت أمامي بلاطة بسيطة من الصوان وعليها لوحة برونزية تخليداً لذكرى الذين ماتوا من بحارة الباخرة «بولوكس» والمدمرة «تروكستون.» وغمر الضباب الخفيف أطراف المرفأ وغشيت عينيّ الدموع فيما كان النيوفاوندلنديون يكرمون الموتى بصلوات صامتة وخشوع كما كانوا يفعلون كل سنة في ١٨ فبراير (شباط) منذ العام ١٩٤٢.

في الصباح التالي اقتربت من صياد يجفف شباكه على شاطىء لون وطلبت منه أن يأخذنا الى المكان الذي شاهد منه الفتى أدولف جارفيس الباخرة بولوكس للمرة الاولى. انطلقنا في شاحنته في الطريق الوعرة، فراعني منظر الصخور الشاهقة حولي والمياه المتلالئة والتلال المترامية. وغلبتني الرهبة. كان

من الصعب تصور تلك الليلة العاصفة بالريح والثلج والجليد، وأن ذلك هو المكان الذي شهد فاجعتنا وتحطم باخرتنا وصراخ الاستغاثة. فقد بدا في هذا النهار المشرق مثل صورة جميلة في بطاقة بريدية.

في طريق العودة توقفنا لتصوير رجل كان يجز القش بمنجله الطويل، فقد أردت أخذ دليل معي الى الوطن على ان الشمس تشرق أحياناً في نيوفاوندلند.

سألني بلهجته القوية: «هل كنت حقاً من بحارة بولوكس؟» وطوقني فجأة بذراعيه القويتين ودموعه تنسكب على خديه. وأضاف: «لم أكن أتوقع أن أراك ثانية. لا، لم أتوقع ذلك أبداً.»

كان ذلك الرجل أدولف جارفيس الذي شاهدنا من الجرف وأحضر لنا النجدة في ذلك اليوم الغارق في بُعد الماضي والذكريات.

هنري شتراوس ■

انتقام زوجة

تشكو زوجتي على الدوام من أعطال في سيارتها، لكن هذه تسير بلا مشاكل كلما قدتُها أنا.

أخيراً أعلنتُ أن المشكلة لا بد أن تكون في السائق لا في السيارة. وذات صباح، فيما كنت أستعد للذهاب إلى عملي، تحدتني زوجتي أن أقود سيارتها بدل سيارتي، فوافقت.

وذهبت هي في سيارتي إلى السوق. وعندما عادت إلى البيت وجدت شرطياً ينتظر. فسألها إن كنا نملك سيارة «فورد غرانادا» من طراز ١٩٧٩ بنّيّة اللون. فردت بالإيجاب. فأخبرها الشرطي أن السيارة وُجدت مهجورة على الطريق العام. ولا بد أنه ذهل عندما هتفت: «هاها! لقد نال ما يستحق.»

ب.ج.

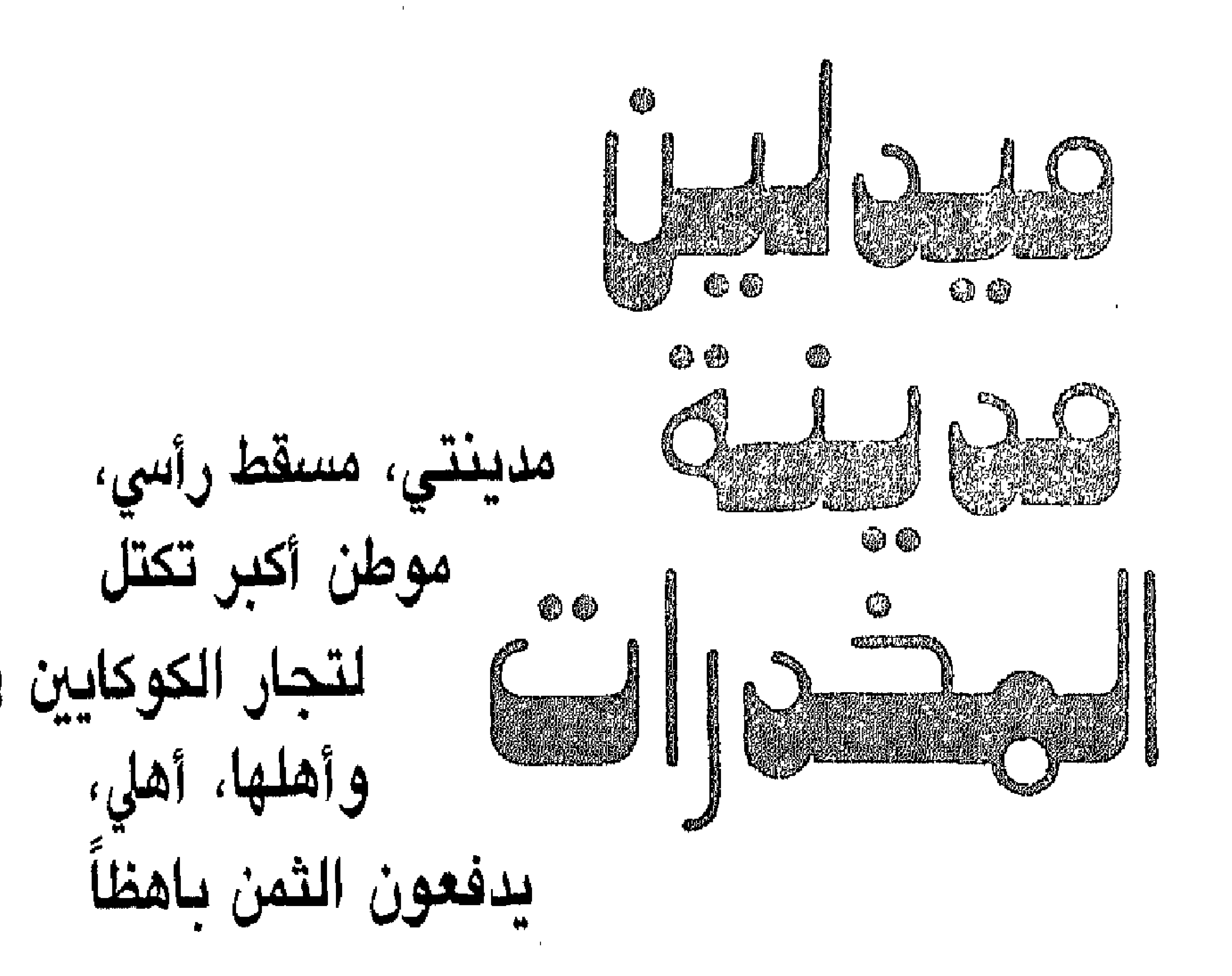
كلبة ايطالية

قبل أن يسافر صديقي في رحلة تدوم أسبوعين أخذ كلبة العائلة إلى بيت حميه وهو ايطالي. وعندما عاد من سفره واسترجع الكلبة، ظلت هذه ترفض التهام عشائها لمدة ثلاثة أيام. فاعترى الهم صديقي واتصل بحميه وسأله: «هل كانت حلوة تأكل عندما كانت عندكم؟»

أجابه حموه: «نعم. ولكنْ تذكّر أنها أصبحت ايطالية مثلنا. يكفي أن تسخن لها ملعقتين كبيرتين من مرق السباغيتي وتسكبهما فوق طعامها.»

وهكذا عادت حلوة تأكل بشهية.

ج.ل.



ميدلين مدينة المخدرات

مدينتي، مسقط رأسي، موطن أكبر تكتل لتجار الكوكايين في العالم وأهلها، أهلي، يدفعون الثمن باهظاً

ثمانية وعشرون ثقباً. ٢٨ رصاصة. العمر: ٢٨ عاماً. الرصاصات الثماني والعشرون أطلقت بحنق، واحدة واحدة، من مسافة قريبة. نفذت في الجلد واحدة تلو أخرى، وفي اللحم فشرطته، وفي العضل فمزقته. محقت الأعضاء الحيوية في البدن، ثم انفجرت بهياج ضار لدى خروجها من الجسد الهامد، فغادرته ومعها أحلام الشاب القتيل وغده.

أنباء الاغتيال لم تذكرها الصحف الصادرة في مسقط رأسه ميدلين في كولومبيا. فالناس ألفوها، اذ ان عشرات من حوادث القتل هذه تقع كل أسبوع في تلك المدينة. ولم تأتِ على ذكرها الصحف التي تصدر في مدن كولومبية أخرى، فهي ليست أخباراً ذات شأن في بلد حصل فيه ما ينوف على ١٢ ألف جريمة قتل عمد عام ١٩٨٨. ولم تبرق وكالات الأنباء الدولية الى فروعها الأجنبية بهذا الحدث، فثمة ألوف من حوادث القتل تقع في العالم كل يوم.

لم يكن اسم القتيل ذائعاً مثل اسم زعيمه. وكان تجار المخدرات يتعقبون هذا الزعيم. ولم يكن الزعيم مجرد اسم كبير في التجارة «السوداء» للكوكايين، بل كان ايضاً ابن أسرة واسعة الشهرة في كولومبيا. وقد بحث عنه أرباب المخدرات لتصفية حسابات قديمة، لكنهم لم يقعوا له على أثر. وعثروا بدلاً منه على الشاب الذي يمسك دفاتر حساباته، فانتابهم الغضب ومزقوا جسده بالرصاص.

لا يتعاطى الكولومبيون المخدرات العالية الجودة المتوافرة عند ناصية أي شارع في مدن الولايات المتحدة الأمريكية. اذ أن اهل كولومبيا لا

يسعهم أن يشتروها. ولذا أنتج أرباب تجارة المخدرات في ميدلين مادة للاستهلاك المحلي تدعى «باسوكو» وهي الفضلة المتبقية بعد تنقية الكوكايين من الشوائب. وهكذا غدت النفايات ترزم وتباع سجائر. وهي أفتك من المخدرات المركبة كيميائياً وأرخص من الماريوانا. وأصبح فتية كولومبيا يموتون من أجل بضعة دريهمات، على غرار الأحداث في المدن الامريكية ممن أصبحوا أسواق اختبار لهذا المخدِّر القاتل.

وإنها من المرات القلائل أن تُنتج سلعة لا فضلات تُطرح بعد تصنيعها، وتجني كل قطعة منها ربحاً. وهو أمر لا يعود على كولومبيا بالخير أبداً، اذ ان المال الذي تدره مبيعات هذه السلعة يوهن مؤسسات البلد.

ويُذكر أن صادرات كولومبيا الى الاسواق العالمية عام ١٩٨٨ بلغت نحو خمسة مليارات دولار من الصناعات القوية كالبن والزيت التي تمثل جهداً مشتركاً لملايين العمال. غير أن رهطاً من الرجال في ميدلين يصدِّرون وحدهم ما ينوف على مليار دولار من الكوكايين سنوياً. أرباب تجارة المخدرات هؤلاء هم أكثر ثراء من الدولة وأقوى.

وأصحاب الملايين كحبات التراب لا يحصون في ميدلين. تراهم ينهبون الشوارع في سيارات برّاقة جديدة من «مرسيدس» و«بي إم ف» و«رولز رويس» وكلها واقية من الرصاص. وما يثير الفزع في أصحاب الملايين أولئك هو حداثة سنهم. لقد بدأ زعماء المخدرات جمع ثرواتهم في سن المراهقة أو في بداية العشرينات. واذ بلغوا الثلاثين كانوا من أصحاب عشرات الملايين. وشركاؤهم أفتى منهم. صبية ميدلين مدعوون اليوم إلى المساهمة في منجم الثراء هذا ليكسبوا ملايينهم الخاصة، وهم ليسوا في حاجة الى شهادة ثانوية أو درجة جامعية.

كيف يتسنى للأب في ميدلين أن يشير على ابنه بالذهاب الى المدرسة لرفع شأنه وشأن أسرته؟ أيهما أفضل في ذهن المراهق العادي: العلم أم سيارات المرسيدس والبي إم الجديدة؟ إن الأب العادي نفسه لا يقوى على وضع هذين الامرين في مرتبة واحدة. فهو في الغالب يشتهي تلك المرسيدس أيضاً. وعلى هذا المنوال يموت فتيان ميدلين، يقتلهم صبية آخرون عاجلون كي يصبحوا أصحاب ملايين.

يجيء الموت برصاصة يطلقها ولد يركب دراجة نارية. فالدراجات وراكبوها المعتمرون خوذاً سوداً هي آلات القتل التي يستعملها زعماء تجارة المخدرات.

ميدلين مسقط رأسي. فيها أحببت قبل سنين، وعلى أرضها ولد ابنائي. وأبي مدفون في ثراها. إني لأذكر تماماً أعياد الميلاد والحفلات العائلية والجنازات ومناجاة الأحبة في منتصف الليل. وميدلين أيضاً موطن «الكارتيل»، ذاك التكتل الذي يضم أقوى مجموعة من تجار المخدرات في العالم بأسره. وهي

موطن الشاب القتيل ذي الثمانية والعشرين ربيعاً. عائلته شبيهة بعائلتي. وأبوه صديقي، ولطالما أمضينا معاً ليالي أنس وسمر هناك. ثُكل الأب ابنه أليهاندرو ذاك في ديسمبر (كانون الأول) ١٩٨٧.

«مدينة الربيع السرمدي» و«القرية الآسرة» لقبان أطلقا على مدينتي. في يفاعتي كان الوصفان ينطبقان عليها تماماً، فهي مدينة الجمال والفتنة يحتضنها وادٍ مخضر ترتع فيه أقواس قزح.

يا لذكرى الليالي المقمرة. أثب فوق سياجات حظائر الثيران، وأفتح الرداء الأحمر بتؤدة متحدياً البهيمة السوداء أمامي فيما تصطكّ ركبتاي ويسيل العرق بارداً في بدني. اني لأسمع حتى اللحظة صوت صاحبي هانس آتياً من السياج: «لا تجبن، انك قادر على ذلك.» وتهجم علي كتلة تزن ٤٥٠ كيلوغراماً وفي رأسها مديتان ماضيتان، فأعدو أمامها هارباً، أنا الولد الناحل.

كنا في الخامسة عشرة من العمر، وما من أحد منا سمع بالحشيشة أو الباسوكو أو ما شاكلهما، ولا بساعات «رولكس» أو سيارات الـ «بورش.» كلمة «البغال» عرفناها صفة تطلق على الأولاد غير النابهين في المدرسة. فيما «الكارتيل» اسم لوحة اعلانات تعلن الموعد التالي لمصارعة الثيران. وكان هنشو فيلا، الطبيب والمعلم الطيب، يعلمنا الاصغاء الى موسيقى بيتهوفن وموزار. وهو أوعز إلينا في أن نقرأ كتابات الأدباء ميسترال وريمارك وجويس. تعلمنا من مؤلفات ميسترال الجمال، ومن ريمارك بغض الحروب، ومن جويس أن الفتيات أهم من لعبة كرة القدم. بعضنا أصغى اليه، ولا أظن أن رفيقي هانس كان مصغياً، لكنه كان يقرأ أدب جويس.

قبل أربع سنوات أُصيب هانس بنوبة قلبية أودت به. أحزنني الخبر، لكني لم أغتم طويلاً اذ بلغني أن ابنه (٢١ عاماً) قُتل بالرصاص عندما حاول الحؤول دون سرقة سيارة احدى الفتيات. لا يا هانس، لم أعد حزيناً عليك. فأنت لا ترى ما يجري في ميدلين.

وقبل ثلاث سنوات زرت ميدلين مع زوجتي الأمريكية المولد. معظم ما اذكره عن المدينة تبدّل أو اندثر. الحظائر التي كنت أذرعها ركضاً أهوج متعقباً أحلام العظمة حلّت مكانها نوادي الديسكو الوهاجة. والمعلمون في هذه الأيام يعرضون على تلاميذهم وظائف في تجارة الكوكايين. الصبيان ينتعلون أحذية «أديداس» المطاطية الخفيفة ويرتدون سراويل جينز من طراز «جورداش». يولون ساعات «رولكس» وسيارات «البورش» جل اهتمامهم. وكلمات «بغال» و«كيلو» و«كارتيل» لها عندهم دلالات.

شبان اليوم لا يلقنون الجمال كما عبر عنه الأديب ميسترال. وهم في غنى عن جويس يعلمهم سبل التودد إلى الفتيات، ففي السن الخامسة عشرة يعرفون أكثر مما كان يخطر في بالنا.

لكنهم لا يحلمون، انهم يشترون ويَقتلون ويُقتلون.

في مدينتي أكبر نسبة من الجرائم في العالم اليوم. أسماء المشاهير من القتلى فقط تظهر في العناوين الرئيسية التي تضرب صفحاً عن أسماء الناس العاديين. وهي أسماء مُغفلة لا يعرفها العالم، لكنها ستبقى في ذاكرة ذويها. لعل قتلتها نسوها، لكني لم أنسها. فذكرى أليهاندرو تسكنني حتى اليوم.

أيا هانس، أتذكر حين طردنا أولئك الصبية من الملعب كي نلعب معاً؟ أوتَذكرهم إذ عادوا بما حسبناه آنذاك آلافاً مؤلّفة من أصحابهم ليشبعونا ضرباً، وكيف قررنا بتبصر أن نفوّت فرصة التحدي فلذنا بالفرار؟ حسناً، يا صديقي الأعز، أمثال هؤلاء الفتيان اليوم كانوا سيعودون مدججين بالرشاشات والقنابل اليدوية. ألا تصدق قولي؟ اسأل اذاً ابن صديقي، أليهاندرو. أو اسأل ابنك أنت. يا للثمن الباهظ الذي ندفعه للمخدرات في ميدلين.

أوسكار كالي ■



الضرير والقيثارة

أصيب عازف الغيتار البارع دوك واطسون بالعمى وهو في الثانية من عمره، لكن عائلته لم تدعه يوماً يشعر أنه مُعاق.

وهو يقول: «كان اخوتي يأخذونني الى خارج المنزل لالعب معهم. كنت اتسلق الاشجار واسقط منها مثلهم تماماً. وقد علّمني ذلك كيف أجد الاشياء من طريق الصوت والصدى.»

وكان لوالد واطسون أثر خاص في تقوية اعتماده على نفسه. ويقول واطسون متذكراً: «كنت في الحادية عشرة من عمري عندما دخل الغيتار حياتي. اختار لي ابي آلة «بانجو» صغيرة وقال لي: «اليك به، يا بني. اتقن العزف عليه يساعدك على مواجهة العالم». فبدلا من أن يقول لي: «يا بني انت ضرير»، واجهني بالتحدي.»

صحيفة «واشنطن بوست»

محظوظان

كنت واقفاً مع أمي في صف طويل أمام صندوق الدفع في أحد المخازن. وعندما بلغنا أمينة الصندوق ناولتها أمي سلعة تبيّن أنها لا تحمل بطاقة السعر. فهتفت امّي يائسة: «لماذا اختار دائماً السلعة التي لا تحمل بطاقة الثمن؟» فعلّق الزبون خلفنا متذمراً: «ولماذا أقف دائماً في الصف وراءكما؟»

ك.ا.ك.



ثياب مدفئة

قد يُعاد النظر جذرياً في طرق تدفئة الجسم بفضل معالجة القماش حتى يخزِّن الحرارة ثم يُطلقها مجدداً.
الطريقة الجديدة في المعالجة التي سجلت براءة اختراعها مصلحة الأبحاث الزراعية في الولايات المتحدة الأمريكية، تعالج القطن والصوف والألياف التركيبية بمركب كيميائي رخيص يُدعى «بوليترم» (متعدد الحرارة). وعندما ترتفع حرارة الجو تمتص الجزيئات الكيميائية السخونة وتخضع لـ«تحول طوريّ» شبيه بتحول الماء السائل. والتحوُّل الطوري يحبس الطاقة في داخل القماش إلى أن تنخفض حرارة المكان مجدداً إلى أدنى من حرارة التحوُّل الطوريّ. حينذاك تأخذ الجزيئات بإعادة ترتيب نفسها مطلقة الطاقة المخزونة على شكل حرارة.
إذا شُحنت جاكيت رقيقة صنعت من مواد معالجة كيميائياً، بطاقة حرارية آتية من تحوُّل طوريّ، فلسوف تعوق ما يكفي من الدفء لمعادلة ذلك الذي تشيعه في الجسم الثياب الأكثر حماية من البرد. وعلى غرار ذلك، يستطيع حرام مماثل أن يُستخدم في ساحة المعركة أو على الطريق العام لحفظ الحرارة ثابتة إلى حد ما في جسد إنسان جريح.

هـ.ب.

اللون العدائي

الزي الأسود يجعل لاعبي كرة القدم والهوكي يبدون أكثر فظاظة ويتصرفون بعدوانية أكبر، هذا ما أظهرته دراسة أجراها عالمان نفسيان من جامعة كورنيل في مدينة ايتاكا بولاية نيويورك.
فقد حلل توماس جيلوفيتش ومارك فرانك محاضر الجزاء لـ٢٨ فريقاً ينتمون إلى «الرابطة الوطنية لكرة القدم» من ١٩٧٠ حتى ١٩٨٦. فكانت أربعة فرق ترتدي الزي الأسود وفريق يرتدي الزي الأزرق الداكن من بين الفرق الاثني عشر الأكثر تعرضاً للجزاء. وعلى غرار ذلك، كانت الفرق الثلاثة الأكثر تعرضاً للجزاء في الرابطة الوطنية للهوكي خلال السنوات الـ ١٧ أعلاه ترتدي أزياء سوداً.
دفعت هذه النتائج الإحصائية العالمين النفسيين إلى إجراء اختبارات. فعرضا على معجبين بكرة القدم وعلى حكام فيها أحد شريطي فيديو يصوران لعبا تمثيلياً لفريق يرتدي الزي الأسود في الشريط الأول، والزي الأبيض في الشريط الثاني. فحكم مشاهدو الشريط الأول على اللاعبين بأنهم عدوانيون و«وسخون» أكثر مما فعل الجمهور الذي عرض عليه شريط المدافعين بالزي الأبيض، مع أن الحركات الدفاعية كانت هي هي.

صحيفة «وول ستريت جورنال»



السر ادموند هيلاري
يحمل الواحاً خشبية لبناء مدرسة
جديدة في اقليم خمبو.

ساعده أبناء الشيربا على قهر جبل افرست فساعدهم على قهر الفقر والأمية والمرض

إدمُوند هيلاري قاهِر الفقر

السر ادموند هيلاري هو أول من تسلّق أعلى جبل في العالم. وبالنسبة اليه، كان التجهيز لبعثة العام ١٩٨٨ في النيبال شبيهاً جدًّا بالتحضير لبعثة العام ١٩٥٣ لقهر جبل افرست. كان الأمر يتطلّب خزن المؤن قبل أشهر من الانطلاق، واستخدام مئات الحمالين. ولكن كان هناك فارق أساسي مميز لهذه الرحلة التي تأتي في الذكرى السنوية الخامسة والثلاثين لتسلّق جبل افرست. ففي رحلته الرائدة اضطر هذا النيوزيلندي الشجاع الى تحدي الثلج الكثيف والرياح العنيفة والليالي القارسة. أما في العام ١٩٨٨ فالعقبتان الأشدّ هولاً كانتا الأمية والمرض اللذين أعاقا على مدى قرون تقدم أبناء الشيربا النيباليين الذين يقارب عددهم ٥٠ ألفاً.

كان أبناء الشيربا الذائعو الصيت جبليين أقوياء يقطنون في جبال حملايا الشرقية. ومنهم يتم اختيار الحمالين والطباخين وسائقي ثيران الياك الذين لا غنى عنهم في حملات التسلق الى

PHOTO: APA PHOTO AGENCY

«سقف» العالم. وكان الى جانب هيلاري عندما قهر جبل افرست أحد أبناء الشيربا ويدعى تنزنغ نورغاي. أما اليوم فيعمل السر ادموند على مساعدة هؤلاء الرفقاء القدامى.

ففي ربيع ١٩٨٨ تسلق هيلاري المنحدرات الحادة المؤدية الى قرى الشيربا النائية حيث جنّد ٤٥ كشافاً من جمعية «فنتشر سكاوت»* البريطانية للعمل على بناء مدرسة وتجديد مستشفى صغير. وتألف هذا الفريق من شبان وشابات راوحت أعمارهم بين السابعة عشرة والتاسعة عشرة. وقد عاونهم في ذلك شقيق هيلاري ريكس، وهو متعهد مشاريع بناء، ورجل نيوزيلندي سبق أن رافقه في رحلته التاريخية الى جبل افرست واسمه جورج لو، اضافة الى ستة أصدقاء آخرين وفدوا من كندا والولايات المتحدة وأوستراليا. وكان هيلاري يساعدهم في نشر الخشب والتنظيف.

لقد أدى هيلاري هذا الدور مرة أو مرتين سنوياً على مدى ٢٩ عاماً. وبجمعه المتطوعين والأموال والهبات من العالم تمكن برنامجه الفردي للمساعدات الأجنبية من تقديم العون الى أبناء الشيربا في بناء ما لا يقل عن ٢٥ مدرسة ومستشفيين عموميين و١٣ مركزاً طبياً في قرى نائية لا طرق اليها. ومدّ المتطوعين، بتوجيه من هيلاري، أسلاكاً لتعليق جسور للمشاة فوق الانهر الهائجة، وجروا مياه الشفة الى القرى بحيث لم تعد النسوة في حاجة الى نقل المياه في أوعية ثقيلة مسافة كيلومترات. وعملوا كل ما في وسعهم لجعل حياة أبناء الشيربا أسهل وأغنى.

عيون لا تبصر. على رغم أن السر ادموند سمن قليلاً، وهو حالياً في السبعين من عمره، فانه لم يفقد الحافز الذي روض به قمة افرست. والى وظيفته الثلاثية ـ سفيراً لنيوزيلندة في النيبال ومفوضاً سامياً الى كل من الهند وبنغلادش ـ يجمع هذا الفارس الكثيف الحاجبين نحو ٢٠٠ ألف دولار كل سنة لمساعدة الشيربا، في حفلاته الخطابية في الولايات المتحدة وكندا وأوروبا ونيوزيلندة وأوستراليا. وحتى بعد وفاة زوجته لويز وابنته الصغرى بليندا، اللتين قضتا عام ١٩٧٥ في رحلة جوية الى قرية حيث كان يعمل على بناء مستشفى، استمر الرجل المحطم القلب يكافح بحماسة. وأصبحت غاية حياته مساعدة أبناء الشيربا.

زيك أوكونور مدير متقاعد لسلسلة مخازن كبرى ومؤسس الجمعية المسؤولة عن جمع التبرعات في كندا، يصف هذا التفاني بـ «هاجس هيلاري الرائع.»

الا أن السر ادموند يقولها ببساطة أكثر: «أنا أحب الشيربا وأريد أن أساعدهم.»

يحدد هيلاري بدء حملته هذه في

(*) Venture Scouts اي الكشاف المغامر.

احدى أمسيات ١٩٦١ حين كان على ارتفاع ٤٨٠٠ متر على قمة جبل تولامبو الجليدي في النيبال. كان جالساً يستدفىء قرب نار متأججة بعد يوم شاق من التسلق عندما التفت الى أبناء الشيربا المجتمعين حوله مفكراً: هؤلاء العمال الكادحون، الأقوياء، القادرون على حمل رزم تزن الواحدة منها ٤٥ كيلوغراماً فوق المنحدرات الصخرية، هم لطفاء وودودون على نحو مدهش. لقد كانوا محبين للعيش الرغيد. أحس السر ادموند عاطفة قوية تجاه رفقائه الرائعين. فالتفت وسألهم: «ما هي المساعدات التي يحتاج اليها أبناء الشيربا؟ ماذا تقترحون؟»

فجاءه الجواب: «قد نكون أقوى منكم جسدياً، أيها الأجانب، لكنكم تملكون ميزة كبرى هي العلم. نحن في حاجة الى مدارس.»

وكان يقدر أن واحداً في المئة فقط من أبناء الشيربا كانوا يستطيعون قراءة لغة بلدهم وكتابتها. وقد قال أحد الشيوخ: «لاولادنا عيون لكنهم لا يبصرون.»

تأثر هيلاري كثيراً وأقنع أصدقاء له في دار موسوعة «وورلد بوك» في الولايات المتحدة بتقديم المال. كما أقنع شركة ألمنيوم هندية بتقديم قطع بناء جاهزة. وطلب من القرويين الشيربا تحميل الصخور في العربات. وفي نهاية السنة فتحت أول مدرسة في قرية خمجانك (٣٨٠٠ متر) القريبة من الدرب المؤدية الى قمة افرست.

حرب على المرض. انتشرت الشعلة التي أضاءها هيلاري. وبفضل برنامجه الخاص بتشييد المدارس تعلم نصف أبناء الشيربا القراءة والكتابة. ويشجع المعلمون الرسميون على العمل في قرى الجبل الباردة والمعزولة بمنحهم علاوات على رواتبهم. وتجاوباً مع رغبات الأهالي عمل هيلاري على بناء مدارس تكميلية اضافة الى الابتدائية، ثم بنى مدرستين ثانويتين وشيد مساكن للتلاميذ الذين يسكنون بعيداً. وكل سنة يتلقى أكثر من ٥٠ خريجاً في المدارس الثانوية منحاً دراسية تمكنهم من الالتحاق بالجامعات النيبالية.

يقول نغاونغ وهو شاب من الشيربا كان أبوه طاهياً أمياً يعمل للبعثة: «منحني هيلاري حياة أفضل.» فقد تخرج نغاونغ في مدرسة خمجانك الابتدائية، واضطر الى ترك الدراسة لاعالة عائلته بعد وفاة والده. ثم حصل على وظيفة رئيس للعمال براتب جيد، وساعدته على ذلك معرفته اللغة الانكليزية التي تعلمها في المدرسة. وهو حالياً يصرف على تعليم شقيقيه الصغيرين بعدما أدرك قيمة العلم.

ولا أحلام مستحيلة هنا، اذ نال أحد طلاب هيلاري منحة دراسية مكنته من الحصول على شهادة ماجستير من جامعة واشنطن. واصبح آخرون أساتذة وحراس غابات ورجال أعمال ناجحين. وانعتق آخر من عقال قريته في افرست ليصبح ربان طائرة.

ولم يكن مفاجئاً أن يطلق العلم حرباً على المرض. اذ تعلم كثير من أبناء الشيربا أن الجراثيم - وليس «الارواح الشريرة» - هي سبب اصابتهم بوباء الجدري، وأن اتباع العناية الطبية المناسبة يحول دون موت واحد من كل ثلاثة أطفال باصابات ذات الرئة والالتهابات المعوية والمعديّة. وبالحاح من القرويين شيد هيلاري أول مستشفى في قرية خند عام ١٩٦٦. وقد تم تجهيزه بمعدات حديثة بينها غرفة عمليات وأجهزة للتصوير بالأشعة السينية (اكس) اضافة الى أدوية قدمت مجاناً. وتطوع أطباء وفدوا من نيوزيلندة وكندا والولايات المتحدة وتناوبوا على الخدمة كلٌّ لمدة سنتين. ويعاين الطبيبان النوزيلنديان سيمون ماكلورين وزوجته ماريان بين عشرة مرضى و٣٠ مريضاً يومياً. وبفضل ارشادات الاطباء المتكررة حول الصحة والنظافة في مدارس هيلاري، يزداد عدد الذين يغتسلون قبل الطعام وينظفون أسنانهم ويتلقون التلقيح.

ونتيجة العناية الطبية المتحسنة انخفض كثيراً عدد الاصابات بالتيفوئيد والتهاب السحايا والسل خلال السنوات العشرين الماضية. واليوم، كل تسعة مرضى من أصل عشرة يعاينون في مستشفيات هيلاري مصابون بمشاكل جلدية واسهال وسعال وزكام، وهذه يعالجها المساعدون الطبيون من أبناء الشيربا المدربون على أيدي الأطباء.

رياح التقدم. كيف نصف هذا المكافح المتحمس الذي يعتبره معظم العالم مجرد مغامر جسور؟

يقول الدكتور ماكلورين الذي يعرف هيلاري وولديه بيتر وساره جيداً: «انه مثالي جداً في الصميم.» وكان والده محرر صحيفة ريفية ووالدته معلمة مدرسة، وقد غرسا في نفسه الدافع الانساني.

يقول هيلاري: «علمني والداي أن الإنسان ملزم مساعدة اخوانه الأقل حظاً.»

أحد أسرار نجاح هيلاري هو «رؤية كل مشروع بعيني مزارع.» كيف السبيل، مثلاً، الى بناء مهبط للطائرات في لوكلا التي ترتفع ٢٧٠٠ متر على طريق افرست لنقل مواد البناء من العاصمة كاتماندو في ساعة عوض ١٤ يوماً تستغرقها عملية النقل على ظهور الحمالين؟ كان ادخال جرافة الى المنطقة مستحيلاً لعدم وجود طرق. كيف اذاً تزال الصخور الكبيرة من المهبط المقترح بناؤه؟

كان الحل على طريقة المزارع: جعل هيلاري أبناء الشيربا ينبشون حفراً كبيرة يرمون فيها الصخور ثم يردمونها بالتراب. ولما ظل الحقل غير ممهد كفاية لهبوط الطائرات، أقنع ١٥٠ قروياً بالرقص عليه طوال ليلتين ونهارين حتى أصبح متراصاً.

لكن هيلاري يصر على أن يساهم أبناء الشيربا في العمل التطوعي قبل أن

يقدم الأموال اللازمة للمشروع من حقيبته الملأى بالروبيات التي يحملها على ظهره من قرية الى أخرى. وهو يتشدد كثيراً في تحديد نفقات العمل. أما «الصندوق الحملايي» الذي أسسه لادارة برامج المساعدات فيعمل بتواضع في منزل من شقتين في كاتماندو. وتشغل الشقة الثانية اليزابيت هولي وهي مراسلة لوكالة «رويتر» تقوم أيضاً بوظيفة المدير التنفيذي للصندوق.

أما ما يلهب حملة هيلاري حماسة على الدوام فهو اندفاعه العجيب. فبعدما ودع متطوعي العام ١٩٨٨ الذين انطلقوا سيراً على الاقدام لمدة أربعة أيام لمباشرة عملهم في أول مشروع انشائي، عاد هيلاري الى كاتماندو في سيارة «لاند روفر» قاطعاً مسافة خمس ساعات على الطرق الوعرة ليركب طائرة الى نيودلهي في الهند لمقابلة وزير خارجية نيوزيلندة الذي جاء في مهمة سياسية الى الهند وبنغلادش. وعندما حاول العودة الى بعثته أرغمته رياح حملايا الشرسة على الرجوع الى كاتماندو. وفي اليوم التالي عولج بمضادات حيوية (أنتيبيوتيك) لاصابته بالتهاب رئوي. وأخيراً عاد على متن مروحية. ومع ذلك يسبق أفراد بعثته الشباب المتسلقين من قرية الى أخرى.

واستقبله القرويون بحماسة منقطعة النظير، ورفعوا اللافتات البيض ترحيباً، وحياه اصدقاؤه القدامى من ابناء الشيربا وقدموا اليه طلبات لمشاريع جديدة. وعرفاناً بالجميل، يلقبه القرويون «بورا صاحب» أي «الرئيس.» وأحياناً يقولون: «انه أمنا وأبونا.»

انهم يحبونه.

وتتقدم قرى الشيربا بسرعة نحو الحياة العصرية بفضل برامج هيلاري، لتصبح جزراً للتقدم في خامسة أفقر أمم العالم. فالمركز التجاري، «نامشي بازار» ينار حالياً بالطاقة الكهربائية حتى العاشرة مساء. ولمعظم البيوت نوافذ زجاجية. وحلت السياحة مكان التجارة مع التيبت كمصدر دخل رئيسي، وذلك بفضل ألوف من متسلقي الجبال الذين يأتون كل عام من أنحاء العالم. وبدأ القرويون يجنون أرباحاً من الفنادق والمقاهي ومحلات بيع السلع التذكارية.

لكن المعجبين بهيلاري قلقون على مصير مشاريعه الكثيرة بعد وفاته. لكن جوابه المرضي هو أن أبناء الشيربا المتكلين على قدراتهم يخططون لتطورهم انطلاقاً من القاعدة التي ساعد في بنائها باندفاعه الرائع.

انه ميراث جدير بهذا الفارس.

دونالد وديانا سترتزل ■

التباهي ليس سمة مستحبة، لكن الرجل الذي يصطاد سمكة كبيرة لا يعود إلى البيت عبر زقاق.

أ.ل.

اختبار في علم الفلك

اختبروا معلوماتكم في علم الفلك بإجابة «صح» أو «خطأ» عن هذه الأسئلة:

١ . النجوم جميعها شموس.

٢ . لا جاذبية خارج الغلاف الجوي.

٣ . النيزك نجم مرتحل من موضعه الأصلي في الفضاء.

٤ . لا يحدث كسوف تام للشمس إلا عندما يكون القمر بدراً.

٥ . الشفق القطبي ناتج من جسيمات مشحونة بالكهرباء تنبعث من الشمس.

٦ . البقع السوداء في المريخ هي قيعان بحار جافة يكسوها النبات.

٧ . الشهب، أو الحجار النيزكية، تسقط عادة أثناء العواصف الرعدية العنيفة.

٨ . يُعتقد اليوم أن نجمة بيت لحم كانت المذنَّب «هالي.»

٩ . الأرض أقرب الى الشمس في شهر يناير (كانون الثاني) منها في شهر يوليو (تموز).

١٠ . في الليالي الصافية تمكن رؤية نحو ثلاثة ملايين نجمة بالعين المجردة.

١١ . فبراير (شباط) هو الشهر الوحيد الذي قد لا يُرى خلاله قمر جديد.

١٢ . نجد بيتهوفن وشوبان وغوته وإبسن على سطح عُطارد.

(الأجوبة في الصفحة التالية)

الأجوبـــة

١ . صــح. الشمس نجم نموذجي. جسم ذاتي الإنارة يطلق غازات حارة. أما لكواكب السيارة، كالأرض، فلا تُولِّد نوراً ذاتياً.

٢ . خطأ. تضعف الجاذبية بازدياد المسافة من الأرض. ولكن، نظرياً، حقل جاذبية الأرض غير متناه. ويبقى القمر في مداره بفضل الجذب الأرضي.

٣ . خطأ. النيازك أجسام صغيرة تسقط من الفضاء وتحترق في أعلى الغلاف الجوي.

٤ . خطأ. الكسوف التام - اي حين يحجب القمر وجه الشمس كاملاً - لا يحدث الا مع اطلالة الهلال عندما تصطف الأجرام الثلاثة - الشمس والقمر والأرض - في خط مستقيم يتوسطه القمر وهو يواجه الأرض بجانبه المعتم.

٥ . صــح. تنهمر هذه الجسيمات الشمسية كشلالات على أعلى الغلاف الجوي. ولكونها مشحونة بالكهرباء فانها تنجذب الى قطبي الأرض المغناطيسيين. ولذا يُشاهد الشفق القطبي على النحو الأفضل من المناطق البعيدة عن خط الإستواء.

٦ . خطأ. بعد رحلة المسبار الفضائي «مارينر ٤» في العام ١٩٦٥، نعلم اليوم أن ليس جميع البقع السوداء منخفضات. فبعضها سهول مرتفعة، ولا يعود الاسوداد الى وجود مواد عضوية.

٧ . خطأ. لا علاقة بين العواصف الرعدية التي هي ظاهرة جوية محض، والنيازك وهي كتل كبيرة من الصخر أو المعدن تسقط من خارج الغلاف الجوي للأرض.

٨ . خطأ. المذنَّب «هالي» الذي يكمل مداره حول الشمس مرة كل ٧٦ عاماً تقريباً، ظهر قبل مولد عيسى عليه السلام بسبع سنوات.

٩ . صح. تكون الشمس اقرب بمسافة ٤,٨ ملايين كيلومتر. اما الفصول فمردها الى ميلان محور الأرض، وليس الى تبدل المسافة من الشمس.

١٠ . خطأ. يبلغ عدد النجوم التي تمكن رؤيتها بالعين المجردة ٥٨٠٠ تقريباً. ولكن نادراً ما تمكن رؤية اكثر من ٢٥٠٠ نجمة في وقت واحد لأن نجوم الأفق الخافتة تخرج غالباً عن نطاق الرؤية.

١١ . صح. يظهر قمر جديد كل ٢٩,٥ يوماً. وبما أن أيام شهر فبراير (شباط) هي ٢٨ (٢٩ في السنة الكبيس) فقد لا يطلع قمر جديد في هذا الشهر.

١٢ . صح. جميعها فوهات براكين على سطح عُطارد.

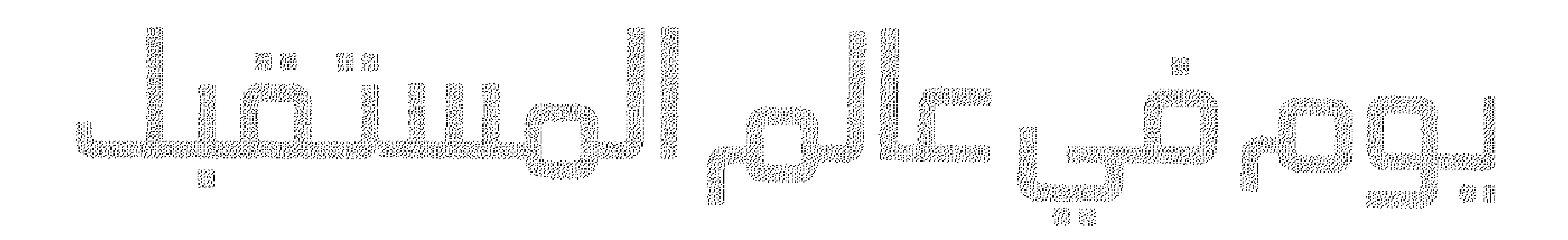
باتريك مور ■

أتريد فضاء هنيهات خارج نطاق الجاذبية أو السفر داخل خلايا الجسم البشري أو الاستماع الى رجل آلي «يفكر»؟ تعال إذاً الى أحدث متاحف باريس

بدأ القرن الحادي والعشرون في مدينة باريس في ١٤ مارس (آذار) ١٩٨٦ يوم افتتاح «مدينة العلم والصناعة» في لافيليت[١]. ومنذ ذلك التاريخ أمَّ نحو ١٢ مليون شخص عالم المستقبل في هذا الصرح الهائل المصنوع من الزجاج والفولاذ الذي لا يصدأ.

ففي لافيليت، التي تبعد مسافة قصيرة عن وسط باريس، يمكنك قياس

(١) La Villette



CHARLIE ABAD

وزنك على المريخ أو الزُّهرة، وقيادة مركبة فضائية مقلَّدة واختبار انفجار نووي. كما تستطيع مشاهدة التَّغيار الاحيائي للجراثيم، والتحديق داخل مركبة «نوتيلوس» المستكشفة لأعماق المحيطات، والافادة من كبرى المكتبات العلمية الأوروبية، ومشاهدة فيلم سينمائي في «جيود» وهو مبنى أخذ مكانته بين معالم باريس كبرج إيفل ومتحف اللوفر.

بدأ ذلك في العام ١٩٧٧ عندما طلب الرئيس الفرنسي آنذاك، فاليري جيسكار ديستان، من العالم الفيزيائي موريس ليفي، الرئيس السابق للمركز الوطني للابحاث الفضائية، تصميم متحف علمي عظيم. اذذاك قرر ليفي وفريق العمل التابع له أن المطلوب هو متحف من طراز جديد. وقد أذهل المهندس المعماري أدريان فنسيلبر اللجنة المكلفة حين عرض أمامها تصميمه المؤلف من واجهة مزجَّجة مصقولة تبلغ مساحتها ١٠٢٤ متراً مربعاً، معلقة بأسلاك. أما المفاجأة الكبرى فكانت مبنى «جيود» المصمم على شكل كرة قطرها ٣٦ متراً، تغطيها طبقة رقيقة من الفولاذ المصقول كالمرآة، وتتضمن قاعة نصف كروية لعرض الأفلام تتسع لـ ٣٧٠ متفرجاً، وتقوم على عمود وحيد في الوسط.

أبهج ذلك الرئيس اللاحق فرنسوا ميتران الذي وافق على مشروع لافيليت وأطلق عليه اسم «مدينة العلم والصناعة.» يقول جويل دو روزني مدير مصلحة التنمية ورئيس شعبة العلاقات العامة الدولية في مدينة العلم هذه: «مدينتنا ليست متحفاً. إنها جهاز للتواصل يتيح فرصاً للاتصال والعلم والتسلية والابداع. وهي، إلى ذلك، حافز للسير في ركاب العلم والتقدم. إنها وسيلة الوسائل.»

مدينة المستقبل. مدينة العلم هي «بلدة» تمتد فوق مساحة ١٥٠ ألف متر مربع وتنتشر فيها المحلات والمصارف والمقاصف والمطاعم والاستراحات. في أولها تقع الساحة حيث يعمل موظفو الاستقبال على ارشاد الزائرين. وتضيء لوحات الفيديو الموجِّهة الردهة العملاقة التي ترتفع ٤٠ متراً ويبلغ طولها ١٠٠ متر. وعلى المستوى إياه تقع «غرفة الأخبار العلمية» وهي مركز اعلامي يزوِّد الصحافيين آخر الأخبار العلمية، من تضرر طبقة الأوزون الى البيض الموبوء بجرثومة السلمونيلا الى التلقيح في أنابيب الاختبار الى الهندسة الوراثية.

وفي فضاء الردهة التي تتسع ٤٠ متراً مستنبت زجاجي يخدم كجسر بين جناحي الطبقة الاعلى، وضمنه غابة من النباتات الاستوائية ليس فيها ذرة من تراب. وتنمو هذه النباتات في أنسجة مشبَّعة ومادة هلامية مغذية وسط رذاذ دائم من المياه. وتشاهد بعد ذلك بركة اصطناعية تسبح فيها أسماك السلمون.

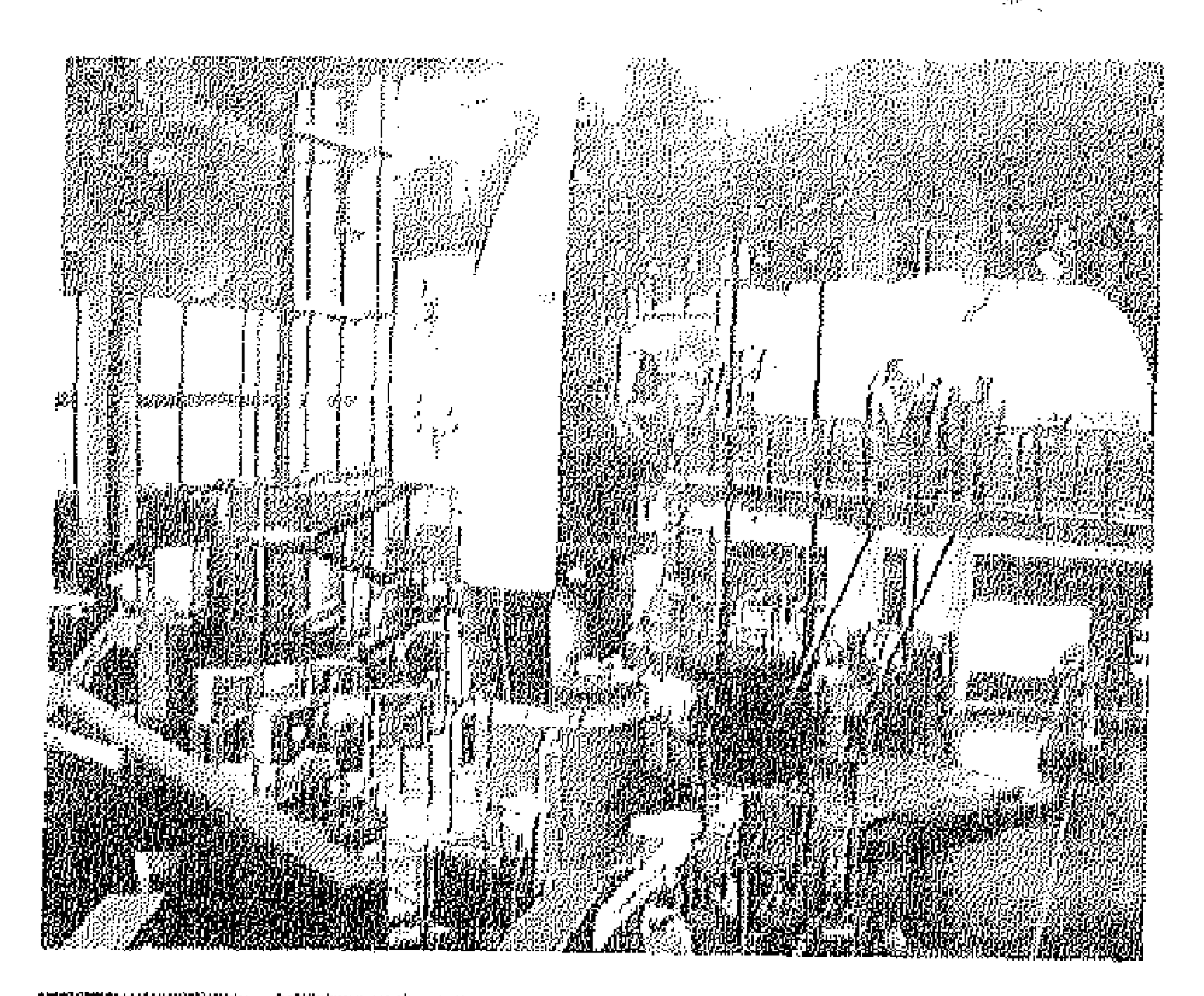
وككل مدينة، يتطلب الزائر وقتاً كي

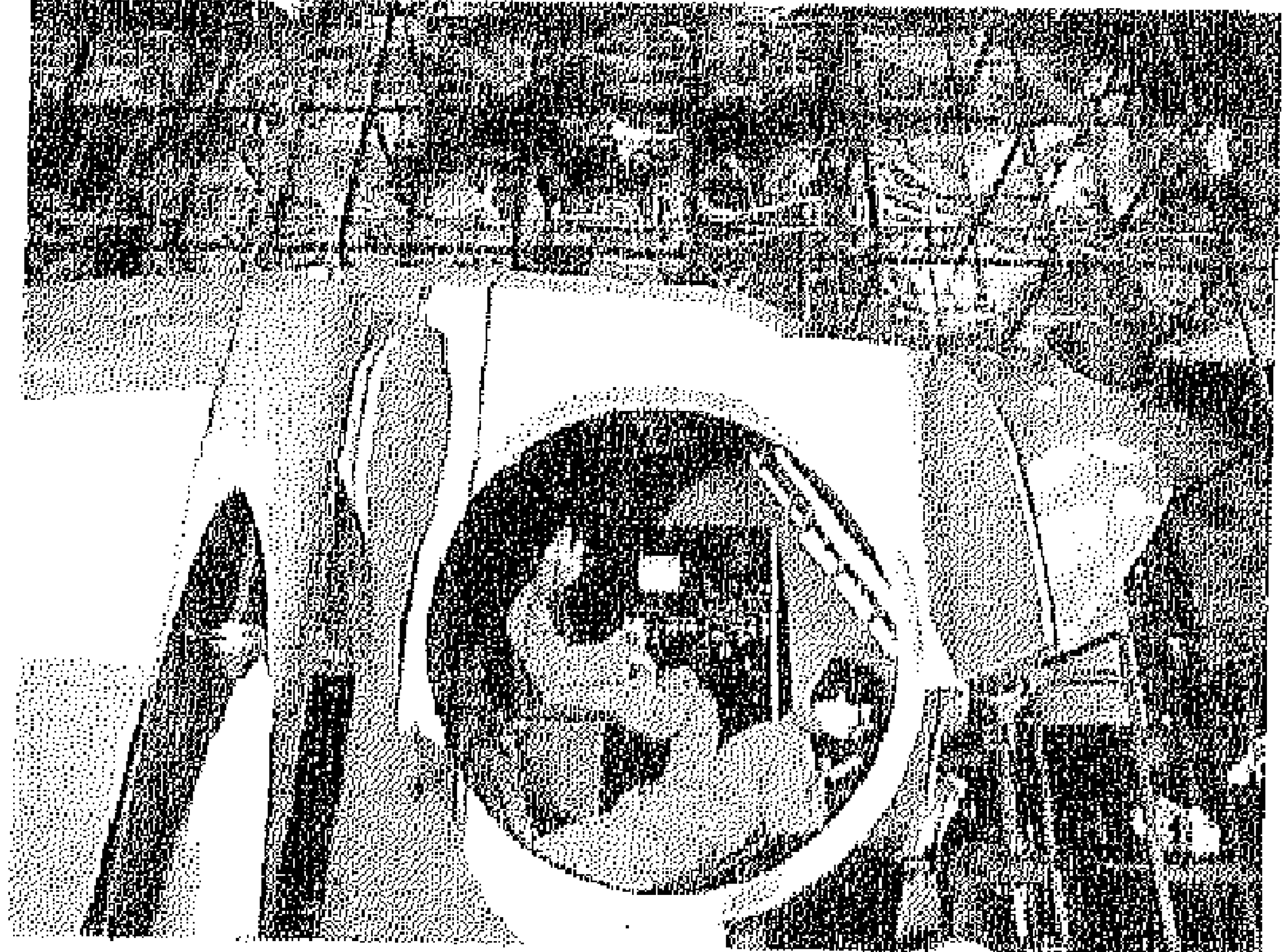
يعتادها. وتتساءل احدى الامهات المتلهفات وقد جاءت برفقة ابنتيها: «من أين نبدأ؟ وماذا علينا أن نفعل؟» فعلى الزائرين البحث والتنقيب واختيار معالم يركنون اليها في توجههم. اذ ليس ثمة نظام محدد للزيارة، إلا أن هناك شروحاً تؤمنها لوحات إلكترونية مبرمجة في خمس لغات يفاد منها باستعمال مسماع مستأجر. يقول دو روزني: «اننا نوفر للزائرين مقداراً أدنى من التوجيه. وقد ساعدنا استطلاع الآراء على تحسين المعالم ولافتات الطرق.»

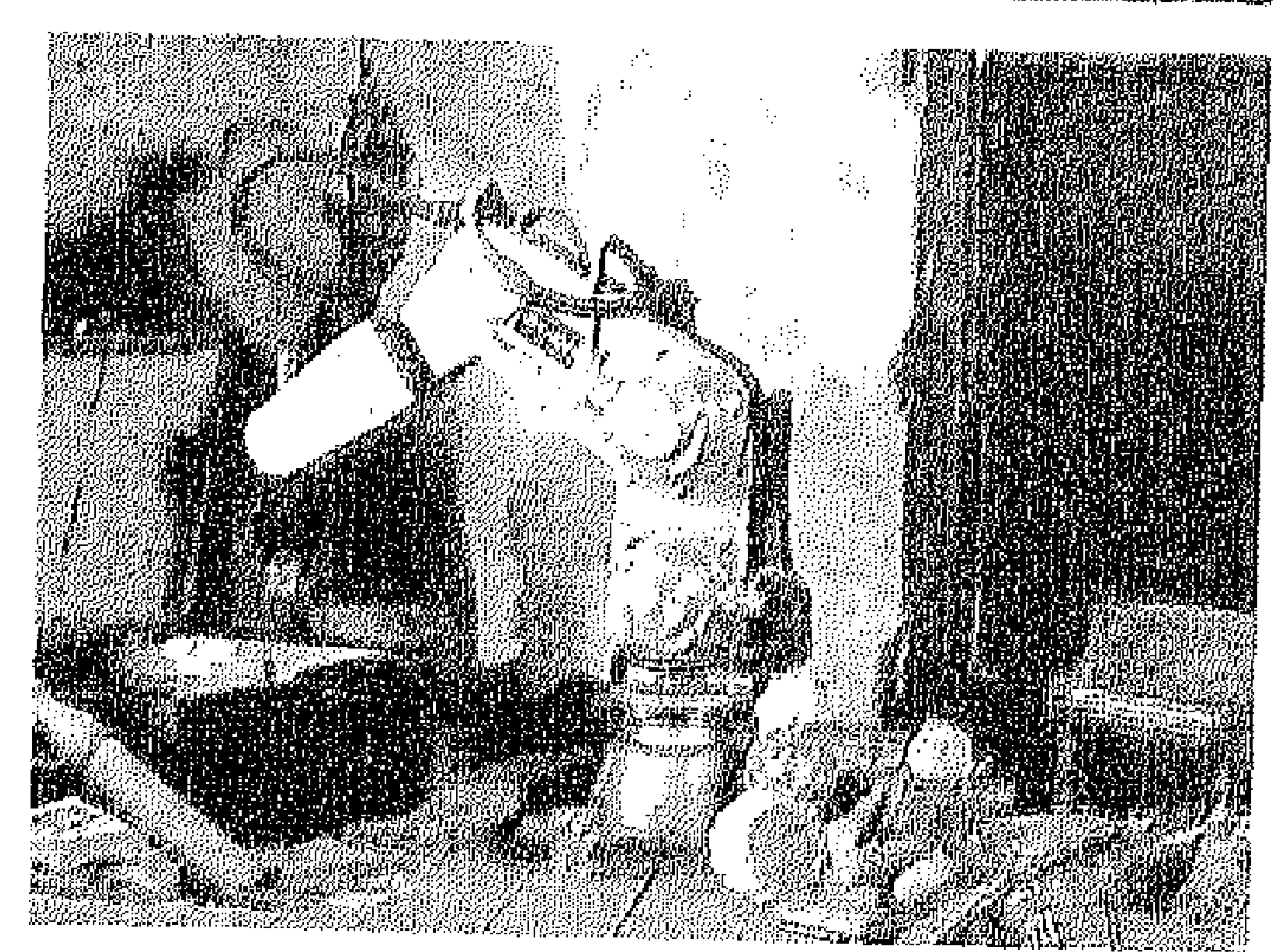
«إكسبلورا.» أجاهز أنت؟ لنذهب اذاً الى المصاعد السامقة التي ستحملنا الى «إكسبلورا»، معرض المدينة الدائم الذي يحتل الطبقات العليا الثلاث، ويُبرز أربعة مواضيع رئيسية تتعلق بالكون والحياة والمادة والاتصالات.

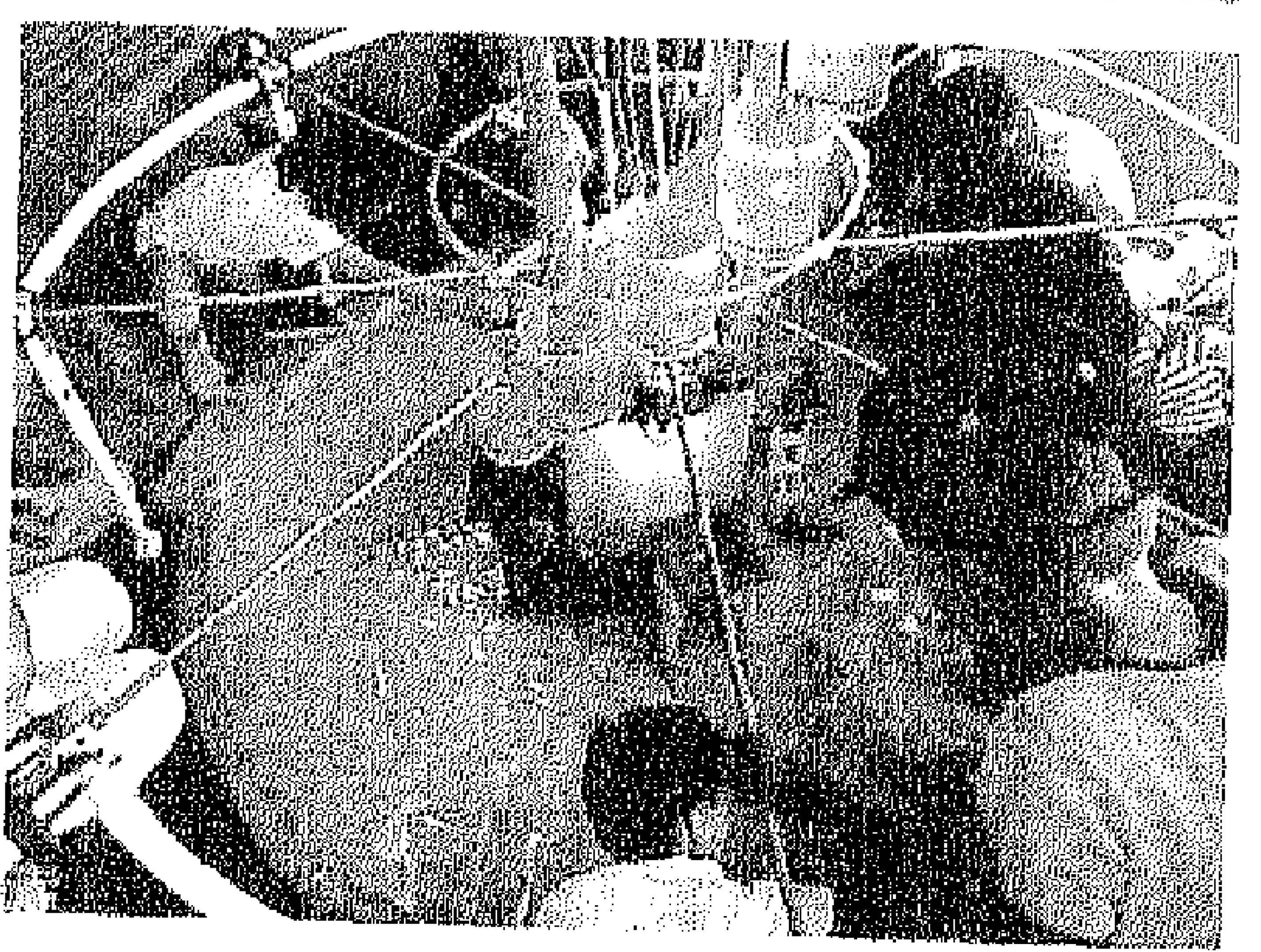
وتساعدنا رحلتنا عبر «الكون» على فهم أعماق المحيطات والجرف القاري و«حياة» النجوم واختبار سبر أعماق الفضاء. كما نشاهد في هذه الرحلة معالم مثيرة بينها المخروط الامامي لصاروخ «آريان» ونسخة لقمر اصطناعي بالحجم الطبيعي وغواصة لأعماق المحيطات.

واذا لم يبد أولادك اهتماماً بجناح









في «إكسبلورا»، معرض المدينة الدائم: (من فوق) مشهد من «جزيرة الفضاء» داخل غواصة في عمق البحر، «رجل آلي» موجَّه بالدماغ الالكتروني، نافورة ماء موسيقية في الـ«انفنتوريوم».

TOP THREE PHOTOS: TECHNIMEDIA/PH. JACOB
BOTTOM PHOTO: C.S.I./M.DESJARDIN

الرياضيات، ففي وسعهم التلهي بالآلة المدارية الشبيهة بلعبة الـ «فليبر»، أو قضاء هنيهات ممتعة خارج نطاق الجاذبية. ويلتفت صبي عمره ٧ سنوات الى والده سائلاً: «أترى كم هو ضيق داخل الصاروخ؟» فيجيبه والده: «تشعر كأنك داخل المطبخ في بيتنا.» ويشرح الوالد أن في وسع رواد الفضاء العديمي الوزن التحرك بسهولة نحو الآلات والأجهزة المثبتة على الحائط أو السقف، مفيدين الى أقصى حد من المساحة المتاحة.

وبعد اللامتناهي ضخامةً يأتي دور اللامتناهي صغراً. «الحياة» تبدأ بفيلم عن الحمل والولادة وعمل الخلايا ومفهوم الجينات.[٢] واستناداً الى لوحات وألعاب ووسائل سمعية بصرية، تتم الإجابة المسهبة عن أسئلة مثل: كيف يعمل الدماغ؟ وكيف تطور الانسان عبر آلاف السنين؟

وفي ناحية أخرى من «إكسبلورا» بيان كم التقنيات الجديدة حيوية للإنسان. فهناك نشاهد عمل «الرجل الآلي» المبرمج كالذي يشغّل في بعض المصانع الحديثة. وفي مركز لتوزيع الكهرباء نشهد كيف يحافظ المهندسون على استمرار التيار الكهربائي عندما يصل الاستهلاك الى حده الأقصى. كذلك نشاهد مجسّماً مصغراً للمفاعل النووي المثير للجدل «سوبر فينيكس» وهو يسرِّب غباراً «ذرياً.» والى ذلك يمكننا القيام برحلة وهمية على متن طائرة.

وأخيراً، هناك حقل وسائل الاتصال أو «نفط القرن الحادي والعشرين.» ففي نهاية هذا القرن ستقلب الادمغة الالكترونية طرق العمل المألوفة ويدخل العالم عصر الذكاء الاصطناعي. وسيزداد دور الأدمغة الالكترونية في اتخاذ القرارات من حيث استيعابها للمعلومات تلقائياً بواسطة «حواسها» و«التفكير» بموجب القواعد التي بُرمجت بها.

وفي مدينة العلم يتولى الربوط[٣] كول، وسط شبكة من الممرات المتشعبة، شرح العملية الفكرية التي تمكنه من إيجاد الطريق الى الخارج. وتركز معروضات أخرى على الضوء والصوت والادراك البشري والصور المركّبة.

معرض الوقت. يقول دو روزني: «التفاعل هو الوصف المناسب للطريقة التي اعتمدناها لتعريف الزائرين بالمعرض، إيماناً منّا بأن الانسان يكتشف الأشياء بالممارسة.» لذلك فالمشاهدة وحدها ليست كافية في لافيليت، إذ عليك أن تتفاعل مع الآلات بضغط الأزرار وتحريك الروافع واستعمال الأجهزة البصرية. وبفضل الشاشات والادمغة الالكترونية التي تعمل بفعل اللمس والصوت، يمكنك محادثة «السيدة معرفة» التي تضع في

(٢) الجينة او المورثة (gene) جزء من نواة الخلية تحمل خاصّة وراثية.

(٣) الربوط «robot» هو ما يعرف بالرجل الآلي.



ممثلون يحيون أدواراً من عهد الثورة الفرنسية في معرض «العلماء والثورة.»

متناولك كل المعلومات المخزّنة في كتب المدينة وأفلامها. كل ذلك بلمسة واحد من أصابعك. وعندما يحين وقت رحيلك يداخلك شعور بأنك شاركت شخصياً في مسار التقدم العلمي.

غير أن التفاعل بين الآلات والزوار الكثر يبقى أحدى المشاكل التي تواجه خبراء الصيانة كل يوم. يقول باتريك كوبريات الذي يرئس موظفي الصيانة: «في المتاحف العادية، كل ما عليك عمله هو إشعال الانوار كل صباح. أما هنا فعلى القيّمين تشغيل كل آلة على حدة والتأكد من عملها والتدقيق في أعطالها، يساعدهم في ذلك نظام إلكتروني متطور جداً. وطبيعي أن يزيد ذلك من كلفة المعارض التي تراوح بين ٦ و٩ آلاف فرنك فرنسي (بين ١٠٠٠ و١٥٠٠ دولار) للمتر المربع، وفقاً لدرجة تعقيد الآلة.»

ويشرح جويل دو روزني كيف تنظم المعارض: «يبحث مديرو المدينة العلمية عن أفكار مناسبة تستند الى اهتمامات الناس، والقيمة الاخبارية، وامكان اجتذاب المعلنين. ثم يُعيَّن مفوَّض يدير الأبحاث المتصلة بمحتوى المعرض وتمويله وهندسته الداخلية. وتراجع لجنة علمية أهمية المعلومات المتوافرة، ويتدارس المهندسون طرق تنظيم المساحة لأن الانطباع الأول الذي يكونه الزائرون مهم جداً. وعلى سبيل المثال، قد يكون دخول المعرض من مكان مرتفع يكشف محتوياته دفعة واحدة، أكثر جاذبية وأبلغ وقعاً.»

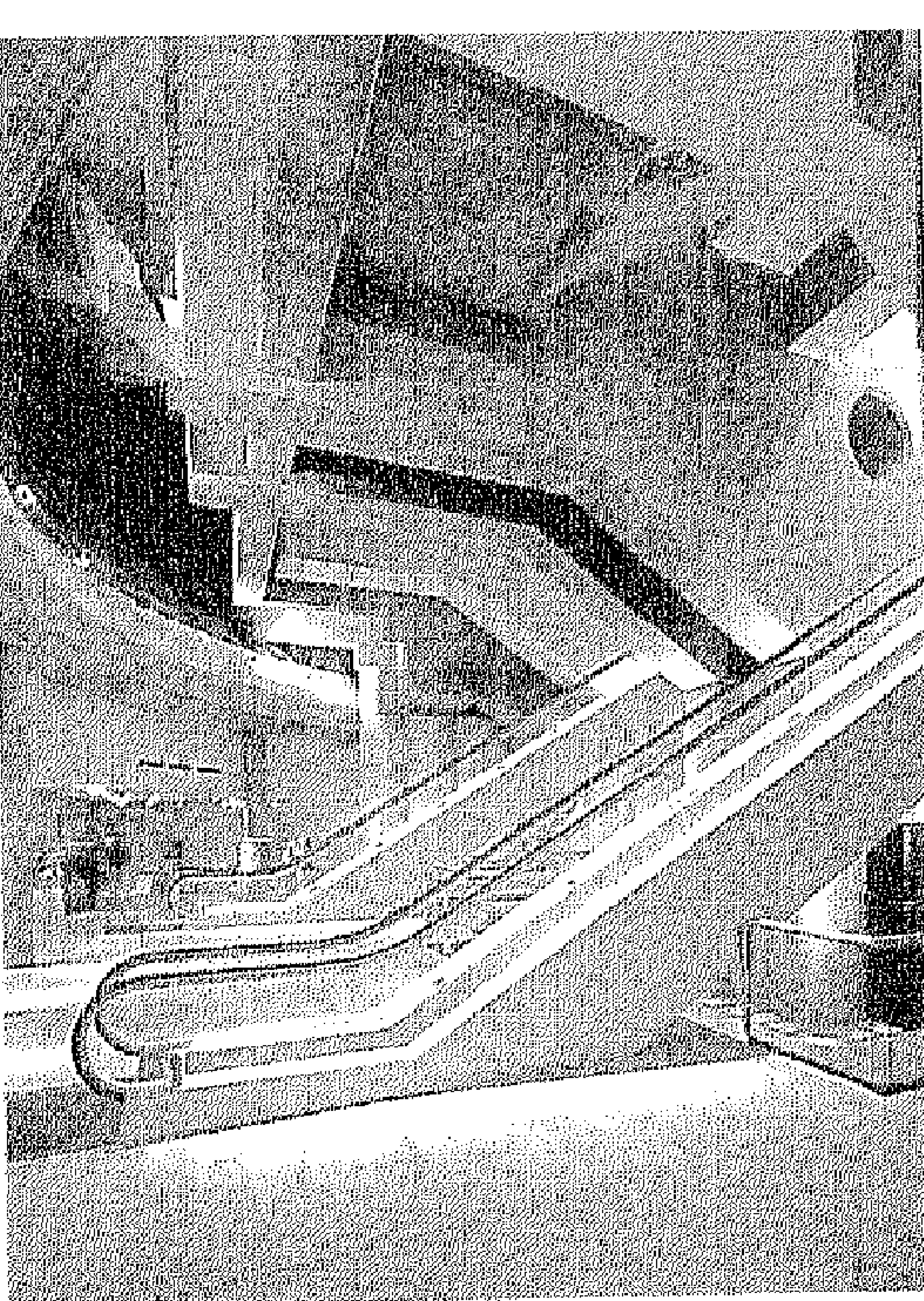
ويتابع دو روزني: «في هذه الاثناء يجمع الخبراء الوثائق والصور اللازمة، فيما يعمل آخرون على تحضير معدات الفيديو والشاشات الالكترونية التي تعمل باللمس. وأخيراً يُتَّخذ القرار النهائي، ويبدأ استدراج العروض. إنها عملية مرهقة. ومثال على ذلك، استغرق إتمام معرض «اختراع الوقت» الذي انتهى عرضه في أغسطس (آب) ١٩٨٩، نحو أربع سنوات من التحضير.»

هـذا المعرض الـرائع لآلات قيـاس الوقت، بدءاً بالمزولة الشمسية وانتهـاء الى الساعة الـذرية، عـرض سمكة من نهـر النيل تبث اشـارات كهربـائية في فترات منتظمة. وعلى هذا الأساس تمكن العلمـاء من احتساب الـوقت الصحيح بـوصلهم صمـامـاً ثنـائيـاً[٤] الى جسم السمكة. يقول فرنسوا بيـلانجيه مـدير العلاقات العامة: «هناك مشكلة واحدة، فحـين يكثر الـزائرون تصـاب السمكة بـالعيـاء وتتـوقف عن بث الاشـارات الكهربائية.»

رحلة في الفضاء. أُقيم كذلك معرض لتكريم علماء فـرنسا في القـرن الثامن

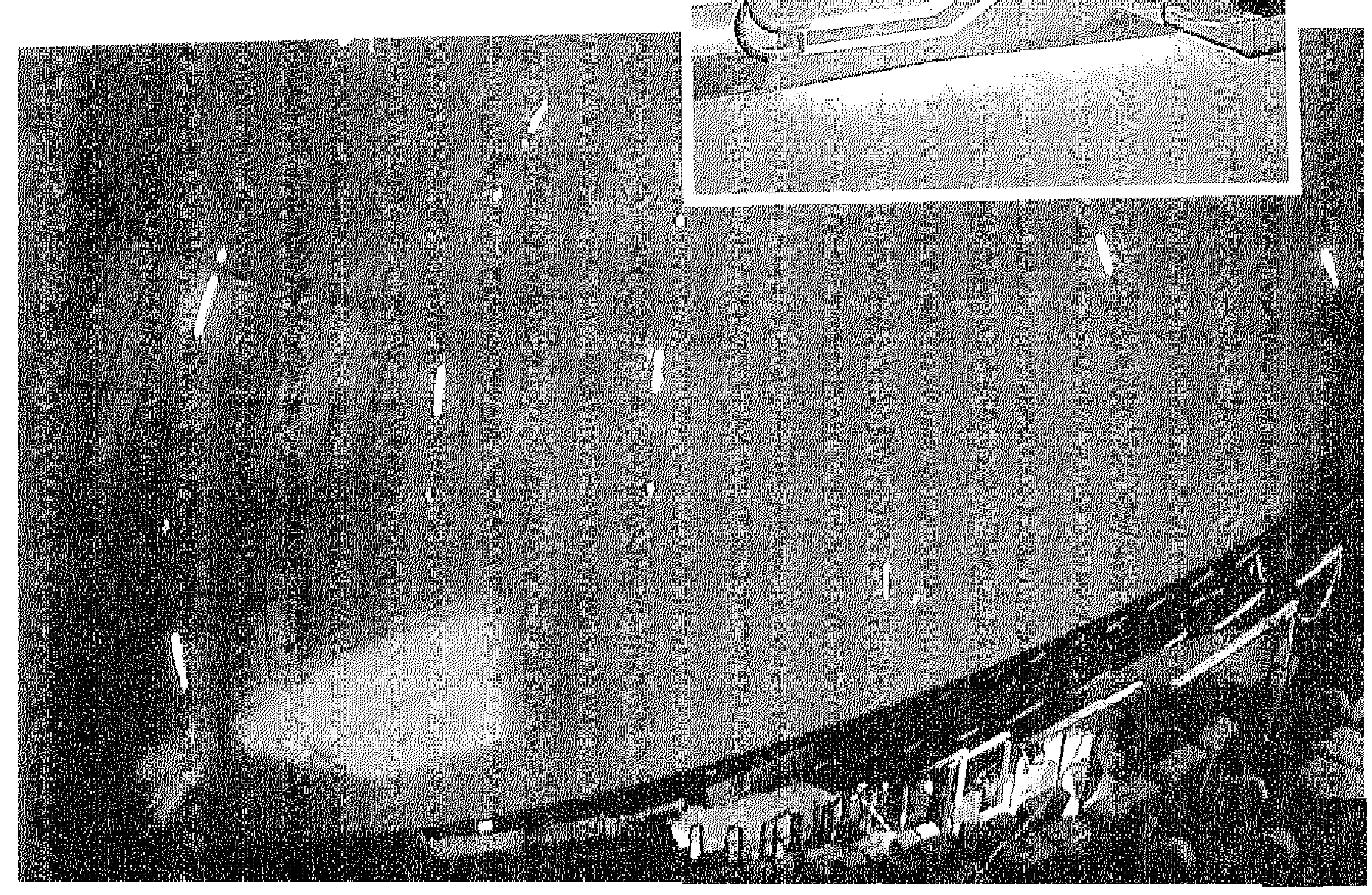
(٤) Diode

مصاعد جبارة تنقل الزائرين الى قاعة السينما نصف الكروية.



ETIENNE REVAULT

ILIPPE HURLIN



لكي تكون زيارتك مثالية...

١. «مدينة العلم» فسيحة ويمكنك قضاء يوم كامل في أرجائها. وكلما طالت زيارتك أفدت اكثر من المال الذي دفعته للدخول. والمطعم الذي افتتح حديثاً يؤمن استراحة عند الظهر.

٢. تذكر أن تحجز مقاعد في «جيود» و«بلانتاريوم» والا اضطررت الى الانتظار ساعات في طابور طويل من غير أن تضمن دخولك. راجع البرامج المقررة، ففي كل يوم نشاطات مختلفة. ويمكنك قراءة جدول البرامج بطلب «3615 Villette» على جهاز «مينيتل تلكومبيوتر» في البيت أو الفندق. وقريباً سيصبح في وسع الراغبين شراء بطاقات الدخول بواسطة الـ «مينيتل.»

٣. استأجر مسماعاً، فمن دونه تفوتك معلومات كثيرة. قد تبدو التكاليف باهظة: بطاقة دخول، رسم اضافي لدخول «جيود» و«بلانتاريوم»، مسماع، طعام. ولكن فكر أيضاً: انه ثمن زهيد ليوم في المستقبل.

عشر، افتُتح في ١٩ ابريل (نيسان) ١٩٨٩ بعنوان «العلماء والثورة.» يقول دو روزني: «كانت الثورة الفرنسية فترة غير عادية بالنسبة الى العلم. وقد اجتهد العلماء آنذاك، عام ١٧٨٩، كما يفعلون اليوم، في مساعدة السياسيين على تحديد موقع الانسان في الطبيعة.»

ولإحياء هذه الفترة المضطربة من تاريخ فرنسا، لم تألُ مدينة العلم جهداً أو بذخاً. ولأجل ذلك أدى الممثلون أدواراً حيَّة تبعث أحداثاً من الثورة الفرنسية. ودخل الزائرون بهو صوفي دو كوندورسيه ليستمعوا الى زوجها نيكولا وهو يشرح خطته لابتكار النظام المتري. واسترقوا السمع الى نابوليون بونابرت محدثاً العلماء الذين تبعوه الى مصر. وألقيت محاضرات ونشرت كتب لهذه المناسبة. وعرض في «جيود» فيلم من إخراج بيار اتيه يتتبع قصة الاتصالات اللاسلكية مذ اخترع كلود شاب تلغراف «سيمافور» (الإشاري) عام ١٧٩٤.

ولمحبي الاثارة زيارة البلانتاريوم (معرض الكواكب) ونجومه العشرة الآلاف، وهو أحد أحدث المعارض المماثلة في أوروبا. ويمكنهم حضور مشاهد أخّاذة، كما يعِد السيناريو الذي كتبه جان كلود كاريير بعنوان «حياة وموت كوكب»، والبرنامج المقبل بعنوان «روّاد الحياة»[٥] من تأليف دو روزني. ومن أجل هذا البرنامج سيتحول البلانتاريوم الى سيلولاريوم (معرض خلايا) حيث يقوم المشاهدون برحلة داخل الخلايا البشرية.

أما الاطفال الذين يزيد عمرهم على ثلاث سنوات فيتوافدون الى

(٥) The Bionauts

الـ «انفنتوريوم» (معرض الاختراعات) حيث يتعلمون بواسطة الألعاب. ولفائدة التلاميذ وأساتذتهم، عملت مدينة الصناعة مع وزارة التربية الفرنسية على تنظيم «صفوف لافيليت.» وهكذا تقدم مدينة العلم برامج تهم الجميع، بدءاً بالاطفال وانتهاءً الى العلماء الذين يلتقون بانتظام ضمن مؤتمرات دولية. ويفد كل أسبوع ألوف الاولاد والمراهقين، ذلك لأن لافيليت هي أيضاً متحف لألعاب الفيديو.

ويجتذب المكان أعداداً ضخمة من الزائرين العابرين. تقول امرأة متقدمة في السن زارت المكان مع زوجها المتقاعد: «لم نرَ كل ما هنالك، لكننا سنعود حتماً. لقد مرَّ وقت طويل لم نتمتع به هكذا. أليس كذلك يا روبرت؟»

ريمي فافري ■



ود عمليّ

كنت مع زوجي وسط حشد من الناس نغادر ملعب كرة القدم بعد انتهاء المباراة، عندما اخذ يدي مع انه لم يظهر لي امارات الود علناً من قبل. فسررت ايما سرور. واذ خرجنا من الملعب متشابكيْ اليدين رفعت اليه بصري مبتسمة وسألته: «ألا تريد أن تفقدني؟»

فقال: «بل لا أريد أن أبحث عنك.»

ك.ج.

أصالة لغوية

ضمن البرنامج الصيفي لتعليم اللغات في الجامعة يوقِّع الطلاب تعهُّداً بأن يتحدثوا طوال الوقت باللغة التي اختاروا تعلمها. ولقد ادركت كم هذه السياسة «متأصلة» في النفوس عندما قرأت في أول الصيف اعلاناً على لوحة البلاغات جاء فيه: «مطلوب: شريك في غرفة، مع التظاهر بالتحدث في أي لغة.»

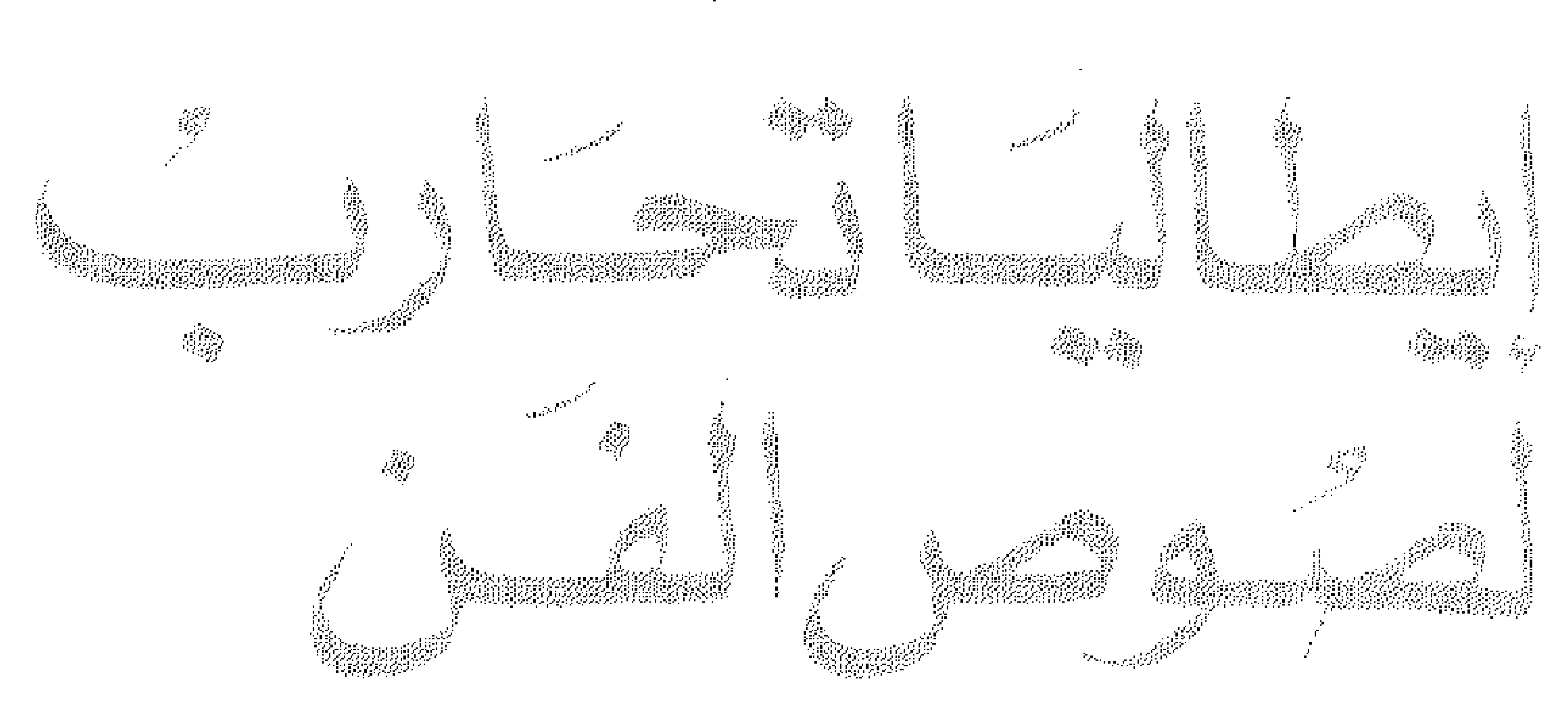
م.غ.

العاطفة والالكترون

سأل أحدهم صديقه المهندس الالكتروني: «ما هو أفضل وأسوأ ما في الأدمغة الالكترونية التي ستتولى عنّا يوماً عملية التفكير؟»

فأجابه: «أسوأ ما فيها انعدام العاطفة، وأفضل ما فيها انعدام العاطفة؟»

ج.غ.





تلاحق الشرطة الايطالية طائفة من اللصوص المحنكين ومنظمات الاجرام لاسترداد كنوزها النفيسة

كانت لوحة «سيدة النِعَم» العائدة الى القرن الخامس عشر مركزة على مسندها عندما اختفت وسط جموع متلهفة من المصورين والموظفين الكبار. واليوم يُحتفل باسترداد هذه اللوحة الصغيرة بعدما سرقت من كنيسة ألانو في منطقة ابروزي قبل خمس سنوات. وقد أُلقيت بالمناسبة محاضرات حماسية تطالب بحماية الحضارة الأيطالية. وقد أعلن الكولونيل اميديو نابوليتانو، الذي يرئس فريق مكافحة سرقة التحف في الشرطة

الايطالية، أن رجاله ماضون في تعقب لوحتين أخريين تشكلان مع لوحة «سيدة النعم» في الوسط لوحة ثلاثية. وهو يعتقد أن اللوحتين في حوزة هاو يسكن على مقربة من مدينة البندقية.

فيما كان محافظ البلدة وكاهنها يغادران المكان، التفت الي مفتش في الشرطة وقال: «انني سعيد لسعادتهما، اذ لو علما أن اللوحة في حوزتنا منذ سنة لجن جنونهما.»

سألته: «لماذا اذاً كل هذه الضجة حول تسليمها الآن؟» واعترف لي بأن الشرطة مثلت دوراً لاجتذاب جمهور مجهول قال: «اننا نخوض حرباً نفسية مع الذين يحتفظون ببقية اللوحة الثلاثية. لقد أبلغناهم رسالة هذا الصباح.»

فإذا وصلت الرسالة الى الهاوي المجهول الذي عناه الكولونيل نابوليتانو، فستعلم الشرطة أين ستعرض اللوحتان للبيع.

ونظراً الى النفائس التي لا تحصى كانت ايطاليا، ولا تزال، الضحية الأولى في العالم لعمليات نهب التحف الفنية، اذ يُسرق نحو ١٠٠٠ لوحة وتحفة كل شهر. لذلك أصبحت ايطاليا في العام ١٩٦٩ أول بلد ينظم فرقة متخصصة في الشرطة السرية لمكافحة هذا النوع من الجرائم. ويعتبر فريق المغاوير «كارابنييري»* لحماية الفنون المؤلف من ثمانين عنصراً واحداً من أنجح فرق الشرطة في العالم.

واليوم، نتيجة تفاقم المشاكل المتأتية عن سرقة التحف الفنية وتهريبها في العالم، غدا فريق الكارابنييري الايطالي مثلاً يحتذى. اذ أنشأت فرنسا في العام ١٩٧٥ فريقاً مماثلاً وإن يكن أقل عدداً. وهي تملك الآن نظاماً معلوماتياً فريداً يستخدم في اقتفاء الآثار الفنية المسروقة، وتعمل على ادخال مزيد من التحسينات عليه. وفي هذه الاثناء يدرس البوليس الدولي (الانتربول) امكان تعميم نظام المعلوماتية المتبع لدى الكارابنييري دولياً.

اقتفاء الكنوز. خلافاً للأساليب المتبعة في الشرطة لا يعمد فريق الكارابنييري عادة الى اعتقال المجرمين. إذ ان هدفه الأول هو منع «الاختفاء الدائم» للسلع المسروقة، وذلك باسترجاعها أثناء تبادلها بين الوسطاء والتجار. ولهذا الغرض ينظم الكارابنييري قائمة سنوية تتضمن صوراً وأوصافاً لاعمال فنية مسروقة، ويعممها على صالات العرض ومحلات الآثار والمتاحف والتجار عبر ايطاليا، اضافة الى صالات المزاد الكبرى والوسطاء خارج البلاد. وعندما يتم العثور على عملاء في حوزتهم عمل فني ورد في النشرة، لا يمكنهم ادعاء شرائه «بنية حسنة» لأنه سبق اعلامهم بسرقته. وغالباً ما يضطر هؤلاء الى تسليم المسروق، ولكن نادراً ما يدانون.

(*) Carabinieri

ومنذ العام ١٩٧٠ تمكن الفريق من استعادة اكثر من ١١٢ ألف عمل فني، لكنه اعتقل أقل من ٢٥٠٠ مشتبه فيه.

وتسمح هذه المهمة الخاصة بمقدار من المرونة في الأساليب. اذ يجاز التنصت على الهاتف واعتماد المخبرين واللجوء الى الخداع أكثر مما هو متبع في معظم البلدان الأخرى. وقد قال لي تحرّ طلب عدم ذكر اسمه: «لكن يفترض بنا أن نتناقش مع القضاة في كل ما نفعله.»

وفي يونيو (حزيران) ١٩٨٧ أثناء مخاطبة البرلمان الأوروبي حول تجارة الاعمال الفنية، قال الكولونيل نابوليتانو: «من الضروري أن نضمن اولاً استرداد الغرض المسروق، ثم نهتم لاحقاً بجمع الأدلة التي تدين المجرمين.»

في وسع الكارابنييري ان يتحرى نسبة ضئيلة من الجرائم المرتكبة في مجتمع غني بالفرص. فالأسواق ترحب بالمسروقات، والوقاية شبه معدومة. وقد ساد اعتقاد قديم أن من يسرق مكاناً مقدساً مصيره الجحيم. ودور العبادة هي اليوم الهدف الأول للصوص الفنون في ايطاليا لافتقارها الى الحراسة وأجهزة الحماية. الى ذلك ليست هناك قائمة كاملة بالتحف الدينية في ايطاليا مما يجعل اقتفاء الكنوز الكنسية أمراً شبه مستحيل. كذلك ما زالت الخطط اللازمة لتحسين الحماية في كثير من متاحف ايطاليا الاقليمية الصغيرة تنتظر التنفيذ.

. من بين القطع المهمة التي نجح الكارابنييري في استردادها لوحة لرافاييل ولوحتان لبيارو ديلا فرنشيسكاس كانت سرقت من قصر دوكال في اوربينو، وبلاطة المذبح العاجي من سرتوزا دي بافيا أحد أشهر الأديرة في ايطاليا ولوحة لرينوار سرقت من متحف «سيفيك» في تورينو. ومثّل تحريو الفريق دوراً رئيسياً في تعقب خمس تحف تعود الى عصر النهضة وتحفتين مزخرفتين بالنمط الباروكي سرقتا عام ١٩٨٣ من متحف بودابست للفنون الجميلة في هنغاريا في احدى كبرى عمليات السرقة الفنية التي عرفها هذا القرن.

وقد استدعي فريق الكارابنييري للتحقيق في حادث بودابست عندما عثر على عيدان من الكبريت الايطالي في موقع الجريمة. طلب من المخبرين في أنحاء ايطاليا ارسال المعلومات بسرعة. فتقدم بعد حين واحد من كبار تجار الفنون وأدلى بمعلومات تفيد أنه سمع شاباً يلبس نظارة يتباهى بخطته لسرقة مسلحة لتحف تعود الى عصر النهضة. وقد تبين أخيراً أن اسمه ايفانو شيانتي، وهو مطلوب بجريمة قتل وسرقة تحف فنية وله علاقات بعالم الجريمة في أوروبا الشرقية.

وضع مقهى «ريجيو اميليا» الذي كانت تتردد عليه عصابة شيانتي تحت رقابة مشددة. وشوهد أحد مساعدي شيانتي، جياكومو موريني، يقود سيارة



«بروفسور» فريق الكارابنييري.

لا تخصه، وتبين من التنصت الى مكالمة هاتفية أن سيارته الفيات تخضع لتصليحات في اليونان. وافادت معلومات من هنغاريا أن ايطالياً نقل براً ست لوحات الى اليونان، وأن اللوحة السابعة استردت في بودابست.

حدد الكارابنييري مكان سيارة موريني داخل مرآب قرب أثينا بعد التدقيق في سجلات شركة «فيات» لقطع الغيار المرسلة الى اليونان. وتم اكتشاف مخبأ سري داخل السيارة يتناسب وحجم اللوحات.

وعند الاستجواب خيِّر موريني بين التعاون مع الشرطة ومواجهة العدالة في هنغاريا. فزعم أن شيانتي هو «الرأس المدبر» للجريمة. وأخبر الكارابنييري أن شيانتي سلم اللوحات الى صناعي يوناني معروف. فأُطلع الصناعي على اعتراف موريني. وبعد أيام ظهرت اللوحات في دير قرب أثينا. فألقي القبض على شيانتي وحكم عليه بالسجن.

كذلك استندت شركة الاذاعة الايطالية الى ابطال الكارابنييري في برنامجها التلفزيوني «القبض على لص عبقري.» وعندما سئل رجال التحري عن مدى صدق المشاهد التي تضمنت مطاردات مثيرة وعمليات سرية معقدة، قالوا: «تحدثوا الى البروفسور.» وقد عنوا بذلك زميلاً لهم تعامل مع رؤساء المافيا في عرينهم وأكل مع قطاع الطرق في سردينيا.

نقطة الضعف. يعود لقب «البروفسور» الى مفتش التحق بالفريق منذ تأسيسه ونال لقبه الاكاديمي بطريقتين.

بعد برنامج تدريبي مكثف لمدة شهر في روما، يلتحق المجندون الجدد بالبروفسور ليتعلموا اسرار هذه المهنة المعقدة. والى ذلك كان البروفسور يفضل التنكر بدور مؤرخ للفنون يتقاضى مبالغ كبيرة من هواة جمع التحف الكبار في مقابل بضائع مسروقة. انه دور اتقنه الى درجة مكنته ثلاث مرات من خداع متعامل تختبىء وراءه عصابة «كامورا» وهي مرادف للمافيا في نابولي. وقد تم ارساله الى السجن.

استخدم المفتش جميع مهاراته للقبض على اغوستينو كارنسيتشي الذي تورط في بيع ثلاث تحف تعود الى عصر النهضة سرقت عام ١٩٧٠ من متحف «سيفيك» في بافيا. وقد تم استرجاع اثنتين منها عام ١٩٧٤ عندما أوقع

اللص في شرك متقن وهو يبيعهما الى رجل انتحل صفة تاجر آثار من لندن. اعتقل كارنسيتشي واثنان من رجال عصابته، لكنه تمكن من الفرار لاحقاً.

أخيراً بدأ الكارابنييري مفاوضات عبر والدة كانسيتشي لاقناعه بأن ليس هناك من سبيل لبيع اللوحة الثالثة، وهي لوحة نادرة لانطونيلو دامسينا. أوضحوا انه قد يحظى بحكم مخفف إن استسلم. وفي ساعة متقدمة من احدى ليالي أغسطس (آب) تلقى ضابط شرطة رسالة توجهه الى مستودع الامتعة في محطة للسكك الحديد في روما. كانت اللوحة هناك. وبعد أشهر قليلة اعتقل كارنسيتشي بتهم أخرى.

يقول البروفسور: «ان العامل الأساسي في جميع العمليات السرية هو أن تدرك أن المال هو الحافز الأهم في ذهن الشخص الآخر. انه نقطة ضعفه.» فذات مرة اقتاده أحد المخبرين الى بلدة كالابريا حيث كان موظفان من المتحف المحلي وصديق لهما يبيعون تحفاً سرقوها. يقول «البروفسور»: «كانت مسألة استمالتهم بسيطة جداً، إذ دعوتهم الى تناول أفضل عشاء في البلدة.» وعندما أبرز أمامهم كدسة كبيرة من الأوراق المالية قبلوا بتسليم السلع. عندئذ قبض عليهم.

أغلى من الفرو. يقول الكولونيل نابوليتانو إن المنظمات الاجرامية تنشط على نحو زائد في سوق التحف لتصريف الأموال غير المشروعة وجني الأرباح. والى ذلك بدأت تظهر منظمات كبيرة للاجرام عملها الوحيد سرقة الاعمال الفنية. وفي فبراير (شباط) ١٩٨٧ عملت قوة مشتركة من الكارابنييري ونظرائهم الفرنسيين على الاطاحة بعصابة فرنسية - ايطالية تمولها مجموعة من تجار التحف في تورينو. وقد سبق لهذه العصابة أن نهبت ٢٠٠ قصر فرنسي في السنوات الثلاث السابقة، محدثة خسارة بلغت ١٠٠ مليون فرنك (نحو ١٧ مليون دولار). والفضل في حل هذه القضية يعود جزئياً الى «بنك المعلوماتية» الخاص بفريق الكارابنييري حيث تتوافر معلومات عن ٤٠ ألف تحفة فنية مسروقة من أنحاء العالم.

احدى الصعوبات التي تعترض حل المشكلة من جذورها هي أن اللصوص يتخلصون بسرعة من التحف الفنية المسروقة. واسترداد تحفة فنية قد يكون صعباً أيضاً عندما تكون في حوزة أحد الهواة. يقول ضابط كبير في الفريق: «ينزع المتعاملون في سوق التحف الفنية الى نقل أقاويل عن منافسيهم.»

ان الارتفاع المشهود في أسعار التحف والرغبة المتزايدة في اقتنائها اجتذبا اعداداً متنوعة من المجرمين الى حقل سرقة الاعمال الفنية. يقول الكولونيل نابوليتانو: «في هذه الايام قد يتجاهل اللصوص معطفاً من الفرو اذا رأوا لوحة قديمة.»

روبرتو سورو ■

«تفاح من ذهب في مصوغ من فضة
كلمةٌ مقولةٌ في محلها»

سليمان الحكيم



كنت في السادسة والعشرين من عمري أعاني المرض والكآبة. كنت أحتاج الى مساعدة، فوجدتها في المكتبة العامة المحلية، في كتاب خطب لونستون تشرشل.

«لن تفتر عزيمتنا ولن نسقط. سوف نحارب في فرنسا، وفي البحار والمحيطات. سوف نحارب في الجو بثقة متزايدة وقوة متنامية.»

تخيلت نفسي في بريطانيا في ذلك اليوم الكئيب من يونيو (حزيران) ١٩٤٠ الذي تلا هزيمة بريطانيا في معركة دانكيرك، عندما علا ذلك الصوت الرنان العظيم، الموزون والمتأني والقوي، مخاطباً مجلس العموم البريطاني. رفعت كلمات تشرشل معنوياتي كما رفعت معنويات الملايين من مواطنيه.

«سوف نداقع عن جزيرتنا مهما يكن الثمن. سوف نحارب على الشطآن والمدارج. سوف نقاتل في الحقول والشوارع. سوف نقاتل على التلال.» وتراءى لي ذلك الوجه البلدغي العظيم وتانك العينان المتقدتان. «لن نستسلم ابداً!»

كل ما تطلبه الأمر كان تعبير هذا الرجل عن إيمانه بقدرة الفرد على مواجهة التحدي وقهره. ولقد منحني ذلك شجاعة. كان تشرشل يعرف ان مواطنيه يملكون قوة داخلهم. وأدركت بدوري أن القوة ذاتها تكمن داخلي أنا أيضاً.

قال لي احدهم مرة: «كن لطيفاً. إن جميع من تصادفهم يخوضون معركة صعبة.» هنالك أناس في كل مكان

يحتاجون الى كلمة حلوة، الى إطراء تشجيعي يوقد آمالهم وأحلامهم.

دعوني أضع بين أيديكم أربع طرق للتفوه بكلمات تشجيع حقة:

كونوا مخلصين وبسطاء. أعلن الكاتب الامريكي مارك توين مرة أنه يستطيع أن يعيش مدة شهرين على اطراء واحد جيد. لكم هذا صحيح! ألم نردد جميعنا في نفوسنا، تكراراً، الكلمات الحلوة التي سمعناها من أحدهم، من غير أن تفقد هذه الكلمات التشجيع الذي أحدثته؟

لكن في الاطراء شيئاً أبعد من التملق. الاطراء الكاذب يحلي اللسان لكنه يثقل المعدة. والعبارة المتأنقة هي عادة غير ضرورية، فالاطراء الابسط قد يكون هو الاعمق أثراً.

أعمل في شركة لا يعلق فيها المدير على حسن عملنا إلا نادراً. لكنني ما زلت أحتفظ بمذكرة كتبتها تتضمن أفكاراً عن طرق بناء علاقة أفضل مع الزبائن. لماذا تظل هذه المذكرة عالقة في ذهني من بين المئات التي كتبت؟ كلمتان صغيرتان كتبهما المدير على عجل في أعلى الورقة: «فكرة جيدة!»

كونوا حسّاسين في ما يختص بالزمان والمكان. من أمثال سليمان الحكيم: «تفاح من ذهب في مصوغ من فضة كلمةٌ مقولةٌ في محلّها.»

خلال احدى الغارات الاخيرة في الحرب العالمية الثانية، كان الجنرال الامريكي دوايت ايزنهاور يسير على ضفة الراين، فصادف جندياً بدت عليه امارات الكآبة.

سأله ايزنهاور: «كيف تشعر يا بني؟»

أجاب الشاب: «إنني متوتر جداً يا سيدي الجنرال.»

قال ايزنهاور: «حسناً، أنا وأنت نشكل ثنائياً جيداً، لأنني متوتر أيضاً. لو نسير معاً، فقد يساعد واحدنا الآخر.»

لم يعطِه عظة ولا نصيحة، لكنه أعطاه تشجيعاً حقاً.

تذكروا أمثلة شخصية عن الكفاح. إن الطبيعة البشرية تنزع الى الاعتقاد أن الناس الناجحين لم يرتكبوا أخطاء. لكن الحقيقة غير ذلك. فمن يواجه الصعوبات يحتاج الى تذكير بالتحديات والخيبات التي تنتابنا جميعاً.

قررت متابعة مقرر دراسي جامعي بسبب أستاذ هناك يدعى هوارد هندريكس. كانت شخصيته وصدقه وذكاؤه وثقته تشع من خلال كل كلمة يقولها. وأثبت أنه أعظم أستاذ صادفته في حياتي.

ولكن بعد فترة وهنت عزيمتي لاعتقادي أنني لن أتمكن أبداً من العيش وفق تعاليمه وانجازاته.

وذات يوم شعر هندريكس بحالي النفسية وربما بحال جميع طلاب الصف. فتوقف في منتصف محاضرته

وباشر حديثاً من القلب الى القلب. تحدث بهدوء عن عدد المرات التي واجه فيها الفشل، وكيف كاد يتخلى عن التعليم غير مرة. كان يضحكنا لحظة ثم يحزننا ويحوز عطفنا في لحظة أخرى. وأدركت أنه رجل غير كامل، مثلنا جميعاً. قال لنا: «ليست الحياة سباقاً قصيراً، إنها سباق طويل. والذين يفوزون هم غالباً الكادحون مثلكم ومثلي.»

خذوا الوقت الكافي. كلمات التشجيع القديمة لا تنفع. الاطراءات السهلة التي تقال من غير تفكير، مثل «تبدو في حال جيدة» أو «يعجبني أسلوبك» تفتقر الى قوة التحريك وإن قيلت بنية صادقة. التشجيع الحقيقي هو مثل رسالة جيدة الصياغة، بل قد يكون رسالة فعلاً.

ظل الشاعر الامريكي والت ويتمن يكافح سنوات كي يجد أحداً يهتم بشعره. لم يلاقِ تشجيعاً. ثم تلقى رسالة جاء فيها: «سيدي، لم تَفُتْني أبداً قيمة الموهبة المدهشة البارزة في كتاب «أوراق العشب.» انني اجده تحفة من الذكاء والحكمة تفوق كل ما أنتجته أمريكا الى الآن. انني أحييك في مستهل حياة أدبية عظيمة.» ووقع الرسالة الكاتب والشاعر الامريكي رالف والدو امرسون.

لم تكن تلك الكلمات مرتجلة. لقد كدّ امرسون حتى توصل الى اختيار ما يناسب. لم يكن في نيته تشجيع ويتمن فحسب، بل تشجيعه على نحو يذكر.

التشجيع سهل جداً. إنه كلمة أو نادرة أو ثناء أو حديث حافز أو زيارة. انظروا حولكم واختاروا أحداً ما، ثم قدموا اليه أفضل ما لديكم. افعلوا ذلك اليوم.

مارك ليتلتون ■



لا يضيع حق...

لا تني احدى نسيباتنا تستعطي مالاً. وقبيل عرس ابنتي سألتنا النسيبة أن نرسل إليها بطاقة سفر بالطائرة كي تحضر العرس. وقبل الموعد بأسبوعين اتصلت هاتفياً طالبة ٥٠ دولاراً. فزعقتُ: «لقد أرسلنا اليك بطاقة السفر، وكل شيء مؤمَّن لك مجاناً طوال اقامتك هنا. ونحن تراكمت علينا المصاريف الآن. هل انت حقاً في حاجة إلى المال؟»

أجابت النسيبة بسخط ظاهر: «حسناً، بحق السماء، هل تظنين أني سآتي من دون هدية؟»

ج.ت.

أضواء من عالم الطب

فيتامينات قبل الولادة

تفيد دراسة للـدكتور جـوزف مولينـار وزملائه في «مراكز مراقبة الامراض» في اتـلانتا، جـورجيا، أن أجنَّـة النسـاء اللـواتي يتناولن فيتـامينات اضـافيـة قبيل فترة الحمـل وفي أوائلها تـواجه اقـل من نصف احتمـالات الاصـابـة بـاختـلال في «الانبـوب الـعصبـي» الجنيني.

إنّ أخطر نواقص الجهاز العصبي تنشأ في نهـاية الشهـر الاول للحمل عنـدما يقصر الانبـوب العصبي عن الانسداد كليـاً لكي يتحول في مـا بعد دمـاغـاً ونخاعاً شوكياً. فـإذا بقي مفتوحـاً في اعـلاه فلن ينمو معظم الـدماغ. وإذا بقي مفتوحاً على طول العمود الفقري فـإنه يؤدي الى الاصـابة بـالسنسنـة المشقوقة* فتتلف الاعصاب التي تحرك الحوض والأطراف السفلى أو لا تنمو بشكل طبيعي.

ووجد الباحثون أن الخطر يقلّ ٦٠ في المئة لدى أطفال النساء اللواتي أعلنّ تناولهن فيتامينات متعددة لمدة لا تقل عن ثـلاثة أشهـر قبل الحمـل وطـوال الاشهر الثلاثة الاولى من الحمل.

ومـا زالت هناك حـاجـة الى دراسـات اضـافية تؤكـد هذا التـأثير الـوقـائي الظاهر، لكن الدكتور مولينار يعتقد أن على النساء التحضير للحمل بمنـاقشة أطبـائهن في الفوائـد الممكنـة لتنـاول الفيتامينات المتنوعة. إلا أنه يشدد مع غيره من الخبراء على أن تناول كميات كبيرة من بعض الفيتامينات غير مأمون وقد تنتج منه أيضاً نواقص خلقية.

صحيفة «نيويورك تايمز»

الطيران وجلطة الدم

ان تقييـد الحـركـة وضيق المقـاعـد والاجتفاف، (إستنزاف سوائل الجسم) تـزيد خطـر اصابـة المسافـرين جـواً بجلطة في الساق. هـذا ما يحـذر منه ثلاثة أطباء في مجلة «لانسيت» الطبية البريطانية. فالدكتور جون كروكشـانك رياضي في الثامنة والاربعين من عمره، نحيف ولا يدخن، وهو شعر بوجع عند لمس ربلـة ساقـه اليسرى بعد رحلـة طيران طويلة في الشرق الاقصى. وعاني في ما بعد آلاماً في الصدر نـاجمة عن جلطـة (خثـرة) تكـونت في سـاقـه ثم انفصلت لتستقر في رئته.

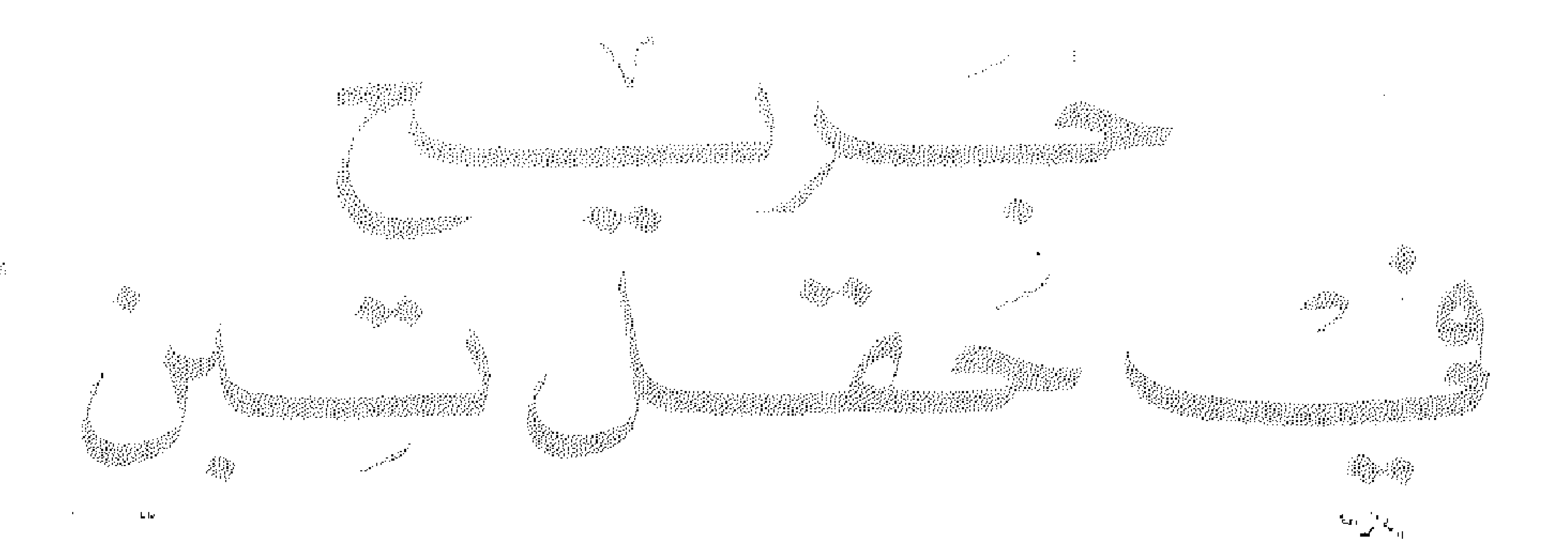
وبعـد رحلـة طـيران من واشنطن الى لنـدن، أصيب الدكتـور براين جينيت، وهـو في الستـين من عمـره، بـالام في الصـدر ناتجـة من جلطـة انتقلت من ساقه. ولم يكن لأي من الرجلين ماض مرضي في القلب والأوعية الدموية.

وينصح الاطباء بتناول مشروبات غير كحـولية لتفـادي الاجتفاف، والمشي في ممر الطائرة وتحريك عضلات الساقين والوركين أثناء الجلوس.

«وول ستريت جورنال»

(*) Spina Bifida

مأساة واقعية



تمدد المزارع عاجزاً مهشَّم العظام وحياته رهن بتنبّه كلبه الوفي

تسلل جيم تاربلي على رؤوس أصابعه خارج الغرفة حرصاً منه على ألا يوقظ زوجته جودي. كانت الساعة الخامسة من صباح ١٦ يونيو (حزيران) ١٩٨٨، وأمامه نهار طويل يمضيه في جمع التبن لتأمين المؤونة لماشيته خلال أشهر الشتاء الباردة حين تتدنى الحرارة إلى ٣٥ درجة مئوية تحت الصفر. بيد أن الطقس القارس ما زال بعيداً، وقد بلغت الحرارة خلال الأيام الأخيرة ٣٠ درجة فوق الصفر، وهي غير عادية على ارتفاع ٢١٠٠ متر في شرق ولاية ايداهو الامريكية.

أمضى تاربلي (٤٩ عاما) عقدين من عمره في تربية المواشي. وكانت أرضه الممتدة فوق ٦٠٠ هكتار، والتي دعاها شركة «كوكولالا» للمواشي، تقع على بعد ٥٠ كيلومتراً من بلدة دوبوا الأقرب اليها. وأرضه بقعة نائية غرب «الحد القارّي»[1] يرتع فيها قطيع من ٤٥٠ بقرة من نوع «هرفورد» القصير القرنين وعدد من أجود أحصنة السباق.

غير أن الأوقات العصيبة التي واجهت صناعة اللحوم أغرقت تاربلي في

(١) Continental Divide وهو حرف في جبال روكي يفصل الانهار المتدفقة شرقا عن الانهار المتدفقة غربا.

الديون. لكن الأمور بدأت الآن تتحسن، وبات في امكانه أن يحلم بيوم تعيل فيه المزرعة العائلة بأسرها، بمن فيها أولاده الأربعة وأحفاده التسعة.

وحين خرج تاربلي من المنزل استقبله كلبه «ليروي» جذلاً. وهو حين أوصى على جرو توقع كلب رعي قوياً. لكنه بدل ذلك حظي بجرو أعجف يثير الشفقة. فألقى عليه نظرة وقال في نفسه: يا لهذا الكلب المسكين! لكن أعمال المزرعة حالت دون إرجاعه الى مربى الكلاب. وفي غضون ذلك تمكن الكلب، على رغم قبحه، من استمالة صاحبه.

كبر ليروي، وأصبح يزن خمسين كيلوغراماً. وبدا غريب الشكل. ونمت بينه وبين صاحبه عادات مسليّة: كان تاربلي يتسلل الى شاحنته ويحاول الانطلاق قبل أن يتنبه اليه الكلب، ولكن ما إن يقطع نصف المسافة حتى يندفع الكلب وراءه ويثب الى الشاحنة. وعندما يتفحص تاربلي أجهزة الري في المزرعة كانت عبارة «هيا نسقِ» كفيلة بجعل ليروي يغوص في أقرب قناة للري ويتخبط فيها.

الجرار الشارد. تسلل تاربلي الى الشاحنة ففتح بابها وأشعل المحرك وانطلق. لقد نلت منك هذه المرة يا ليروي. لكن الكلب أدركه وقفز الى مؤخر الشاحنة. ضحك تاربلي وصاح: «ليروي، أنت غير معقول!»

بعد مسيرة كيلومترات في طريق ترابية أوقف تاربلي الشاحنة في مرج حيث انتشرت رزم التبن. ثم صعد الى جرار ديزل كبير يجر عربة وقد صممت عجلاته المسننة وسلاسله ومكابسه الهيدروليكية لغرف الرزم وانتشالها بسرعة.

حمَّل تاربلي العربةَ نحو أربعة أطنان من التبن وأفرغها فوق كومة في طرف المرج.

وفي الجولة الثانية بدأت سلسلة الدفع في عربة التبن تنزلق عن العجلة المسننة. فترجل تاربلي غير مرة لاصلاحها.

قرابة الثامنة والنصف صباحاً أفلتت السلسلة من جديد. فأوقف تاربلي الجرار نخعاً. ولما حاول النزول زلَّت قدمه اليمنى على كتلة من الشحم ففقد توازنه. وعندما حاول التماسك ارتطم بمبدل السرعة، فانطلق الجرار قاذفاً اياه الى الخارج. وكان أثناء ذلك ارتطم بدواسة المخنق فأطلقها على مداها. وفيما هو يقع أرضاً علقت رجله اليسرى بعجلة الجرار فسقط على ظهره.

أطلق تاربلي صيحة ألم ورجله تتكسر. فالجرار يزن ٤٣٠٠ كيلوغرام، وكل عجلة خلفية يبلغ عرضها ٤٨ سنتيمتراً وهي معبأة بـ ٣٦٠ كيلوغراماً من الماء لزيادة الاحتكاك الالتصاقي. وشعر تاربلي بأن عظامه الحوضية تتفتت.

ثم قفزت العجلة على صدره وحطمت ضلوعه. فكر تاربلي: اذا داست العجلة

رأسي فستسحقه كبطيخة. أمال رأسه جانباً، فلامست العجلة أذنه.

شعر تاربلي بأن رجله اليسرى وحوضه وبعض ضلوعه وكتفه وذراعه ومعصمه اليمنى تحطمت شر تحطيم. وظن أنه يعاني إصابات داخلية. وكانت أدنى حركة تسبب له آلاماً مبرحة. وفي محاولة لمحاربة الهلع، أمل تاربلي أن يحطم الجرار السياج ويشق طريقه وسط المرج المجاور ليتنبه إليه مربو المواشي الذين كانوا يكومون التبن على بعد أقل من كيلومتر.

لكن كومة تبن اعترضت العجلتين الاماميتين فانحرف الجرار بعنف الى اليسار وارتطم بكومات تبن أخرى، ثم اجتاز قناتيّ ري مكملاً دائرة واسعة. وخلال دقائق عاد مندفعاً نحو الجريح.

سمع تاربلي قعقعة. لكن اصابة كتفه اليمنى كانت بالغة، فلم يقوَ على رفع رأسه ليرى ما يجري. فأمسك شعره بيده السليمة ورفع رأسه. وكم هالته رؤية الجرار الشارد يتجه نحوه من جديد.

هذا جنون! لا أصدق ما يحدث.

استجمع تاربلي قواه غير آبه بالألم، وتدحرج ثلاث مرات ثم تهاوى بإعياء غير قادر على الحركة. لكنه بذلك أنقذ حياته إذ أخطأ الجرار رأسه مرة أخرى.

وبعد لحظات وثبت إحدى العجلات على علبة زيت فانحرف الجرار الى اليمين. وانعطف هذه المرة الى اليمين جاراً العربة المحملة بأطنان التبن نحو تاربلي الذي شعر بعجلتين تثبان مجدداً فوق رجليه، فتملكه الهلع.

حافظ الجرار على انعطافه المحكم واتجه نحو تاربلي مرة أخرى. اذ ذاك شد المزارع كل عضلة في جسمه تحفزاً، وحدَّث نفسه: الوداع يا جيم. ثم دفن رأسه بين ذراعيه وأخذ يصلي.

ولحسن حظه أعاق قسطل ماء تقدم الجرار وغيَّر وجهته، فاندفع جاراً العربة وراءه وتخطى تاربلي الى تلة صغيرة حيث علق بسياج من الاسلاك الشائكة.

كان تاربلي ممدداً ووجهه غارق في حقل التبن كأنه فزاعة متكسرة. هرول اليه ليروي وراح يلعق وجهه. فهمس تاربلي: «أهلاً ليروي، صدق أو لا تصدق، أنا حي أرزق.»

الماء المنقذ. توالت ساعات الصباح ببطء واشتدت حرارة الشمس حتى بللت تاربلي عرقاً. لكن تصبب العرق توقف قرابة الظهر.

وأدرك المزارع أن ذاك مؤشر خطر لصدمة أو استنزاف لسوائل الجسم أو للأمرين معاً. وشعر بحاجة ماسة إلى الماء. وحام الذباب بأعداد ضئيلة أولاً ثم أسراباً راحت تئز حول وجه تاربلي وتتغلغل في أنفه وعينيه وأذنيه وفمه.

وعاد ليروي بعد غطسة في قناة قريبة. ولما رأى الذباب تملكته غُريزة الحماية. ولكم دهش تاربلي عندما رأى الكلب يلعق الذباب وينفضه حتى طرده.

لاحظ تاربلي الماء يتقطر من الكلب. فهمس بصوت أجش: «تمدد يا ليروي.» فارتمى الكلب متثاقلاً قرب وجه سيده الذي راح يمص الفرو كما لو كان إسفنجة كبيرة. وشعر بارتياح لدى انسياب الماء في حلقه.

[illegible]. خلال ساعات الصباح سمع تاربلي صوت جاره طوم ستلزر وهو يعمل في الحقل المجاور. ولكن قرابة الاولى بعد الظهر عم السكون المكان فأدرك تاربلي أن طوم وابنه ديف يرتاحان للغداء. وفكر: ربما توجها الى هنا لمعرفة سبب توقف جراري في السياج طوال الصباح.

وبعد ساعة انتابه شعور باليأس اذ عاد ستلزر وابنه وأدارا آلاتهما مجدداً. فأدرك أنهما لم يرتابا بشيء. كما أيقن أنه سيكون في عداد الأموات صباح الغد ما لم يعثر عليه أحدهم عند الغسق.

شعر تاربلي بحضور الموت، لكنه أبى التسليم بالامر. لا، لن أموت. أنا أتألم، إذاً أنا حي. وعندما يتوقف الألم سأكون في ورطة.

بات عطشه لا يحتمل، وأدرك أن لا بد من حصوله على الماء، وإلا فسيموت. نادى كلبه: «ليروي، هيا نَسْقِ.» رفع الكلب رأسه فردد تاربلي الامر. عندئذ عدا الكلب بعيداً وعاد مبللاً. فامتص الرجل اليائس فروه مرة ثانية. شكراً لله على أن ليروي أدرك الشاحنة هذا الصباح. طلب تاربلي من الكلب أن يذهب ثانية. فغاب ثم عاد وارتمى محتضناً بجسمه المبلل رأس سيده.

تذكر تاربلي عائلته. يا للظلم إن مات من غير أن يخلف سوى الديون! مد يده السليمة وكتب باصبعه في التراب: «أحب...» لكنه لم يقو على إكمال جملته. وفكر: أنا سعيد لأنك هنا يا ليروي.

[illegible]. قرابة الرابعة عصراً، بعد مرور ثماني ساعات على الحادث، سمع تاربلي هدير سيارة تسلك الطريق الترابية في محاذاة المرج. وفيما هو منبطح تناول قبعته القش ولوح بها من خلف ظهره.

كان جيري هوبس وزوجته كارول في طريقهما لتفقد ابنهما الذي كان يعمل على بعد بضعة كيلومترات من مرج تاربلي. لاحظت كارول الجرار. وحدق جيري فرأى تاربلي يلوح بقبعته. حاول جيري الوصول الى الجريح لكن ليروي اندفع عبر المرج ومنعه من الاقتراب محاولاً حماية سيده من الغريب.

لقد وهنت قوى تاربلي ولم يعد قادراً على مناداة كلبه. ولما ثبط عزم جيري صرخ: «سأعود بالنجدة.»

توجه الزوجان الى حقل جيم ستلزر، وصرخ جيري مشيراً الى المرج: «لقد أصيب أحدهم بمكروه، تعالوا بسرعة!»

عرف ليروي جيم ستلزر وابنه وسمح لهما بالمرور. وصرخ ديف ستلزر: «يا الهي، ماذا حدث يا جيم؟»

فـأجاب تـاربلي هـامساً: «اصـابتي بالغة. اني أموت.»

فنهره ديف بحزم: «أنت أقـوى من أن تموت الآن، سوف تنجو.»

اتصـل المنقذون بمـركـز الاسعـاف فاستدعيت مروحية من بـوكاتيلـو التي تبعـد ١٩٠ كيلومتـراً. فـوصلت بعيـد السادسة مساء. وللحال أدخل المسعف الطبي ابرتين وريديتين في ذراع تاربلي ورجله لمدِّه بسوائل تحول دون تعرضه لصدمة أو جفاف، ثم نقل الى المروحية.

وبعد رحلة استغرقت نصف ساعـة أدخل تاربـلي المستشفى وهو في حـال الخطر. ودهش الأطباء لبقائه حياً. فقد ثقبت مثانته وأصيب حـوضه بكسـور مضـاعفـة. وتحطمت رجلـه وقـدمـه اليسريـان وكتفه وذراعـه ويده اليمنى. استغرقت ست ساعات.

وبعد ثلاثة عشر يوماً، سبعة منها في وحدة «العناية الفائقة،» سمح له أطباؤه بمغـادرة المستشفى. فعاد الى مـزرعته والجبس يغلف ذراعيه وساقيه وقد أثبت له أنبوب يفرغ مثانته.

مكافأة ليروي. لقد غـادر تاربـلي المستشفى بـاكراً، ولكن كـان عليه أن يسدد فواتير بقيمة أربعين ألف دولار. اذذاك هب سكـان دوبوا للمسـاعـدة. وقدم حطاب ثمن حمولة شاحنتين من الخشب. وأعاد تاجر شيكاً بقيمة ٢٠٠ دولار كان تاربـلي أرسله اليـه. وحسم الجراحون جزءاً من فاتورة المستشفى. وجمع سكان البلدة خمسة آلاف دولار هي ريع مباراة روديو[٢] ومزاد علني.

يقول تاربلي: «ان المشاعـر المتدفقـة من العائلة والاصحاب أمر لا يصدق.» وهو قرر شكرهم باهداء مهر سباق كل سنة الى الولد الذي يفـوز في مسابقـة الارشاد الزراعي والاقتصاد المنزلي التي تجريها الولاية.

وهو لم ينسَ ليروي. يقول: «لولا الماء الذي أتاني به لكنت في عداد الأموات.» ويحظى ليروي اليوم بامتيازات جـديدة لم يتعودها. فبعدما كـان ممنوعـاً عليه دخول المنزل، أصبح يتمدد على أريكة في غرفة الجلوس.

لم يشفَ تاربلي كلياً. ولا يزال مهدداً بفقدان المزرعـة بسبب الاعباء المـادية التي ترتبت على الحادث. لكنه لا يشعر بـالمرارة. يقـول: «أنا أؤمن أن في كـل حدث، مهما يكن سيئاً، ايجابية ما. وقد ازددت الآن ادراكـاً لطيبـة النـاس المحيطين بي. وبعد دنوّي من الموت بت أشكر الرب على كل يوم جديد يمنحني اياه.»

بير أولا وإميلي دولير ■

(٢) الروديو مباراة بين رعاة البقر لعـرض براعتهم في ركوب الثيران (والجياد احياناً).

ان تراقب الطبيعة بدلاً من السيارة التي أمامك، تلك هي الطريقة لأن تغدو جزءاً من الاثنين.

ر.ر.



خبير قضائي في خطوط اليد يتقفى الوثائق والتواقيع المزيفة

أعضاء المحكمة البحرية حيارى. فالدعوى المرفوعة تتناول اصطدام ناقلة النفط العملاقة «إيسو شيتاغونغ» وباخرة الشحن «توماسيفريت.» وقد زعم أصحاب الناقلة أن باخرة الشحن أبحرت في مسار تصادمي. غير أن أصحاب الباخرة جزموا بأنها كانت تبحر الى الوراء، وأبرزوا سجل رحلتها برهاناً. وعلى السجل خُطّ بالقلم الرصاص الرقم «3» إشارة الى عدد صَفْرات الباخرة، والصفرات الثلاث علامة ابحارها الى الخلف.

وفيما عكفت هيئة المحكمة على معالجة الروايتين المتضاربتين، اذا بمحام موكل عن أصحاب الناقلة اسمه فيرغس باتسون ينسلّ خارجاً. هاتف المحامي ديريك ديفيس، وهو رجل ريفي يعدّ ثقة في خطوط اليد، طالباً منه أن يفحص سجل باخرة الشحن.

سلط ديفيس مصباحاً للأشعة فوق البنفسجية على الرقم «3». فظهرت الورقة خشنة حول الرقم. ثمة شيء ممحو، ولكن ما هو؟

ثم استعمل ديفيس الأشعة تحت الحمراء أملاً في العثور على أثر لقلم الرصاص الأصلي. ولم تبين الأشعة سوى نثار قطع من الرصاص. «هذا غير كافٍ لحل الرموز.» لذا تابع عمله باحثاً

عن تغضّنات أحدثها رأس القلم الرصاص على الصفحة التالية تحت تلك المشتبه فيها والمخطوط عليها الرقم «3». وبعدما غلف الصفحة بغشاء بلاستيكي خاص، ذرَّ عليها مسحوق الكربون الأسود، ثم أضاف خرزات زجاجية (وهي جزيئات متناهية في الصغر تشبه الغبار الذهبي). واذ هزّ الورقة برفق دحرجت الخرزات المسحوق إلى الانبعاجات والاثلام الدقيقة فباتت مرئية تحت المجهر.

غلى الدم في بدن ديفيس. ففي وسط الرقم «3» حدَّد ثغرة دقيقة جداً. لقد خط خفير الباخرة الرقم «2» (دلالة على الاستدارة الى الميسرة). ثم، بعد محو الجزء السفلي من الرقم، زاد أحدهم عقفة محولاً «2» الى «3» (أي الانطلاق الى الوراء).

أطلع ديفيس قاضي المحكمة البحرية على نتائج تحرّيه. فحكم القاضي ببراءة «ايسو شيتاغونغ.» وهو أمر نادر الحدوث في قانون البحرية المعروف بصرامته، وقد كُفي موكلوه مؤونة دفع نحو مليون جنيه استرليني (١،٦ مليون دولار).

ديفيس رجل شديد البأس في السادسة والخمسين من عمره. وهو شديد الضبط في أعماله، واثق بنفسه. وهو أفضل خبير قضائي في خطوط اليد في بريطانيا بأسرها. وقد مثل أمام المحكمة في أكثر من ١٠٠٠ قضية في ٥٠ بلداً، وأعطى آراءه في نحو ٤٠ الف مستند، من الشيكات الى رسائل الانتحار وشهادات المؤهلات المهنية.

وهو فصل في قضايا على الأبواب. واستدعي يوماً الى مركز للشرطة في شرق لندن ليفحص باب زنزانة حفر عليه تهديد بالقتل بمبرد للأظافير. وأكّد ديفيس عند معاينته أنه متطابق مع خط يد أحد المساجين. وفي تاريخ أقرب عهداً بعثت إليه إحدى الشركات جزءاً من صفيحة باب مرحاض، وطلبت منه معرفة الشخص الذي كتب على الصفيحة شتيمة لزوجة أحد الموظفين. فقابل ديفيس الكتابة بخطوط عدة موظفين، وعرف الفاعل.

يقول ديفيس: «قد يغير الكاتب انحدار كتابته، أو حجمها، أو ضغطه على الورقة، أو سرعته. لكن عادات الكتابة المستمرة طوال العمر هي أشبه ببصمات الأصابع. فهي تدل على صاحبها دوماً، وان تكن كتابات مجونية على الجدران.

وفي احدى المرات لاحظ ديفيس أن طالباً كان يترك فسحات ضيقة جداً بين الكلمات، فعرف أنه هو الذي أدى امتحاناً في المحاسبة نيابة عن آخر. وفي تعليقه: «معدّل الفسحة التي يتركها الطالب الأصيل حرفان ونصف حرف، أما الفسحات التي تركها هذا الطالب فبلغت نصف ذلك.»

وفي واقعة أخرى، أرسلت اليه شركة، غير راضية عن حجم فواتير الفنادق التي يقدمها أحد وكلائها المتجولين،

رزمة من الايصالات الموقعة. فلم يتوانَ عن كشف زيفها جميعاً، الا واحدة صحيحة. «أما في الباقيات فقد اختلق البائع أسماء فنادق وترويسات فواتير طبعها بيده وملأها بالتفاصيل. وأما تواقيع أمناء الصناديق، على رغم تمويهها لاظهار تباينها، فقد سطرتها يد واحدة هي يد الوكيل ذاته.»

أنوار كاشفة. يستخدم ديفيس ضوءًا خاصاً[1] شديد السطوع لإمعان النظر في الأوراق من دون احراقها، فهذه بيّنات لا ينبغي الإضرار بها. كما يستعمل مجهراً مقارناً[2] لفحص أصالة الوثائق المطبوعة.

وعندما أبرز رجل يرغب في الزواج ثانية شهادة تنص على وفاة زوجته السابقة التي افترسها نمر بنغالي، وضع ديفيس الشهادة تحت المجهر المقارن جنباً الى جنب مع شهادة وفاة أصلية من الهند. في العادة تظهر العين الفاحصة للمجهر البنود المتماثلة كأنها واحدة. أما في هذه الحال فقد ظهر تموّج: «كانت الشهادة مزورة ببراعة.»

ويثق ديفيس كل الثقة بوسائله العلمية. وليس لديه متسع من الوقت لدراسة الخط كتعبير عن شخصية الكاتب[3]، وهو يشبه ذلك بقراءة أوراق الشاي.

ويجهر روبرت رادلي وهو خبير قضائي آخر: «ان ثقة ديريك ديفيس بمهاراته تجعله لا يطيق آراء الآخرين.»

مرة أثناء قضية تزوير توقيع سُطر تحته خط، قال ديفيس أن ليس في مقدور أحد أن يرسم خطاً كامل الاستقامة ببطء شديد. وإذ تجرأ محامي الدفاع على التشكيك في قوله، تحداه ديفيس بأن يرسم خطاً كذلك. وأتى ديفيس بعدسة مكبِّرة لاثبات اضطراب الخط. وقال: «زاد المحامي ضغطه على القلم، ثم خففه، وجاءت النتيجة ذاتها.»

بعض المحامين يتجنبون مشادة ديفيس علانية. وقد كتب إليه محام في قضية تشهير: «بلغ الرعب مبلغه من قلوب خصومنا عند ذكر اسمك، فسويت الدعوى خارج المحكمة.»

معتدّ برأيه. في مهنةٍ مزاولوها معدودون يبرز ديريك ديفيس نسيج وحده. فهو درس على نفسه. ولم يرغب طوال حياته سوى أن يكون خبيراً في خطوط اليد.

وحين كان حدثاً كان يدرس كل ما يقع عليه عن الموضوع الذي يحب، بما فيه الرسوم العابثة، والكليشيهات (الصفائح) النحاسية المستخدمة في الطباعة، وعلم الخط. وجزع لدى علمه أن ليس ثمة مقرَّر دراسي لتدريب هاوٍ ناشيء على فكّ أحاجي الخطوط. وعملَ مراسلاً لصحيفة «ايدوير وديستريكت

(١) Fibre-optic light
(٢) Comparascope
(٣) Graphology

يوست» فتبينت له طريقة عمل المحاكم. وتمرس بمخاطبة المحامين ورجال الشرطة. يقول: «سمعت موظفين حكوميين من حملة الشهادات العملية يبرزون أدلة في قاعات المحاكم، وشعرت بأنهم لا يعرفون نصف ما درسته على نفسي.»

أدار ديفيس شركة طباعة خاصة مدة ثماني سنوات. ثم أسس شركة للآلات الكاتبة، فغدا في وسعه تحديد الفروق الدقيقة جداً بين حروف الطباعة والآلات الكاتبة على أنواعها. وهو يدأب على السهر حتى منتصف الليل، سعياً الى معرفة جنس المرء (ذكر أم أنثى) من خط يده. وهو فحص عينات من خطوط ٦٠٠ فتى و٦٠٠ فتاة، وأقر بعجزه، اذ لم يستطع أن يميز بينها على وجه قاطع. لكنه نشر بحثاً فنياً ذكر فيه أن كتابة الأعسر يمكن تمييزها عن كتابة الأيمن.

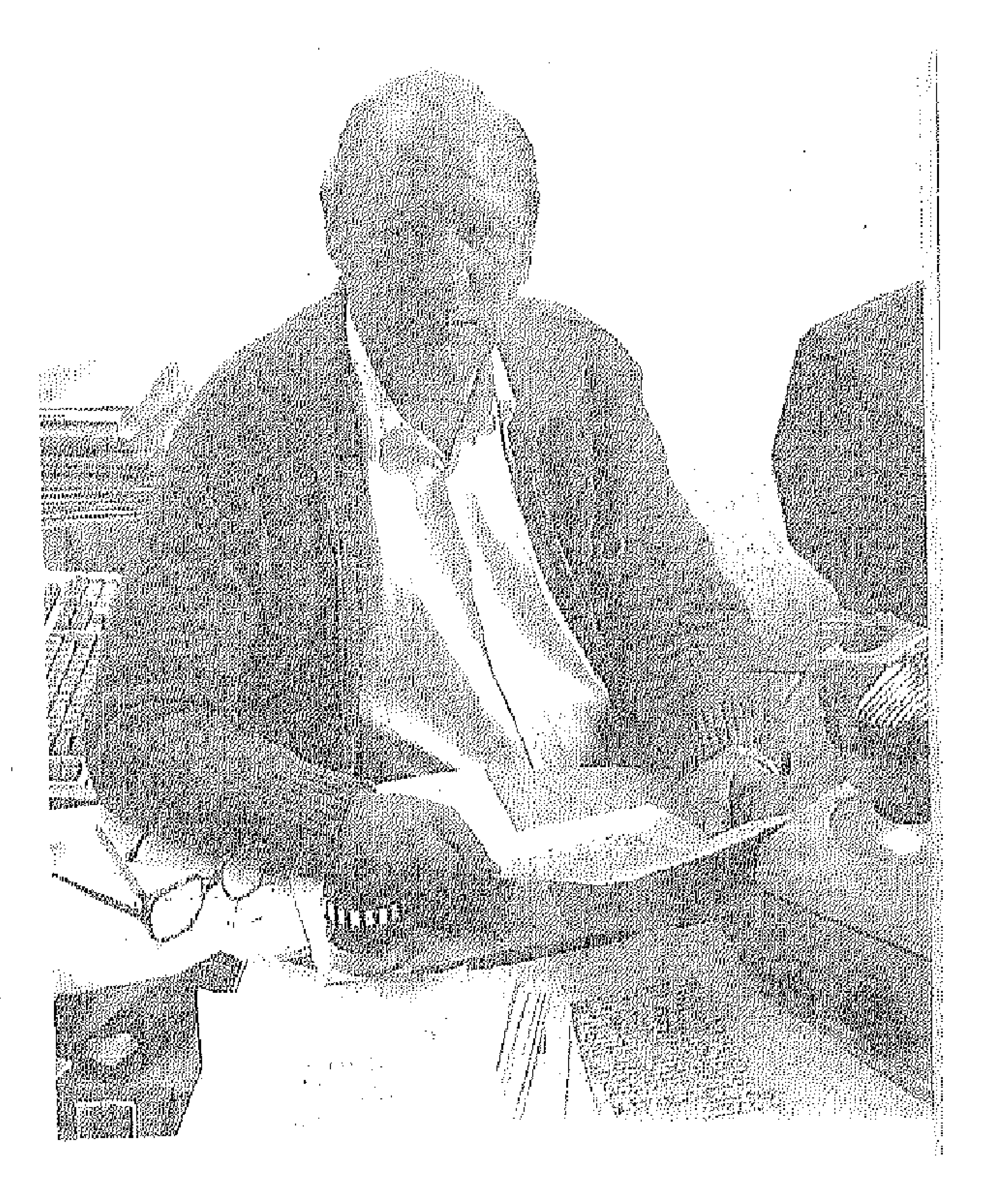
ووضعت نظرية ديفيس على محك التجربة في محكمة «أواد بايلي» التاريخية في لندن عام ١٩٦٩، اذ استدعي الى منصة الشهادة، فصعق الشرطة والمحامين باصراره على براءة المتهم لأنه أيمن، ولذا فهو «يجذب» قلمه، فيما علامات الضغط على الشيك الذي تدور حوله القضية تدل على أنه كتب بيد أعسر، فالقلم «يُدفع» في هذه الحال.

وطارت شهرة ديفيس بعد هذه الدعوى. واصطف الزبائن على بابه تحدوهم الآمال وتكتنفهم الريَب، سعياً الى الافادة من خبرته. سافر الى هونغ كونغ ولوس انجلس للشهادة في دعاوى عدة.

وكانت احدى محطات التلفزة وعدت المشاهدين بـ«كشف مثير» محوره أن برونو هاوتمان أُعدم ظلماً عام ١٩٣٦ بتهمتي خطف ابن الطيار الشهير تشارلز لندبرغ واعدامه. وعرضت المحطة على ديفيس مذكرات الابتزاز التي استعملت أدلّة على الجرم. يقول ديفيس: «لقد خيبت آمالهم، اذ كنت على يقين من أن تلك المذكرات قد سطرها هاوتمان بيده.»

وصيتان مريبتان. ديفيس اليوم رب أسرة وله ابنتان شابتان. وهو يكسب أكثر من ١٠٠ ألف جنيه (١٦٠ ألف دولار) سنوياً بدل أتعابه التي تدر عليه ٩٠ جنيهاً (١٤٥ دولاراً) في الساعة. ويعدّ نفسه محظوظاً لأدائه معظم عمله في مسقط رأسه بالقرب من هيميل همستيد. وتروي عنه زوجته فاليري: «انه يعمل ليلاً حتى ساعات الصباح الأولى فيما المحامون ينتظرونه على الهاتف لمعرفة رأيه.»

وتُعرض على ديفيس قضايا غش واحتيال كثيرة. وهي تراوح بين الألاعيب العابثة، كرجل أعمال يضيف الرقم «١» إلى يمين الرقم «٥» على ايصال نقدي بقيمة ٥ جنيهات ثمناً لوقود السيارة، وأعمال الاحتيال في الشركات الكبيرة



ديريك ديفيس يفحص أحد الخطوط مستعيناً بأحدث الوسائل العلمية.

العالمية. وقد استدعته شركة المحاسبة «برايس واترهاوس» للتدقيق بهدف التفتيش عن مطالب مزورة بأموال الصندوق الذي أنشىء لتعويض حملة السندات في روسيا ما قبل الثورة، كما طلب منه كشف احتيال مقدمي الطلبات الذين استعملوا كتابة يد مموهة للحصول على أكبر عدد من الحصص المجددة قانوناً لدى تحويل «مصلحة المطارات البريطانية» مؤسسة خاصة عام ١٩٨٧.

وفي سجل القضايا الذي يحتفظ به ديفيس مئات من دعاوى الوصايا، ومعظمها من قريب واحد يرتاب في صحة الوصية. ومن بينها القضية الآتية: توفي عجوز في الثمانين. وأقر معظم أقربائه بصحة توقيع وصية يترك بموجبها أمواله للزوجين اللذين يديران دار الرعاية حيث توفي. لكن زوجة حفيده وحدها شككت في التوقيع. فطلبت الأسرة من ديفيس، عبر محاميها، أن يبتّ في هذه المسألة.

قارن ديفيس توقيع العجوز على الوصية بنماذج أخرى من توقيعاته. فرأى أن توقيعه ذاك يفتقر الى الانسياب. فضلاً عن أنه عندما سلط الضوء الخاص جانبياً على ورقة الوصية، تبين له أن الظلال العميقة التي أحدثها قلم الحبر الجاف محفورة في أماكن غير معهودة في التواقيع الأخرى.

يقول ديفيس: «عندما ينقل شخص ما توقيعاً أصيلاً عن إحدى الوصايا، يزداد بطؤه كلما عمل بأناة أكثر. ونتيجة ذلك يتأثر انسياب الخط والضغط على القلم.» وفي نهاية المطاف صدر الحكم في القضية وآل ٨٠ في المئة من العقارات الموصى بها الى أسرة المرحوم.

أما الدعوى القضائية المفضلة لدى ديفيس فهي قضية المزارع ريتشارد باول من سافورد شاير، الذي قضى عن ٨٦ عاماً مخلفاً أملاكه لابن أخيه بيرسي. وادعى أربعة عشر من اقاربه أن الوصية مزورة، مستشهدين بـ «اضطرابات» في التوقيع.

PHOTO: MICHAEL TAYLOR

عكف ديفيس على دراسة ٥٠ شيكاً حررها ريتشارد وبعضها يرجع الى الثلاثينات من هذا القرن. يقول: «بطبيعة الحال، هناك تفاوت في ما بينها. فالمرء لا يخط توقيعاً متطابقاً مرتين. انها عملية سريعة ذات بعد شخصي.» ولكن تبين أن بعض الفروق استثنائي. وقد أذهل ديفيس شيكان سطرا في اليوم ذاته، خط أحدهما واضح ومتميز ومضبوط، وخط الآخر مرتعش وغير جازم. ثم عاودت التواقيع سيرتها الأولى في الشيكات اللاحقة.

وتكرر تعاقب الأحداث مرتين: تواقيع مضطربة تليها عودة تدريجية إلى خط ثابت كأنه منقوش على كليشيه نحاسية. وكان ديفيس يعرف أن المرض ينعكس في خط اليد. لذا طلب اثباتاً طبياً. واتضح أن ريتشارد أصيب بثلاث سكتات دماغية (فالج).

وخرج ديفيس باستنتاج وحيد معقول. فأقنع هيئة المحكمة بأن سكتات أخرى غير مدونة حدثت فعلاً، وأن ريتشارد ذيّل الوصية بتوقيعه وهو يغالب احداها. وآل الميراث الى ابن بيرسي طبقاً لما ذكر في الوصية.

ولفرد غريتوركس ■

طفل على الهاتف

يروي أحد الأصحاب أنه اتصل بزميله في العمل في منزله بعد ظهر يوم عطلة، فأجابه على الهاتف طفل، وكان الحوار الآتي:

«هل بابا في البيت؟»

ـ لا، هو في الخارج يمارس الرياضة.

«دعني، اذاً أكلّم ماما.»

ـ هي في الحمام.

«طيّب، اسمع. هل تستطيع ايصال رسالة إلى بابا عندما يعود؟»

ـ نعم.

«هل تستطيع الكتابة؟»

ـ كلا. ولكن أستطيع أن أرسم الحروف.

«حسناً. هلا اخذت قلماً؟»

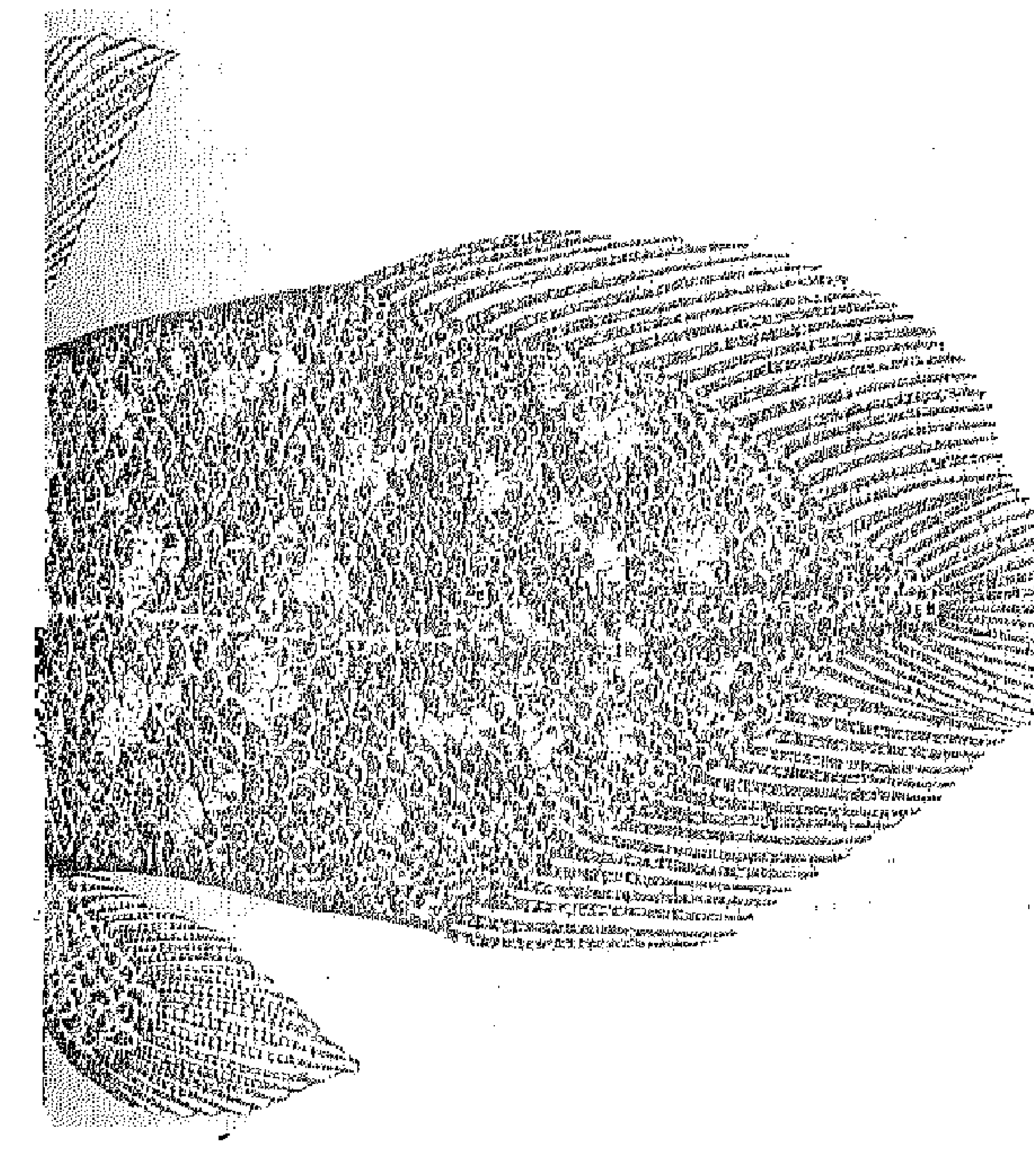
ـ انتظر... نعم.

«أنت جاهز الآن؟ سجِّلْ اسمي. ادعى سليم عبيد. هكذا يُهجَّأ: س ل ي م ع ب ي د. اخبر بابا أن السيد سليم عبيد اتصل به ويريد ان يكلمه فور عودته. والآن سأعطيك رقم هاتفي. سجله عندك. هل أنت جاهز؟»

ران صمت طويل، أعقبه صوت صغير كئيب سأل: «عمّي، كيف تكتب حرف السين؟»

ج.د.

سمكة عمرها ٧٠ مليون سنة



صادف الثاني والعشرون من ديسمبر (كانون الأول) ١٩٨٨ الذكرى الخمسين لأحد أبرز الاكتشافات العلمية في هذا القرن. ففي مثل هذا اليوم اكتُشفت قبالة الساحل الشرقي من رأس الرجاء الصالح أسماك الكولاكنث المسماة أيضاً «ذوات القوائم الأربع القديمة»[1] التي ساد الاعتقاد أنها انقرضت قبل ٧٠ مليون سنة. والمعروف اليوم أن هذه الأسماك تتميز بزعانف تتحرك على نحو نصف دائري ضمن ١٨٠ درجة ولها ما يشبه القوائم. ويُعتقد أن هذه الفئة من الأسماك[2] تتصل بحلقة مفقودة في السلّم ما بين الأسماك والحيوانات البرمائية.

وهنا القصة المدهشة لهذه «المتحجرات الحية».

بدأت القصة حين كان هندريك غوسن، وهو قبطان سفينة لصيد الأسماك في المياه العميقة، عائداً من جولة صيد عادية قبالة الشاطىء جنوب غرب إيست لندن في مقاطعة الكيب بجنوب افريقيا. فجأة راوده شعور أقنعه بأن بيمّم شطر مصب نهر شالومنا. وهناك طرح شبكة الصيد على مسافة خمسة كيلومترات من الشاطئ الى عمق ٧٢ متراً قرب حيد صخري مغمور بالمياه ينحدر ٣٥٠ متراً تحت سطح البحر. وما ان سُحبت الشبكا

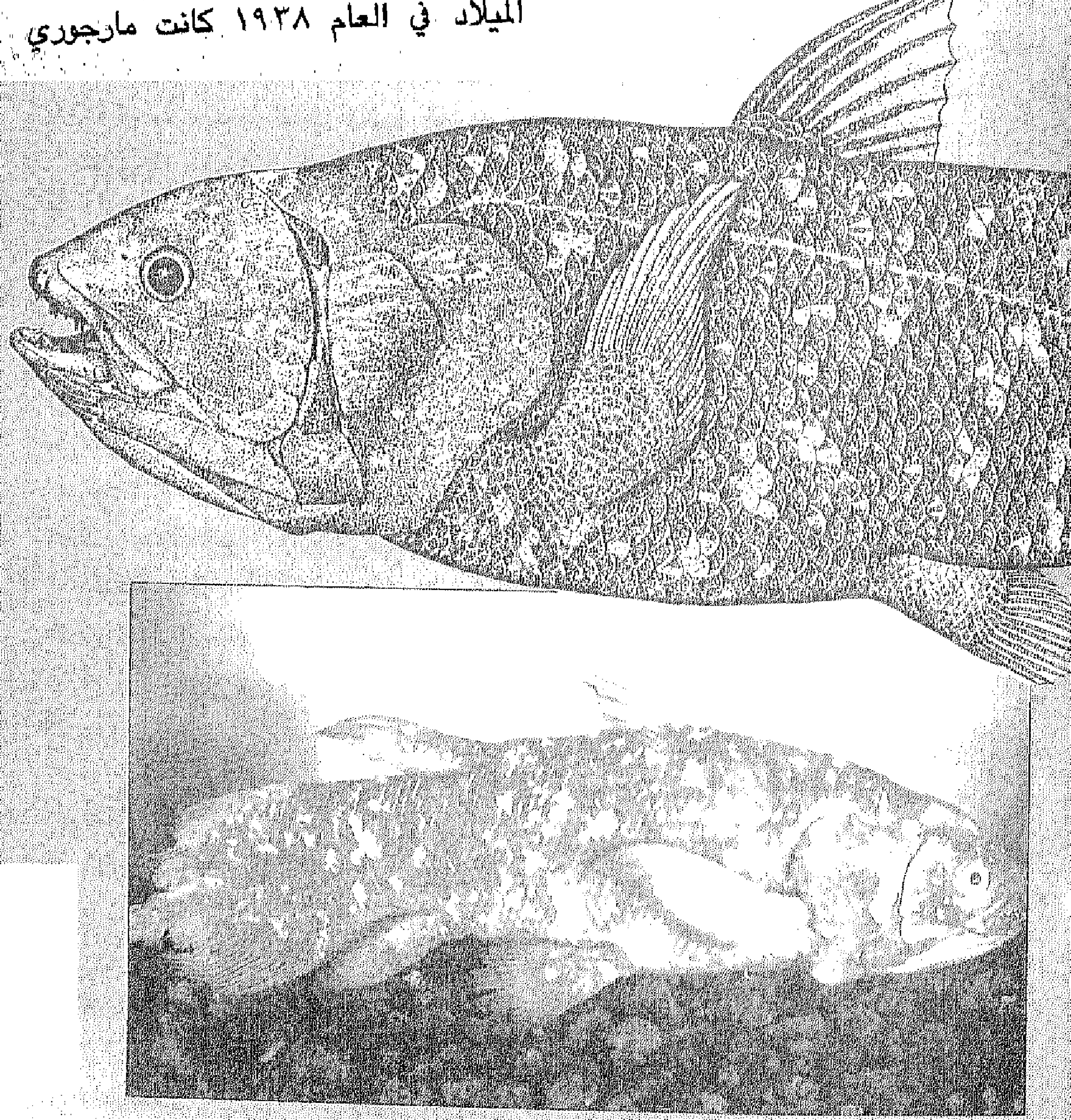
(١) Coelacanth or Old Fourlegs

(٢) Crossopterygii group

وأفرغ الصيد حتى اندلقت سمكة بلغ طولها متراً ونصف متر، تكسوها طبقة حرشفية سميكة. لقد أمضى غوسن معظم عمره يجوب البحار، لكنه لم ير يوماً مشهداً كهذا.

أدرك على الفور أن هذا النموذج من الأسماك قد يكون ذا قيمة علمية فريدة، خصوصاً بالنسبة الى صديقته مارجوري كورتني لاتيمر القيمة على متحف إيست لندن الحديث العهد. وكثيراً ما كانت مارجوري تزور أرصفة السفن وتبدي اهتماماً فائقاً بأجناس غير مألوفة من أسماك يلتقطها ربابنة سفن الصيد.

الى المتحف. قبل ثلاثة أيام من عيد الميلاد في العام ١٩٣٨ كانت مارجوري



سمكة كولاكنث تسبح على عمق ١٥٠ متراً قبالة ساحل غراند كومور

مستغرقة في العمل على متحجرة معروضة في المتحف، فتلقت مكالمة هاتفية أنبأتها أن سفينة غوسن «نارين» عادت بصيد ثمين. وللحال ركبت سيارة أجرة نقلتها بسرعة الى رصيف الميناء حيث طالعتها سمكة مدرَّعة ذات لون أزرق مخضر.

تقدم أحد الصيادين وأشار الى أن زعانف السمكة تشبه القوائم، وأنها كانت زرقاء زاهية عندما سُحبت من المياه، وأنها حاولت قضم أصابع القبطان بأسنانها الشبيهة بالأنياب. ووصفها بأنها «سحلية بحرية ضخمة.» فجال في فكر مارجوري أنها قد تكون نوعاً من الاسماك الرئوية، لكنها عادت وجزمت أنها نوع غير عادي يستحق الاهتمام.

كان يوماً حاراً، لذلك لاقت مارجوري صعوبة في اقناع سائق سيارة الأجرة بنقل سمكة تزن ٦٠ كيلوغراماً وتفوح رائحتها. وأخيراً وافق على نقلها في صندوق الأمتعة. وفور الوصول الى المتحف وضعت مارجوري رسماً تقريبياً للسمكة وأخذت قياساتها. ثم أرسلت الجيفة الحادة الرائحة الى مصبِّر المتحف الذي حنَّطها وثبَّتها على سناد. بعد ذلك وَجَّهتْ رسالة الى الرجل الأوحد الذي تعرف أنه يستطيع كشف هوية هذا النوع من الأسماك.

كان جايمس ليونارد بريلري سميث أستاذاً لمادة الكيمياء بجامعة رودس في غراهامستون بجنوب افريقيا. وُلد في غراف - رينت عام ١٧٩٧ وانخرط في الحرب العالمية الأولى في أفريقيا الشرقية حيث أصيب بالملاريا والزُحار والحمى المالطية. ولمَّا كان ضعيف البنية فقد رافقه السقم الصحي طوال حياته. وهو تعلَّق منذ نعومة أظفاره بهواية صيد الأسماك، وبناء على ارشادات طبيبه، كان يقضي معظم وقته في الهواء الطلق يحلل كل سمكة يلتقطها، حتى غدا في تلك الآونة واحداً من أهم علماء الأسماك في جنوب أفريقيا.

متحجرة حية. تسلَّم سميث رسالة مارجوري لاتيمر مرفقة برسم تقريبي، يوم ٣ يناير (كانون الثاني) في منزله الريفي على شاطىء لاغون كنيسنا. وحين تفحَّص الرسم، «شعرت كأن قنبلة انفجرت في دماغي،» كما ذكر لاحقاً في كتابه «أولد فورلغز: قصة الكولاكنث.» وأضاف: «لقد كان ما خطر لي محالاً منافياً للطبيعة والعقل حتى أن حسِّي السليم راح يؤنبني ويزدري بلاهتي.»

كتب سميث: «عذبتني الشكوك وكوتني الهواجس ورحت اتساءل: ماذا أنتفع اذا اندفعت وراء ظنِّي وجعلت من نفسي أضحوكة بين العلماء؟ خمسون مليون سنة! أمر لا يصدق أن تبقى أسماك الكولاكنث حية كل هذا الوقت ولا يدري الانسان المعاصر بوجودها.»[٣]

---

(٣) عندما اكتُشفت سمكة الكولاكنث الاولى كان ظن سميث انها انقرضت قبل ٥٠ مليون سنة. اما اليوم فيقدِّر العلماء انها انقرضت قبل ٧٠ مليون سنة.

وبعد مضي سبعة أسابيع توجه سميث وزوجته مارغريت الى إيست لندن، مباشرة الى المتحف فقيل لهما: «الآنسة لاتيمر في الخارج الآن.» ويتذكر سميث: «أرشدنا الناظر الى غرفة داخلية حيث وضعت... الكولاكنث! يا الهي! شعرت للوهلة الأولى كأن صاعقة أصابتني. وحين أفقت من ذهولي رأيت الحقيقة ماثلة أمامي بكل تفاصيلها: حرشفة فحرشفة، وعظمة فعظمة، وزعنفة فزعنفة. إنها الكولاكنث بلا ريب.»

وعاد الزوجان ومعهما «المتحجرة الحية» الى منزلهما في غراهامستون حيث أكب سميث على العمل. وراح يستيقظ في الثالثة من كل صباح ليشرِّح كل حرشفة وعظمة وزعنفة ويحللها بدقة متناهية. وأخيراً أتمَّ دراسته للسمكة في العام ١٩٣٩ وأعادها الى المتحف. غير أنه لم يكتفِ بما اكتشفه، فراح يدق أبواب المسؤولين محاولاً اقناعهم بتمويل رحلة للبحث عن أقرباء ذوات القوائم الاربعة، لأن وجود هؤلاء الاقرباء أمر لا يقبل الجدل. لكنه العام ١٩٣٩، «ومن يهتم بسمكة والقنابل تنهمر فوق الرؤوس؟»

جهود ضائعة. تعلَّمت مارغريت أن تشارك زوجها في شغفه. وخلال سنوات الحرب «مشط» الزوجان مئات الكيلومترات على امتداد ساحل جنوب أفريقيا وهما يبحثان عن أي خيط من معلومات حول أسماك كولاكنث أخرى. وألِفَ صيادو الاسماك منظر الرجل الهزيل الجادّ وهو يتنقل فوق الصخور والمنحدرات عارضاً عليهم رسماً لسمكة عجيبة وسائلاً إياهم بالحاح عن حصيلة صيدهم. لكنه لم يتوصل الى أي دليل، مما أقنعه بأن السمكة التي التُقطت في إيست لندن قد تكون انجرفت جنوباً مع تيار الموزمبيق الدافىء كغيرها من الاسماك الاستوائية.

وفي العام ١٩٤٥ حُلَّت مشكلة التمويل اذ كلِّف سميث تأليف كتاب عن الأسماك البحرية في جنوب أفريقيا، وحصل في السنة التالية على منحة من «مجلس الأبحاث العلمية والصناعية.» وعلى الأثر ترك سميث التعليم وباشر مع زوجته سلسلة من الرحلات جابا خلالها مناطق نائية في الموزمبيق وشواطىء أفريقيا الشرقية. وطبعا آلاف المنشورات بلغات ثلاث، عارضين جائزة مقدارها ١٠٠ جنيه استرليني (١٦٠ دولاراً) لكل من يلتقط سمكة كولاكنث أخرى، ووزعا المنشورات بكثافة على رجال القبائل والصيادين الذين تلقوها مشدوهين. في هذه الاثناء خاض الزوجان مياه الشواطىء وجمعا مئات النماذج من أسماك تبين لاحقاً أن ٢٠٠ نوع منها غير معروف[٤].

وفي ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٢ عاد الزوجان على متن الباخرة «دونوتار

(٤) هذه النماذج معروضة الآن في مجموعة «معهد ج.ل.ب. سميث لعلم الأسماك» في غراهامستون.

كاسل» من مومباسا الى جنوب افريقيا بعد رحلة استكشاف مضنية عبر شواطىء كينيا وجزيرتي بمبا والزنجيبار. لقد مرّت ١٤ سنة من المغامرات منذ إكتشاف السمكة الاولى في إيست لندن، ولم تثبط عزيمة سميث وزوجته في العثور على سمكة كولاكنث أخرى. لكن جهودهما لم تؤت ثماراً.

أستاذ مختلّ. رست الباخرة في دوربان صباح عيد الميلاد. وفيما كان سميث جالساً في الردهة تسلم برقية فضّها بلامبالاة. وما ان قرأها حتى هب واقفاً وقد أصابه الذهول. جاء في الرسالة: «عندي نموذج كولاكنث طوله ٥ أقدام محفوظ هنا في محلول الفورمالين، وقد نفق بتاريخ ٢٠ من الشهر الجاري. ماذا ترتأي؟ مصدر البرقية جزر القمر وموقّعها إريك هنت، وهو ربان مركب شراعي التقاه الزوجان في الزنجيبار وصادقاه. وهو حار آنذاك في أمر الزوجين اللذين استحوذ على عقليهما موضوع الكولاكنث. لكنه أخذ رزمة من المنشورات التي تعد بمكافأة، ووزعها بمساعدة الحاكم الفرنسي في أنحاء الجزر البدائية المتفرقة.

عرف سكان الجزر السمكة باسم «غومبيسا» وكانوا يصطادونها من وقت الى آخر. وعندما التقط أحد الصيادين سمكة من هذا النوع في مياه دوموني في جزيرة جوان، أخذها الى سوق موتسامودو في الناحية الأخرى من الجزيرة. واذ همَّ بتقطيعها تدخل أستاذ محلي قائلاً ان السمكة تشبه تلك الظاهرة في الصورة. فإن صح ذلك فهي تساوي ما يعادل ٥٠ ألف فرنك محلي، وهو مبلغ ضخم في تلك الأنحاء.

ولحسن الحظ كان مركب هنت الشراعي راسياً في موتسامودو. فحدد نوع السمكة على الفور ووضعها في صندوق معدني مستعملاً ما تيسر من مواد حافظة، ثم أبحر الى أقرب مركز لارسال البرقيات.

أبحر سميث على متن «دونوتار كاسل» وهو يفكر كيف يصل بسرعة الى جزر القمر لتسلم سمكته «القابعة في أسوأ مكان في العالم حفظاً للسمك النافق.» وأدرك أنه يحتاج الى طائرة حكومية توصله الى مبتغاه قبل فوات الأوان.

حاول سميث مراجعة المسؤولين الحكوميين، لكنه وجد صعوبة في ذلك لانصراف الناس الى التحضير لعيد الميلاد. وأخيراً ساعده أحد الأصدقاء على الاتصال هاتفياً بالمنزل الريفي لرئيس الوزراء آنذاك، مالان، حيث طالعه صوت الزوجة التي أنبأته أن الرئيس نائم ولا يمكن إزعاجه.

يقول سميث: «شعرت اذذاك بأعنف انحطاط في حياتي.» وبعد دقائق خالها دهراً رن جرس الهاتف، وكان على الخط الآخر رئيس الوزراء الذي سأله عن مطلبه. فأخبره سميث القصة... باللغة الافريقانية. أصغى ميلان الى حديثه



القبطان إريك هنت
وج.ل.ب. سميث
وافراد طاقم الطائرة
في جزر القمر
مع «جائزتهم».

بود ظاهر، ثم قال لسميث المشدوه انه سيضع طائرة بتصرفه في اليوم التالي.

غير أن استكمال الاجراءات الرسمية لتأمين طائرة تابعة لسلاح الجو في دولة جنوب افريقيا، مع طاقمها، استغرق ٣٦ ساعة. وحين تأمن كل ذلك أبدى الرجال الستة الذين ضمهم الطاقم امتعاضهم من الأوامر التي تلقوها بنقل «الاستاذ المختلّ» الى جزيرة منسية في أرض غريبة من أجل احضار سمكة نافقة.

برهان قاطع. حطّت الطائرة في جزيرة بامنزي حيث رسا قارب هنت. ويتذكر سميث: «عندما فتح باب الطائرة رأيت وجه هنت من خلال نسمة هواء ساخن. وللحظة خانتني الألفاظ، ثم سألته بصوت متحشرج: أين السمكة؟ فأجاب: لا تقلق، انها الكولاكنث من دون ريب.»

هرع سميث الى الرصيف حيث أزاح هنت لفافة القطن عن السمكة. ويتذكر سميث: «حقاً، كانت تلك كولاكنث. وفيما رحت أمسد بدنها بحنان انهمرت دموعي على يدي وعرفت أني أبكي... من دون خجل.» لقد كانت سمكة الكولاكنث برهاناً قاطعاً يدحض مزاعم النقاد من زملائه العلماء ويؤكد صحة اندفاعه المحموم الى هذا الهدف.

وكان بلاو قائد طاقم الطائرة متلهفاً للرحيل، تماماً كسميث، إتقاء للمضاعفات السياسية والديبلوماسية التي قد تنشأ عن حصول جنوب أفريقيا على هذا النموذج العلمي القيم من مستعمرة فرنسية. وأقلع بلاو بطائرته في مناورة جوية رائعة وسط رياح عاصفة. وحطت الطائرة في دوربان بعيد الثامنة مساء ٢٨ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٥٢.

واستجابة لدعوة من اذاعة جنوب

أفريقيا أجرى سميث مقابلة شرح فيها بحماسة مراحل بحثه المضني ورحلته الصعبة الى جزر القمر، مما استحوذ على اهتمام الصحافيين في أنحاء العالم. وكان اكتشافه العلمي الرائع، وإن لم يدرك كل نواحيه في ذلك الحين، مساهمة جلى ليس فقط من الناحية العلمية بل في اهتمامات الانسان بالبيئة وبمصيره المرتبط عضوياً بجميع الكائنات الحية.

اجراءات حماية. من المؤسف حقاً أن سميث وزوجته لم يعيشا ليحتفلا بالذكرى الخمسين لاكتشافهما غير أن حملة مشعلهما في «معهد ج.ل.ب. سميث لعلم الأسماك» بجامعة رودس ما زالوا منهمكين في دراسة وحماية بيئة الكولاكنث في جزر القمر.

وفي مارس (آذار) ١٩٨٧ ركب الاستاذ هانس فريك وفريقه من «معهد ماكس بلانك» في ألمانيا الغربية غواصة علمية صغيرة للوصول الى موطن الكولاكنث في المياه العميقة المحيطة بجزيرة غراند كومور البركانية. وهناك صوروا للمرة الأولى شريطاً عن أسماك الكولاكنث وهي تسبح في محيطها الطبيعي. وشاهدوها تقف على رؤوسها وتسبح على ظهورها والى الوراء و«تمشي» على قاع المحيط بقوائمها الأربع.

والحاجة ماسة اليوم الى حماية هذه «المتحجرات الحية.» فبعد نشر اكتشافات سميث الرائعة تدفقت الطلبات لنماذج من أسماك الكولاكنث من المتاحف والمؤسسات العلمية في أنحاء العالم. وتُعرض مكافآت سخية على صيادي الأسماك في جزر القمر لتأمين نماذج، وهذا ما يعرض الكولاكنث لخطر الانقراض، خصوصاً لأنها لا تستطيع العيش خارج المياه العميقة لأكثر من ساعات قليلة. لذلك شكل «مجلس المحافظة على الكولاكنث» ومهمته التنسيق بين متطلبات الأبحاث العلمية واجراءات الحماية.

ويبقى السؤال: هل انجرفت تلك الكولاكنث الاولى حقاً من جزر القمر تائهة في تيارات بحرية متلوِّية؟ أم ان «ذوات القوائم القديمة» لا تزال تعيش قبالة ساحل جنوب افريقيا؟

كريستوفر مونيون ■

«نوبل» رجعي

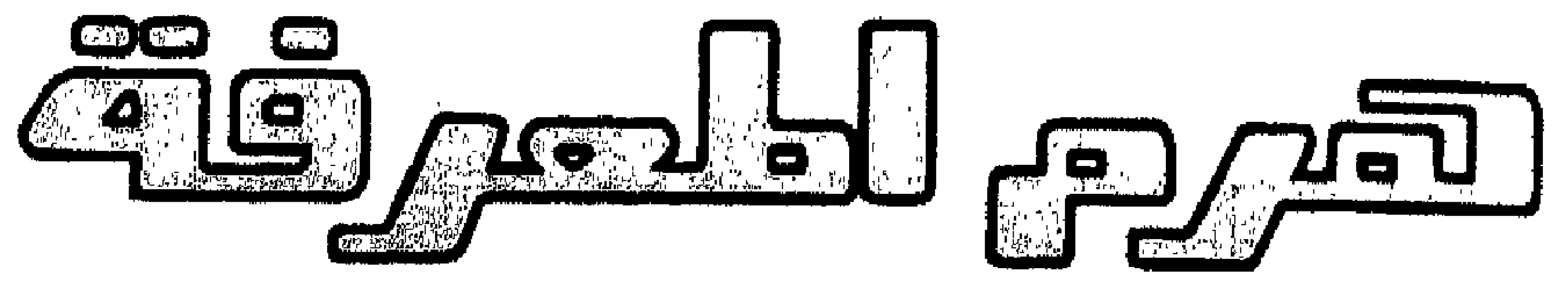
كان استاذ في علم الاقتصاد يروي للصف أن أحد أساتذته السابقين، روبرت م. سولو، منح عام ١٩٨٧ جائزة نوبل في الاقتصاد عن ابحاث كتبها في أوائل الخمسينات.

فسأله طالب: «لماذا لم يُعترف له الا اخيراً بانجازات حققها قبل وقت بعيد؟»

وقبل أن يتسنى للاستاذ أن يجيب أبدى أحد الطلاب رأيه: «يبدو أن مؤلفاته كانت صعبة الفهم!»

د.ك.

التحدي في الثقافة والمعلومات



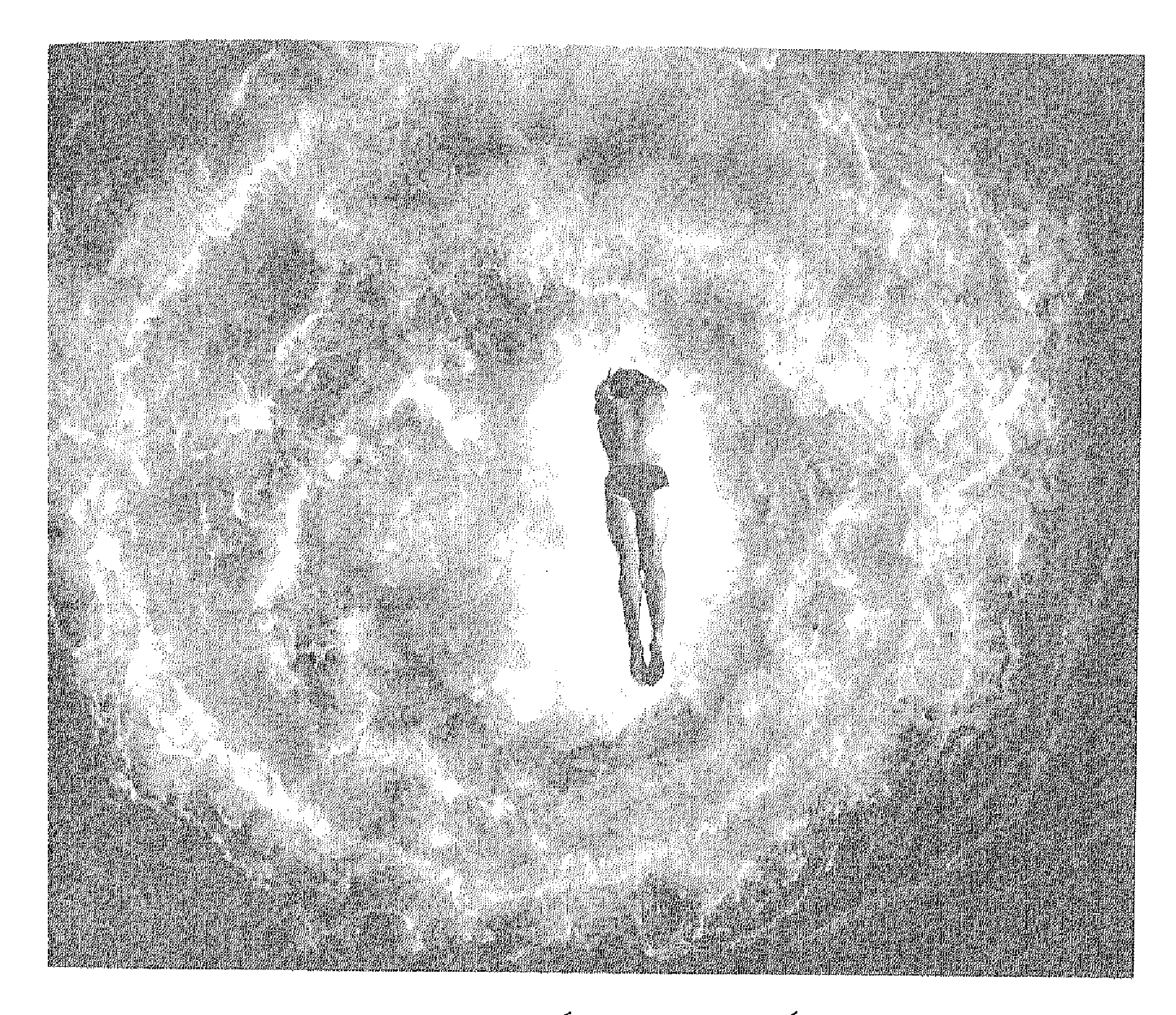
لعبة عربية تثقيفية مشوقة

م المعرفة: صممت وانتجت في لبنان
رم المعرفة: اول لعبة معرفة (ثقافة عامة في اللغة العربية)
رم المعرفة: لعبة من التي لها رواج كبير في العالم
رم المعرفة: لمن اراد توسيع معلوماته في كل الميادين والحقول
رم المعرفة: طريقة جديدة في الترفيه والتسلية
رم المعرفة: لعبة تسلية للشباب والعائلة كلها
رم المعرفة: من سن الخامسة عشرة وما فوق
رم المعرفة: ٣٦٠٠ سؤال و٣٦٠٠ جواب
رم المعرفة: ستة مواضيع مختلفة

رياضة
تاريخ
فنون
جغرافيا
ادب
علوم

هرم المعرفة: تجدونها في جميع محلات الالعاب والمكتبات
انتاج: شركة انتاج وتسويق الالعاب التثقيفية ش.م.م. PROMEGA S.A.R.L.
ت: ٠٩) ٩٣٦٧٧٠) - تلكس: LE ٤٥٤٠٠ AJAKKA
Playdum ... ت: ٤١٤٤٢٧

لقطات رياضيّة



نشر حديثاً كتاب ضم صوراً مأخوذة بعدسة ايمون ماكابي وهو مصور مرموق وحائز عدة جوائز.

قدَّم للكتاب الصحافي الرياضي سايمن بارنز، وجاء في مقدمته: «يحب ماكابي أن يبقى بعيداً عن الأشياء التي يصورها، ويستعمل لهذا الغرض عدسة تشبه مدفع البازوكا.



درّاجون،
الألعاب الأولمبية
لوس انجلس ١٩٨٤.

كنت منحنياً
على حافة الحلبة
اراقب الفرق المتبارية.
كانت عيون بعض
الدراجين مغمضة،
بعضهم أبقى رأسه مطأطأً.
إن هذا الدراج كان من
الناس المحبب تصويرهم
لما يطفح به من حيوية.
وخوذته تضفي على
الصورة قوة.

لس، كريستال بالاس،
١٠ (اقصى اليسار)
دفعة من الهواء
مضغوط بهدف «توسيد»
سطح الماء للغطاس.
لقطة رائعة للتصوير،
لا تدوم الا ثانية واحد،
ل الهواء بعدها
ات بشعة. والمشكلة
ن في اظهار الغطاس
يغطس فعلا.
لكن اريد ان يبدو ضخم
بنية، فتسلقت المنصة
تعلو ١٠ أمتار وتطلعت.
الناس من فوق كتفي.

فهو يريد البقاء خفياً، كذبابة على حائط، فلا تفوته أدنى التفاصيل. وتتميز صوره الرياضية بمظهر رسمي، وخلفية شبه معدومة، ومحتوى بشري عظيم دافىء، وعنصر دعابة غريب. وهو يرى على الدوام لقطات لا يراها سواه.»

هنا عيّنة من فضلى لقطات ماكابي مرفقة بتعليقاته الشخصية حول طريقة تصويرها.

ايمون ماكابي



تورفيل ودين، الألعاب الأولمبية في سارايفو، ١٩٨٥.

هذه الرياضية هي حلم كل مصور: فأنت تستطيع مشاهدة التمارين فتعرف تماماً ماذا ينوي المتباريان تأديته. والمشكلة تكمن في التقاط الوجهين معاً.

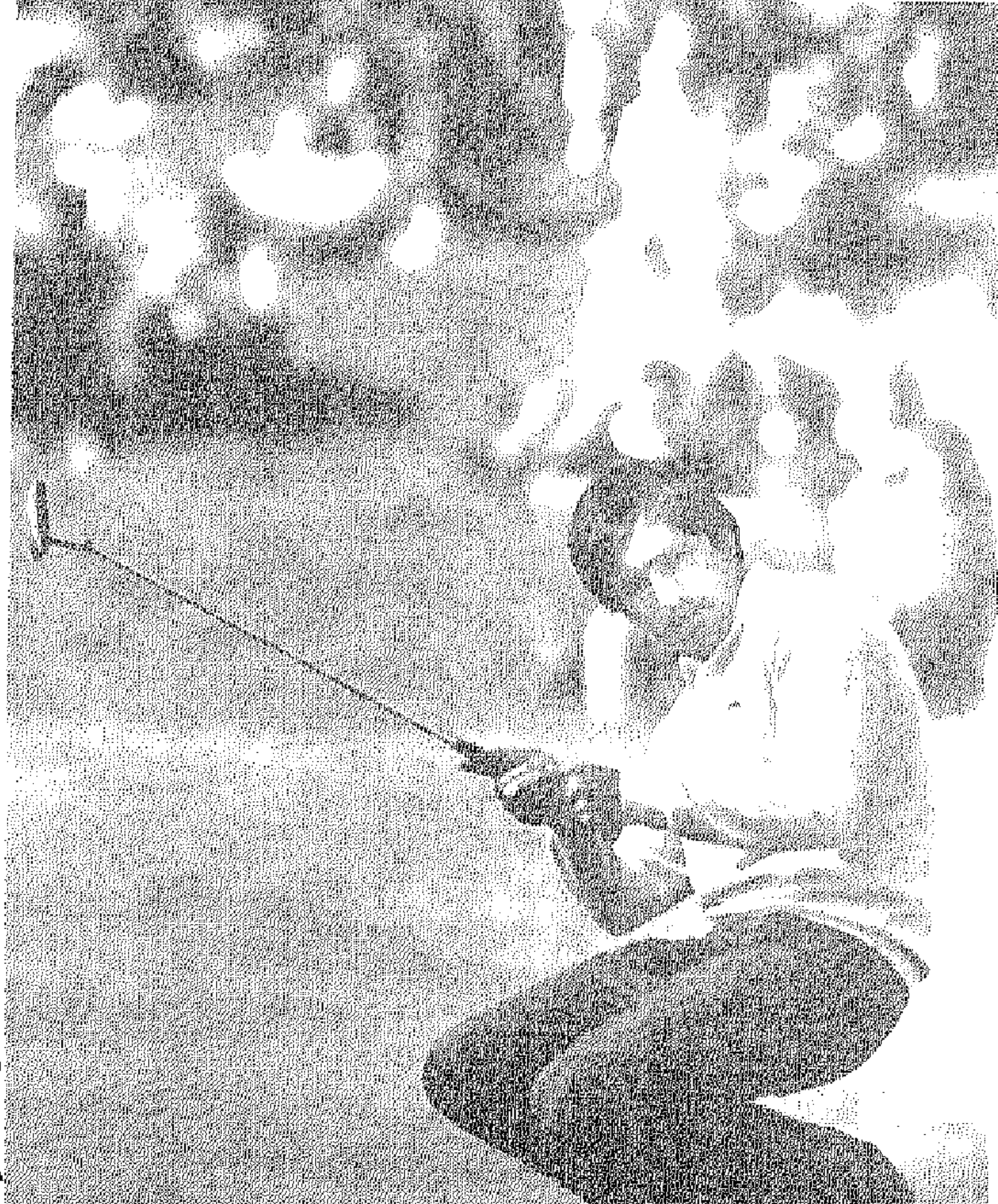
وقد لاحظت حركة معينة حينما يصبحان في مواجهة مشتركة بهده الإيماءة الرومنطيقية الرائعة. الصعوبة هنا في النور الإضافي الذي يعكسه الجليد. دع الجليد جانباً. واهتم بوقع الضوء على الوجهين.

سباق الزوارق في هنلي ببريطانيا، ١٩٨٦.

هنلي دائماً غريبة بالنسبة إلي. فمعظم الناس هناك لا يهتمون بالتجذيف مطلقاً. هؤلاء المجذفون يستميتون للفوز في السباق في حين ترى الجميع يشرب المرطبات. ان تعب المجذفين هو الجانب الأكثر انسانية في الحدث كله.



داني توماس
في مباراة «توتنهام هوتسبور»
ضد «ريال مدريد»، ١٩٨٥.
يظهر توماس، من فريق توتنهام،
وهو يسقط في أثناء اعتراضه.
ويظهر على وجهه تعبير مدهش،
كأنه يبتسم.
والواقع أنه يتأوه من الألم نتيجة
خطأ (فاول) ارتكب ضده.



سيف باليستروس في دورة
ساندويتش المفتوحة، ١٩٨٥.
انه هدية الى المصورين:
رجل عاطفي في رياضة لا يظهر فيها
اللاعبون كثيراً من عواطفهم.
ومما سهل الأمور لون شعره الأسود،
اذ ان كثيراً من صور لعبة الغولف
تلتقط مواجهة للسماء.



جيمي كونورز في مباراة وايفان ليندل، ويمبلدون، ١٩٨٤

أنا مسرور بهذه اللقطة. يمكنك تصوير ليندل طوال النهار من دون أن تحصل على لقطة واحدة جيدة. محظوظ هو من يقدر على تصوير ليندل وهو منفعل كما في هذه الصورة، وهي الأخيرة في فيلم من ٣٦ صورة. ولو توافرت صورة اضافية لأخذت لقطة يظهر فيها المضرب على رأس ليندل، ولربما كانت تلك الصورة أجمل.

متزلجة على الماء، سوراي، ١٩٨١.

لاحظتُ أن هذه المتبارية كانت تظهر أروع التعابير وهي تقفز. فهي بدت كأنها على وشك الطيران الى صندوق شاحنة. بعدما شاهدت هذا المنظر لم يبق علي سوى الانتقال الى مكان لا تظهر فيه شجرة أو أعمدة هاتف تشوه خلفية الصورة، حيث انتظرت

دائرة المعارف

كلمات الدائرة في هذا العدد تتضمن معاني الخفة. وقد وضع أمام كل كلمة أربعة معانٍ، واحد منها صحيح. والمطلوب من القارىء ان يختار المعنى الذي يعتبره مناسباً، ثم يقلب الصفحة ليحصل على الأجوبة ويقيس مستواه.

١. **هَباء**: فراغ - غبار - ريح خفيفة - عطية.
٢. **نضْح**: رشح - نضارة - كلام قليل - لطف.
٣. **كرى**: دبيب النمل - كرم - نعاس - مشي.
٤. **أملود**: عنق - سوار - أذن - غصن لين.
٥. **أناة**: لحظة - تمهُّل - أنين - ساقية.
٦. **نفحة**: هبَّة - ضمَّة - خصلة شعر - ضربة.
٧. **رشْف**: كتابة - ايماء - مصّ وشرب - رمش.
٨. **هفّاف**: نظيف - عطِر - سريع - رقيق شفاف.
٩. **رَهْو**: رمل الصحراء - تلة - سير سهل - رغوة.
١٠. **بُلجة**: أنف - أمل - نقاوة ما بين الحاجبين - عين.
١١. **شرارة**: نظرة - ما يتطاير من النار - ذكاء - شعاع.
١٢. **خَوْد**: شابة ناعمة - وجه - زهرة - خوف.
١٣. **زَغَب**: برعم - قشور - ظفر - صغار الشعر.
١٤. **دماثة**: بياض - طفولة - براءة - سهولة الاخلاق.
١٥. **رقراق**: متقطر - متلألىء - رقيق - ضعيف.
١٦. **أنملة**: رأس الاصبع - لحظة - خطوة - حشرة صغيرة.
١٧. **خَفَر**: حسن - اختيال - حياء - حمرة خفيفة.
١٨. **تؤدة**: دودة - هدوء - ود - رزانة وتأنٍّ.
١٩. **وثير**: منثور - ليِّن - بسيط - واسع.
٢٠. **لمحة**: نظرة عاجلة - لمعة - فكرة - مسحة.
٢١. **قشعريرة**: ارتعاد - شعرة رفيعة - خشية - قشة.
٢٢. **لثمة**: شفة - نقاب - قبلة - بسمة خفية.
٢٣. **أسيل**: سائل - أملس - ناحل - رطب.
٢٤. **طَلّ**: نسمة - طفل - فراشة - ندى.
٢٥. **هينمة**: صوت خفي - حلم - هناء - نوم خفيف.

الأجوبة الصحيحة

١. **الهَباء**: الغبار. أيضاً: دقائق التراب، والقليلو العقول من الناس.
٢. **النضح**: الرشح، يقال «نَضَح الاناء.» والنضح أيضاً رشاش الماء ونحوه، وما كان رقيقاً كالماء.
٣. **الكرى**: النعاس. الوَسَن: ثقلة النوم.
٤. **الإملود**: الناعم اللين من الاغصان أو الناس. يقال «شاب أملود وشبان أماليد.»
٥. **الأناة**: التمهل والانتظار. أيضاً: الوقار والحِلم.
٦. **نفحة طيب**: رائحته. نفحة الريح: هبَّة منها. والنفحة العطيَّة.
٧. **رشفَ الماءَ رشفاً**: مصه بشفتيه. رشف الاناء: شرب كل ما فيه.
٨. **الهَفّاف من الثياب**: الرقيق الشفّاف، ومن الاجنحة: الخفيف للطيران.
٩. **الرَهْو**: السير السهل. يقال «جاءت الخيل رهواً.» والرهو أيضاً السير السريع.
١٠. **البُلجة**: تباعد ونقاوة ما بين الحاجبين. الابلج: المفترق الحاجبين.
١١. **الشرارة**: ما يتطاير من النار.
١٢. **الخَوْد**: المرأة الحسنة الخَلق الشابة الناعمة.
١٣. **الزَغَب**: صغار الشعر أو الريش.
١٤. **الدماثة**: سهولة الاخلاق. مكان دمث: سهل ليِّن.
١٥. **الرقراق**: المتلألئ. الدمع الرقراق: الذي يدور في العين ولا يسيل.
١٦. **الانملة**: رأس الاصبع. وقيل أيضاً «البنان.»
١٧. **الخَفَر**: الحياء.
١٨. **التُؤَدة**: الرزانة والتأني. يقال «مشى مشياً وئيداً» أي على تؤدة.
١٩. **فراش وثير**: وطيء ليِّن.
٢٠. **اللمحة**: النظرة الخفيفة المختلَسة العاجلة.
٢١. **القشعريرة**: الارتعاد، وانتصاب الشعر من فزع أو برد.
٢٢. **اللثمة**: القبلة.
٢٣. **خد أسيل**: أملس. الأسَلة: رأس اللسان.
٢٤. **الطَلّ**: الندى. أيضاً: المطر الضعيف.
٢٥. **الهَيْنمة**: الصوت الخفي.

المستوى

٢١ ـ ٢٥: ممتاز
١٤ ـ ٢٠: جيد جداً
٩ ـ ١٣: مقبول



«قالت لي امي: يا بني، انا لا اطيق الانهزامي»

جُذور الطمُوح

أمي، الغائبة عن هذه الدنيا والسارحة أبداً في خيالي، أيقظتني ذات صباح قبل طلوع النهار وقالت لي: «اني لا أطيق الانهزامي.»

سمعتها تردد ذلك القول طوال حياتي. وأرقد الآن في السرير مستيقظاً في العتمة، فأشعر بحيويتها الفوارة تواجه كسلي الذي يحضني على النوم بدلاً من معاركة اليوم الجديد.

أعترض في صمت: لست ولداً. لقد غدوت رجلاً ذا شأن. ويحق لي أن أغفو.

«راصل، أنت بلا روح مبادرة، كنتوء على جذع شجرة.»

لقد طاردتني بصيحات الوغى هذه مذ كنت صبياً ارتدي سروالاً قصيراً.

«اصنع من ذاتك شيئاً ذا بال.»

«لا تكن انهزامياً.»

«ليكن لديك قليل من الطموح.»

الرجل المتمدن القابع داخل نفسي يهزأ بالمادية والساعين الى النجاح. فهو قرأ أقوال الفلاسفة والنقدة الاجتماعيين. وفي ظنه أن السوقية هي صفة من يمضي حياته جرياً وراء المال والسلطة وذيوع الصيت، وأن...

«تتصرف أحياناً كأنك لا تستحق البارود اللازم لتفجيرك.»

[illegible]. غـدت حيـاة أمي صعبة بعد وفاة أبيها من دون أن يخلف شيئاً سوى الديون. لقد خسرت الاسرة بيتهـا، وأصبح الأولاد في شتـات. أما جدتي المصابة بمرض مميت هو السل الـرئوي، فقـد غرقت في كـآبة يـائسة ووضعت في مصـح. واضطرت أمي الى ترك الجامعة والبحث عن عمل.

وتزوجت أمي. وبعد خمس سنـوات أنجبت خلالها ثلاثة أطفال توفي أبي عام ١٩٣٠ تاركاً اياها مـدقعة. ولـما كانت عاجزة عن اعالة ثلاثة أطفال فقد تكفل عمي طوم وزوجته غولدي بتربية أودري الصغـرى ولها من العمـر عشرة أشهر فقط. وكان العم طوم ذا وظيفة جيدة في مصلحة السكة الحديد ويمكنه أن يؤمن لأودري عيشاً رغيداً.

اصطحبتنـي أمـي مـع أختـي الى مسكن أخيهـا آلن، وهو مـلاذ العائلـة لطيب نفسـه. وفي نهايـة المطاف وقعت على وظيفة في مصبغة بعشرة دولارات في الأسبوع.

لو اني شببت لأصبح رئيساً للبلاد أو رجل أعمال ثرياً، لصادف ذلك هوىً في نفس أمي. لكنها بمقدار ما أحبتني لم تخـادع ذاتهـا. لقـد أدركت قبـل تخرجي في المدرسـة الابتدائيـة اني لا أملك موهبة جمع المال أو الحظوة بمحبة الجماهير. بعد ذلك أخذت تدفعني برفق للتعاطي مع الكلمات.

الكلمات تجري في دمـاء أسرة أمي. ولكـأن هناك مـورِّثـاً للكلمـة يسري في العائلة تحدراً من جدها لأمها. فقد كان معلمـاً في مدرسـة، وابنته لالي تقـرض الشعر، وابنه تشـارلي مراسـل صحافي معتمـد في نيويـورك لجريـدة «هيرالـد» الصادرة في بالتيمور.

ويبدو أن الكلمات كانت عند منقلب هذا القرن متنفساً في الجنوب الامريكي الـذي أفقـرتـه الحـرب الاهليـة (١٨٦١ـ١٨٦٥)

والدليل الساطع على سريان الكلمات في العائلة هو ابن عم أمي ادوين. اذ انـه عمل مـديـر تحـريـر في صحيفـة «نيويورك تايمز.» وجـاب أوروبا كلهـا، ضارباً المثل بأن الكلمات تصطحبك إلى أمـاكن بديعـة تنأى بـك عن مـوطنـك وتجعل قريبك يفغر فمه تعجباً وحسداً. لقد دأبت أمي على التمثل بادوين لبيان ما يستطيع المرء بلوغـه من دون ملَكَة فذة.

قالت لي أمي كرّة تلو كرّة: «ما كان ادوين جايمس أنبه من أي إنسان آخر. انظر أين وصل اليوم.» فكبرت وفي ظني أن ادوين جايمس هذا غبي بليد ابتسم لـه الحظ. ولعـل هـذا هـو شعـورهـا الحقيقي تجـاهه، لكنهـا كانت تقصـد شيئاً آخر مكنوناً. وكأني بها تقول أن ليس من الضروري أن أكون ألمعياً كي أبلغ مبلغ إدوين، وأن السبيل إلى القمة هو أن أعمل وأعمل وأعمل.

واذ لمست أمي فيَّ مـوهبة الكتـابة، شرعت في تنميتهـا. وعلى رغم الإمـلاق وقعَتْ عقد شراء أحصل بمـوجبه عـلى

جزء من «عيون الأدب في العالم»[1] كل شهر في مقابل ٣٩ سنتاً للكتاب الواحد.

كنت أُجلّ هؤلاء الكتّاب العظام، غير أني استمتعت بقراءة الصحف. كنت التهم كل كلمة عن الجرائم الفظيعة والحوادث المريعة والمجازر البشعة التي ترتكب في الحروب البعيدة. وذهبت بلبي روايات عن القتلة الذين أُعدموا بالكرسي الكهربائي، وتتبعت عن كثب آخر وجبات الطعام التي طلبها المحكومون بالاعدام.

نحو العُلى. عام ١٩٤٧ تخرجت في جامعة جونز هوبكنز. وبلغني أن صحيفة «صن» في بالتيمور تطلب مخبراً صحافياً عن أعمال الشرطة. وتقدمت وثلاثة من رفقاء صفي في الجامعة للحصول على تلك الوظيفة. وجاء اختياري من دونهم لغزاً محيّراً. كان الأجر ٣٠ دولاراً في الأسبوع. واذ تذمرت من أن مبلغاً كهذا يحط من قدر رجل جامعي، لم تتعاطف معي أمي.

قالت لي: «اذا أكببت جاداً على عملك هذا، فستخرج منه بشيء. وعندئذ يزيدون راتبك.»

بعد سبع سنوات عهدت إلي «صن» في تغطية أنباء البيت الأبيض.[2] وفي عُرف معظم المخبرين أن الصحافي المراسل في البيت الأبيض هو أقرب ما يكون من القمة. كنت في التاسعة العشرين من عمري آنذاك ومنتفخاً زهواً. وهرعت أخبر أمي متوقعاً ابتهاجها بالنبأ السار. ويا لخيبة ظني.

قالت: «حسناً يا راص، ان اشتغلت بكد في وظيفتك هذه مراسلاً في البيت الأبيض، فقد تصبح ذا شأن.»

كان السبيل الذي اختطته والدتي يتجه قُدُماً نحو العُلى. والتقدم البسيط، في رأيها، لا يسوِّغ الشعور بالرضى عن النفس. وان الذين توقفوا ليغبطوا أنفسهم على ما أحرزوا لا يكملون الشوط. وان المرء إن بلغ القمة لا يتراخى.

خلال سنيَّ الأولى في دنيا الصحافة أخذت أعلِّل النفس بأوهام صبيانية عن الاقتصاص من ابن العم ادوين.

وما حدث ذات يوم كان أبعد من أشد الأوهام إغراقاً في الخيال. لقد جاءت الـ «تايمز» فعلاً تطلبني، على رغم ان ابن العم ادوين كان ترك عمله في الصحيفة حين التحقت بها. وفي نهاية المطاف نلت حظوة كبيرة في دنيا الصحافة، وهي كتابة زاوية خاصة في الـ «نيويورك تايمز.»

لم تكن تلك زاوية لعرض الأخبار، بل زاوية كاتب يسطر فيها تعليقاً على الأنباء باستخدام أنماط أدبية متنوعة مثل المقالات والمقاطع الهجائية والنوادر والقصص الخيالية أحياناً. وجاء الأمر كله دلالة على أن أمي كانت مصيبة تماماً في تقديرها لمهاراتي منذ نعومة أظفاري وفي توجيهي الى الأدب.

---

(١) World's Greatest Literature

(٢) البيت الابيض هو مقر الرئيس الامريكي في العاصمة واشنطن.

وقد حازت زاويتي عدة أوسمة وميداليات وجائزة «بوليتزر»[٣] عام ١٩٧٩.

ولم تعرف امي بذلك قط، فدارات الكهرباء في دماغها توقفت عن العمل قبل ذلك بسنة، ووضعت في دار للرعاية منقطعة عن الحياة حولها الى الأبد.

في وسعي أن أحزر رد فعلها على نيلي جائزة «بوليتزر.» فأنا موقن أنها كانت ستقول: «أمر ظريف يا بني، يدل على أنك اذا عكفت بهمة على عملك فستكون رجلاً ذا شأن يوماً ما.»

كلمات خالدة. بمرور الزمن شنت حملات على القيم التي بشرت بها أمي والتي عشت وفقاً لها. ففي الستينات والسبعينات من هذا القرن كان يُنظر الى أولئك الذين يودون أن يكونوا ذوي شأن نظرة تحط من قدرهم، فهم ماديّون يضيعون حياتهم ببلاهة.

حاولت بادىء الأمر أن أنساق مع العصر الحديث. فعزمت على ألا أُربي أولادي باصدار تلك الأوامر العتيقة العفنة بأن يغدوا أشخاصاً يُعتدّ بهم، كما فعلت أمي.

العصر الحديث يُجلّ الحب واشباع الرغبات والفلسفات الآسيوية البليدة التي «تعين» الناس على الخنوع للأحوال السائدة. كل ذلك بدا لي سخيفاً، لكني أقررت بأن أمي أحالتني انساناً مادياً فظاً فاحتفظت بظنوني لنفسي.

وحين أدركت أني أخفقت في إلهاب أولادي بالطموح، تداعيت. وسمعتني ذات مساء أصرخ بهم الى مائدة العشاء: «ألا تريدون أن تكونوا أشخاصاً ذوي شأن؟»

رماني الأولاد بنظرات لا معنى لها. أشخاص ذوو شأن؟ يا له من تعبير غريب!

لا، ما كان الشراب دافعي الى الزعيق. كانت أمي. وقد لمت أخيراً الجرأة كي أجهر أمامهم بأني، والله، أؤمن بالنجاح، وأني لطالما اعتقدت أن الانسان من دون عمل شاق وترويض للنفس لن يكون ذا شأن أبداً، ولا يستحق أن يكون.

لم تكشف دفاتر العلامات الدراسية اخفاقاً لدى أولادي، بل ممانعة لمجاراة إيقاع الأولاد العاديين، مما ملأني زهواً. إنهم الآن أناس ناضجون متزوجون وقد رزقوا أولاداً، وأنا وإياهم على مودة، نسعد عند اللقاء.

وهي سنّة الحياة في الأُسر، اذ نتلقف الاجيال المندثرة في ذواتنا وننقلها الى المستقبل عبر أبنائنا. وعلى هذا المنوال يبقى أناس الماضي أحياء بعد انقضاء زمان طويل على موتهم.

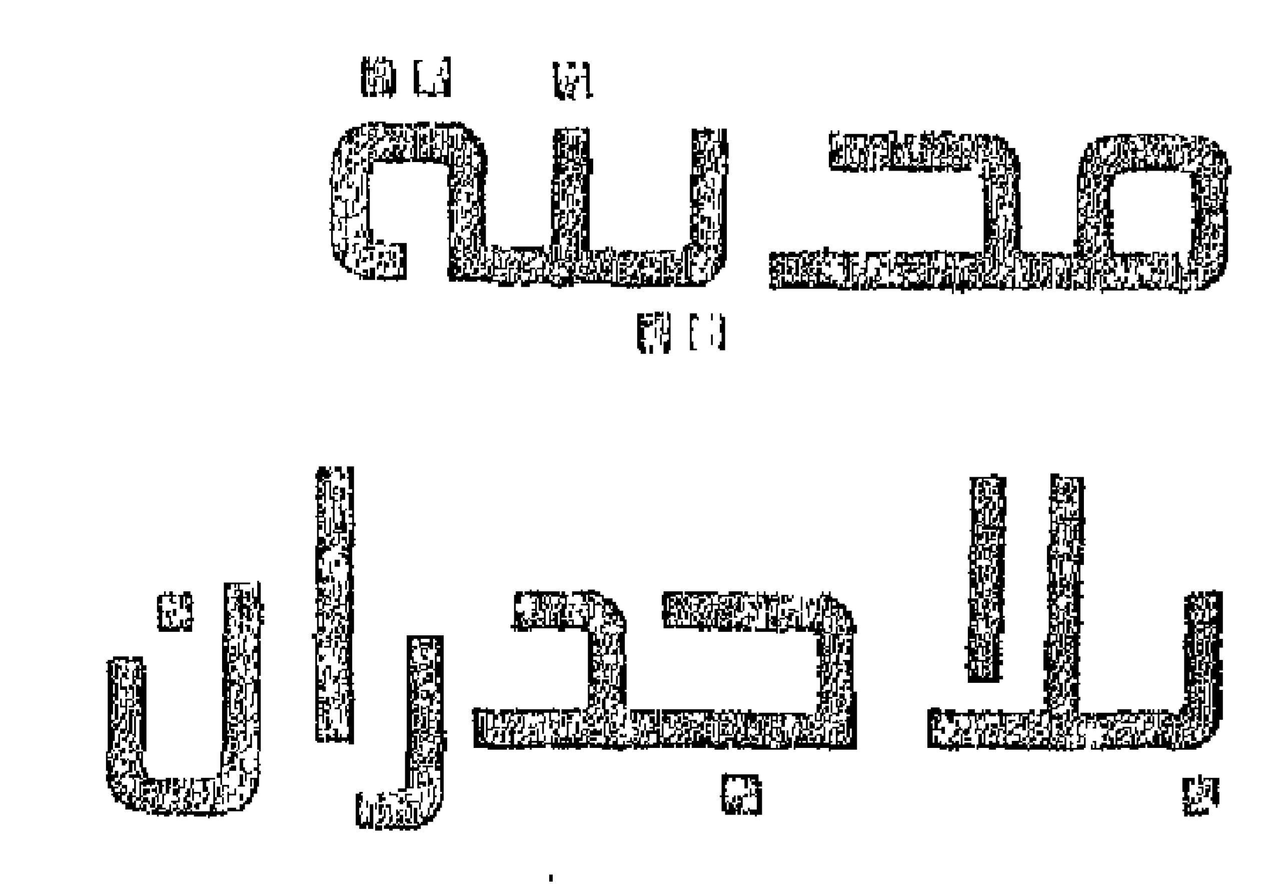
«يا راصل، إني لا أطيق الانهزامي.» رباه، ما زال صوتها في سمعي لا يبرحه!

راصل بيكر ■

(٣) هي جائزة سنوية تمنح للمبدعين في عالم الصحافة والادب والموسيقى، اسسها الصحافي والناشر جوزف بوليتزر (١٨٤٧ ـ ١٩١١).



نيدو الحليب الأفضل
NIDO
Nestlé
نيدو
نستله
Full cream powdered milk



في ٢٨ يوليو (تموز) ١٩٧٦ ضرب زلزال مدمر مدينة تانغشان الصناعية شمال الصين، فقتل ربع مليون نسمة. وبعيد الحادث أبرق الصحافي ريتشارد دودمان كبير مراسلي صحيفة «سانت لويس بوست ديسباتش» في واشنطن الى بيكين مستأذناً كتابة القصة الكاملة للكارثة ولاعمال اعادة البناء. لكنه لم يلقَ تشجيعاً. وبعد مضي بضع سنوات جدد مساعيه، لكن السلطات الصينية استمرت في كتم أرقام الخسائر والتفاصيل الأخرى. وذات يوم في يونيو (حزيران) ١٩٨٦ تلقى دودمان، وقد تقاعد، اتصالاً من السفارة الصينية في واشنطن يفيد أن السلطات المعنية في بيكين قررت الاستجابة لطلب دودمان.

وهذه قصة دودمان المثيرة.

عصفت ريح عنيفة أيقظت مليون مواطن في المدينة النائمة ثم سطع نور غريب كضوء النهار أضاء الأبنية والسماء. هنيهة بعد ذلك اهتزت الأرض بقوة صعوداً ونزولاً وجانبياً، وخرج هدير ...ماق الأرض.

... الهزة الرئيسة في الثالثة ... ـيقة الثانية والأربعين فجراً وكانت بقوة سبع درجات وثمانية أعشار بمقياس رختر[1].

كانت إحدى اللواتي أيقظتهن الريح الهوجاء ذلك الصباح الباكر من يوليو (تموز) زوجة رئيس الشرطة النقيب هو شوشن، فأيقظت زوجها وطلبت منه أن يجلب الغسيل الى الداخل.

يتذكر شوشن: «نظرت الى الخارج فأحسست بريح قوية تنثر غباراً ورذاذاً. ثم أبصرت في السماء بريق نور أحمر ضارب الى الزرقة، وسمعت صوتاً غريباً يخرج من تحت الأرض كهدير قطار شحن، وبدأت الأرض ترتج صعوداً ونزولاً. وثبتُ من النافذة، لكن الدنيا اهتزت الى الوراء والى الأمام ورمتني أرضاً. ثم انهار منزلي. وبعد قرابة خمس دقائق لم يعد ثمة من هدير، انما سمعت الناس يصرخون في كل مكان.»

بمساعدة ابنه، البالغ السادسة عشرة من عمره والذي نجا قبل سقوط سقف المنزل، أخرج شوشن من بين الأنقاض زوجته وولدين آخرين. وقبل أن يدركا الابنة البالغة من العمر أربع عشرة سنة كانت هذه فارقت الحياة.

في مصنع تانغشان للحديد والصلب قتل عدد كبير من العمال الليليين الذين كانوا يتناولون العشاء عندما تهدم عليهم سقف الغرفة الاسمنتي. أما الأبنية ذات الأعمدة المبنية بالاسمنت المسلح والسقوف المكوّنة من ألواح معدنية خفيفة فثبتت أمام الهزة. وأما العمال الذين كانوا انتهوا من افراغ خمسة وثلاثين طناً من الصلب المصهور، فتمسكوا بحاجز أمان ساعة انطفأت الأنوار. وارتجت المنصة وتخلعت السلالم، وزحف العمال الى الخارج ووصلوا بأمان.

في دار صحيفة «تانغشان ليبور ديلي» كان عشرة طبّاعين ينجزون المهمات الموكولة اليهم وينتظرون تسليمهم خبراً متأخراً لاقفال الصفحة الأولى. قال كزو فنغشن انه شعر بالمبنى يهتز ورأى الأضواء تخبو وسمع صوت أحرف الطباعة تسقط على الأرض فأدرك أن ثمة زلزالاً.

الموظف الأخير الذي خرج من المطبعة غارت رجلاه في الأنقاض المنهارة وطُمر. وثمة موظف آخر كان محروقاً في رجله نتيجة مسه معدناً مصهوراً معداً لصنع الأحرف. وكانت الحصيلة أن فقدت الصحيفة ثلاثة عشر من أصل سبعة وثمانين محرراً ومخبراً، وثمانية من أصل اثنين وستين طباعاً.

وفي منجم تانغشان القريب، وهو فرع من «منجم كيلوان للفحم الحجري،» شقت

(١) هو مقياس للزلازل يتدرج من درجة الى عشر درجات، وكل درجة اقوى من سابقتها بستين ضعفاً.

الهزة الأولى حائط المبنى المؤلف من ثلاث طبقات الذي يسكن فيه مدير المنجم زاو ونبن مع زوجته وأولاده الأربعة. قال: «تواصل الارتجاج وانهار البناء على رؤوسنا.» وقد سقط عليه باب ظل تحته حتى انتشله رجال الانقاذ بعد اثنتين وعشرين ساعة. وتوفيت زوجته واثنان من أولادهما.

لصوص ونبلاء

في البدء لم يعرف أحد مصير ١٤٤٠٠ رجل يعملون ليلاً في ثمانية مناجم على عمق ٤٦٠ متراً تحت الأرض. لقد انقطع التيار الكهربائي كلياً، وانهار معظم المنشآت فوق سطح الأرض أو أصيب بضرر جسيم، كأبراج التهوئة وحجرات المصاعد ومصانع الفحم الحجري، كذلك مستشفى المناجم وغالبية بيوت العمال. أما المستخدمون الباقون على قيد الحياة فكل ما أمكنهم أن يفعلوا هو أن يفتحوا منافذ تسمح بدخول بعض الهواء الطبيعي علّ أولئك الذين هم تحت الأرض يتمكنون من شق طريقهم عبر السلالم وممرات الطوارىء.

في غرفة في منجم تانغشان على عمق ٤٨٨ متراً تحت الأرض شاب في العشرين يدعي غو هويكون كان يعمل مع اثني عشر عاملاً آخر عندما سمع صوتاً راعداً وأحس بتوقف مجرى الهواء. قال: «خرجنا من الغرفة لدى هبوط السقف، ووجدنا ممر الطوارىء وسرنا حتى بلغنا سطح الأرض في العاشرة قبل الظهر.»

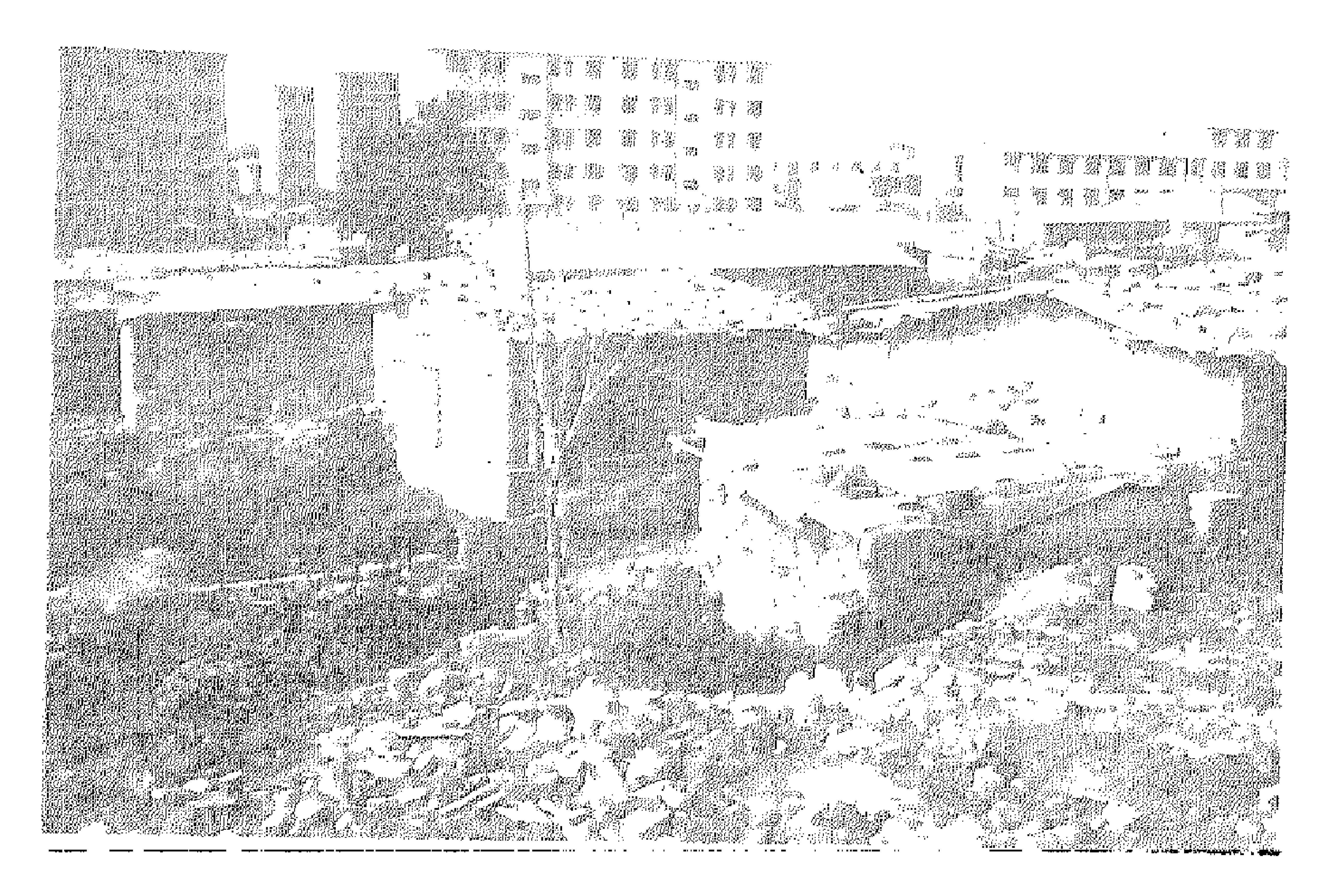
وتزعم ادارة المنجم أن العمال الذين قتلوا تحت الأرض لم يتجاوزوا الثلاثة عشر. وكان العمال الخمسة الاخيرون الذين خرجوا أحياء يعملون في منجم زاو جي زوانغ. وما زال ثلاثة منهم يعملون في المناجم وهم أخبروني انهم كانوا في نفق يقع على عمق ٨٥٠ متراً تحت سطح الأرض عندما بدأ النفق يهتز وتساقط الفحم الحجري والصخور من السقف. قال العامل وانغ شولي: «لم نتمكن من الوصول الى سلالم الطوارىء، فلجأنا الى حجرة أعمق فيها حزام نقل متحرك ولها سقف فولاذي. وحفرنا طريقنا على امتداد الحزام مستخدمين خوذنا كدلاء. لكننا بعدما صعدنا محطتين توقفنا لدى حصول انهيار كبير آخر.»

أضاف وانغ أن العمال الخمسة اجتازوا خلال أربعة أيام تسعة أمتار في هواء فاسد بلا طعام ولا ماء. وهم كانوا يحفرون في ضوء نور باهت منبعث من مصابيحهم.

أخيراً اقتحموا نفقاً فيه ماء. لكن مضخات المنجم لم تكن صالحة للعمل. وتابع وانغ: «بلغت المياه ركبنا وكانت تتدفق بسرعة أعجزتنا عن الذهاب أبعد. صعدنا الى عربات الفحم وتلاصقنا طلباً للدفء.» بعد ذلك سمعوا أصواتاً وأبصروا ضوءاً يقترب.

يقول وانغ: «ساعة أدركتنا فرقة الانقاذ أخبرنا انه مضى علينا تحت الأرض أربعة عشر يوماً ونصف يوم.»

الرقم الرسمي لضحايا الزلزال مفجع



ابنية سكنية جديدة تقوم من بين الانقاض.

ومقداره ٢٤١٥٠١ نسمة،[٢] منهم ١٣٦ ألفاً من تانغشان و٦٩ ألفاً من الضواحي والأقاليم المحيطة بها، ومعظم الباقين من بلدة تيانجن المجاورة. وانهار ٩٥ في المئة من أبنية تانغشان أو أصيب بضرر جسيم.

في المدينة المدمرة كانت الساعات والأيام الأولى التي تلت الزلزال كالانبعاث من الموت. أما رئيس الشرطة النقيب هو شوشن، فبعدما انتشل زوجته وولديه من بين الأنقاض تقلد مسدسه وهو لا يزال حافي القدمين في ثياب النوم، وخرج لمساعدة الآخرين. فأنقذ هو وبنوه تسعة عشر جاراً. ومن بين المصابين بجروح طفيفة نظّم شوشن فريق انقاذ من عشرة شباب مضوا يطوفون في الشوارع المجاورة باحثين عن أحياء بين الانقاض.

وأشرف شوشن على انشاء مركز للشرطة في الجوار. وكانت الأولوية لاقامة مراكز اسعاف وتدبر شاحنات صالحة لنقل ذوي الاصابات الخطرة.

عند الفجر انتشر مخبرو جريدة «تانغشان ليبور ديلي» ومصوروها في المدينة المدمرة يجمعون التفاصيل عن الكارثة وأعمال الانقاد. وكانت كل أجهزة تنضيد الأحرف وآلات الطباعة تحطمت بانهيار مبنى مطبعة الصحيفة، ولكن بعد أسبوعين عاودت «الديلي» الصدور بمساعدة صحف بيكين والمدن المجاورة.

بعد انهيار مبنى البريد والهاتف وسقوط معظم الأسلاك الممدودة فوق

(٢) قدّر الرقم الحقيقي بسبعمئة الف، وحتى بمليون. اما مديرو المصانع والمؤسسات في تانغشان الذين يحفظون سجلات ضحايا الزلزال فافادوا ان نسبة القتلى تراوح بين ٦ و١٥ في المئة من عدد السكان.

الأرض تعسر ايصال خبر الى بيكين عن ورطة تانغشان. وبدأ عمال الصيانة يبحثون عن مركز اتصال مع بيكين ما زال صالحاً. وفي السابعة صباحاً اتصلَتْ بالعاصمة، من طريق خط تحت الأرض، محطةٌ فرعية في الضواحي كانت لا تزال قائمة. وفي العاشرة كان عمال الهاتف يبحثون في حطام المبنى المركزي عن وسيلة للاتصال ببيكين، فوجدوا مدخلاً الى خط يمكن ربطه بمبنى البريد في الضاحية. وخلال ثلاثين ساعة كان موزعو الهاتف، وعدد كبير منهم مصاب ومعصوب الرأس، يشغّلون لوحة توزيع الاتصالات الطارئة تحت خيمة من الخيش المشبع بالشمع والقار.

وظهرت مشكلة اضافية هي النهب. فاللصوص، ومعظمهم من خارج المدينة، أسرعوا من صوب نهر «دو» ينذرون الناس بأن الزلزال أحدث فيضاناً في النهر سيغرق المنطقة كلها. وعندما هرب السكان انصرف اللصوص الى التفتيش في الركام عن الأموال وأجهزة التلفاز والراديو وسواها من المقتنيات الخاصة. وشوهدت عجوز تنوح فوق جثمان ادعت انه لابنها وهو يُنتشل من بين أنقاض منزل، وتنتزع ساعة من معصمه كتذكار. ثم كررت عملها هذا في عشرات البيوت المنهارة مع «أبناء» آخرين. وقد أوقف ٤٩٦ شخصاً بجرائم سرقة وغيرها.

بين الغرباء الذين وصلوا لمساعدة المدينة المصابة عناصر وحدة مدفعية في «جيش التحرير الشعبي» صادف أن كانت مخيمة على بعد ستة عشر كيلومتراً من المدينة. وتطوع طاقم البناء في الجيش، بعد يوم من الزلزال، لبناء جسر موقت لفتح طريق عامة تصل تانغشان بشمال شرق الصين. وخلال يومين وصلت وحدات عسكرية أخرى للمساعدة على انقاذ الجرحى ودفن الموتى واعادة النظام وتوزيع المساعدات الواردة طعاماً وماء وكساء. ومن حسن الحظ أن طريق المطار لم تصب بضرر جسيم ولم تسدّ بأنقاض. فما لبثت الطائرات أن شرعت في نقل مواد غذائية وحمل المصابين الى المستشفيات بحيث راوح معدل الاقلاع والهبوط بين ٣٠٠ و٣٥٠ طائرة في النهار. واستخدم تقنيو الرادار أجهزة الاحتياط البحرية لان أجهزة الملاحة الالكترونية اقتلعت من أمكنتها.

المدينة الجديدة

في اليوم السادس بدأ مهندسو شركة مياه تانغشان يضخون الماء مستعملين خراطيم الاطفاء كوصلات في ٤٤٤ كسراً اكتشفت في خطوط المياه الرئيسة التي بلغ طولها حوالى ١١٠ كيلومترات. وسرعان ما هب مئات من الجنود والخبراء المائيين من مدن أخرى يمدون أيدي المساعدة. وفي غضون ذلك وصلت من بيكين صهاريج لتزويد المدينة الماء الضروري.

مئات من الجثث المجهولة الهوية

دفنت في مقابر جماعية. في البدء أخذ الأقرباء والجيران على عواتقهم حفر الرموس، ولكن سرعان ما تعهد الجيش هذه المهمة. يتذكر سائق أنه شاهد جرافة آلية تحفر قبوراً كبيرة والجنود يكدسون الأجساد فيها طبقة فوق طبقة ثم يهيلون عليها التراب.

ومن القادمين المبكرين خبراء زلازل جاؤوا من تيانجن وبيكين وأقاموا مراكز مراقبة موقتة بغية رصد هزات تالية محتملة.

في السابعة إلا ربعاً مساء، بعد انقضاء خمس عشرة ساعة على الهزة الأصلية، حدثت هزة كبرى هدمت مباني أخرى. ونظراً الى انذار السكان باحتمال حصولها كانت الوفيات والاصابات التي خلفتها طفيفة.

ومضى عمال شركة كهرباء تانغشان أسبوعاً لانشاء مركز بديل ومد خطوط موقتة والحصول على الطاقة من شبكة شمال الصين. وفي نهاية اليوم السابع عشر أعيد تشغيل مولدين كهربائيين وعاودت الشركة انتاج الطاقة الكهربائية للاستعمال العام في المدينة. وخلال شهر تم فحص ثلاثة آلاف جهاز هاتفي واصلاحها، وأقيمت محطة هاتف موقتة، ومدت خطوط هاتفية موقتة الى المصانع ومباني المكاتب.

لم تنطلق المدينة بشكلها الجديد الا بعد قرابة ثلاث سنوات. في أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٦، بعد مرور ثلاثة أشهر على زلزال تانغشان، أطيحت



رئيس الشرطة النقيب هو شوشن.

«عصبة الأربعة»[3] لكن نفوذها ظل مستمراً. وكانت إحدى النتائج أن زعماء بيكين رفضوا كل مساعدة خارجية، كذلك رفضت الادارات الرسمية في اقليم هيبي عروض المساعدة التي قدمتها أقاليم صينية أخرى. وجاء في صحيفة «بيكين ريفيو»: «على سبيل المثال، صرفت السلطات الاقليمية ستة أشهر لصنع ١٦٢ رافعة بناء (ونش) كانت ضرورية لاعمال الترميم واعادة البناء، علماً أنه كان من الممكن استعارة الرافعات ووضعها حالاً في العمل لو قبلت مساعدات الاقاليم الأخرى.»

في نهاية العام ١٩٧٨ أصبحت السياسة عملية أكثر من ذي قبل، فالمصممون والمهندسون جاؤوا بخطة شاملة لبناء مدينة مركزية في موقع المدينة الأصلية تستوعب ٥٠٠ ألف

(٣) ضمت «عصبة الأربعة» زوجة ماوتسي تونغ وثلاثة اعضاء آخرين في الحزب الشيوعي اتهموا بمحاولة الاستيلاء على السلطة.

نسمة، ومدينتين صناعيتين تابعتين لها، تفصل بينها «أحزمة خضراء» من المزارع. وشيدت تدريجاً عشرات المباني السكنية المؤلفة من أربع الى ست طبقات مكان المنازل الموقتة التي بناها الناجون بالقرميد والخشب المأخوذين من بين الأنقاض. وهناك اليوم مجمّعات سكنية يستوعب كل منها ما يراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف نسمة، تفصل بينها شبكة من الشوارع العريضة. ولكل مجمع متاجره ومدارسه.

وكان المسؤولون الرسميون قلقين لأن المكان يقع على أرض متصدعة حيث يمكن حدوث زلزال جديد. لذلك لم يسمح في منطقة التصدع جنوب وسط المدينة الا بانشاء أبنية ذات طبقتين أو ثلاث طبقات، كما زيدت المسافات بين المباني الجديدة تخفيفاً لاحتمال تسبب انهيار أحد المباني في هدم المبنى المجاور. كما صمم المخططون طرقاً عامة تؤدي الى خارج المدينة عبر سبع جهات بغية تسهيل الاجلاء لدى حدوث زلزال مستقبلي.

في كل مكان ثمة ما يذكر بالزلزال. هناك أكثر من ثلاثة آلاف منزل موقت تحفّ بأزقة ضيقة متعرجة. وهناك معاقون يطوفون في الشوارع على درجات خاصة ذات ثلاث عجلات تسير بيد واحدة. ولا يكفّ الناجون عن سرد قصص الزلزال وتذكر موت أحبائهم. كان الطلاق نادراً نسبياً في الصين، لكنه أصبح عادياً هنا بعد الزيجات المتسرعة التي تمت بين رجال ونساء خسروا أزواجهم في الزلزال.

بالنسبة الى مجتمع فَنيت فيه ٧٤٠٠ عائلة بكاملها وخسر كل ناجٍ نسيباً أو حبيباً، تبدو تانغشان ذات شَعب سعيد منظم. ويصرّ علماء الاجتماع في تانغشان على القول ان معظم الأحياء أظهروا مرونة عاطفية. يقول أحد علماء النفس: «كنا نمزح ذلك الوقت فنقول ان شعب تانشغان كله عائلة واحدة كبيرة لأن جميع الجدران قد سقطت.»

الكارثة المشتركة جمعت الناس وقربت بينهم وهيأت نموذجاً من العزاء.

ريتشارد دودمان ■

جنون الآلة

قبل أيام تعطلت محمصة الخبز الكهربائية في بيتنا. وأذكر اننا لما اشتريناها قبل سنوات دفعنا سعراً اضافياً لميزة فيها رائعة: عندما تتحمص قطعة الخبز إلى درجة الحرارة المطلوبة تصفر المحمصة.

وذهبنا إلى السوق لنبتاع محمصة جديدة. ومجدَّداً تعين علينا أن ندفع سعراً اضافياً لميزة رائعة في الطراز الجديد: عندما يبلغ التحميص الدرجة المطلوبة لا تصفر المحمصة.

ف.و.ش.



كتاب الشهر

سباق مع الموت

ملخص من كتاب
«في طرفة عين» بقلم آلن دولب

سباق مع الموت

يصل الى مركز الصدمات
في مستشفى الأطفال في واشنطن
صبي عمره ٤ سنوات مصاب بجرح بالغ
في رأسه نتيجة صدمة سيارة.
وتنقل الى المركز ايام فتاة مصابة برصاصة
في صدرها وهي ميتة تقنياً. وصبي آخر
مصاب بحروق خطيرة. وفي أجنحة الطوارئ
حيث اللحظة قد تعني الفصل الفارق
بين الموت والحياة، يتأهب فريق الصدمات
ويبدأ صراع الطب والحياة



خرج ديفيد مايرز من المنزل وكأن القدر له بالمرصاد. لم يشاهد السيارة. وحين صدمته وقذفته عالياً في الهواء كلعبة كبيرة سقط في الشارع متكوّماً على ذاته كالجنين في الرحم، وعيناه مفتوحتان جامدتان بلا حراك.

اندفع والد ديفيد من منزل العائلة في جادة ألاباما في العاصمة الامريكية واشنطن وجثا الى جانب ابنه. فرك جبينه ولمس جفنيه -فلم يلمح أي حركة أو أثر للحياة في العينين المتّسعتين. ثم تنفّس ديفيد بعمق وارتجف وظهر على شفتيه زبد زهري.

كان عقل الوالد خدراً اذ أفقده الحادث المروّع حسه لكنه سمع أحدهم في الجمع المحتشد يذكر سيارة اسعاف، فهمّ بالتقاط ابنه وضمه بين ذراعيه، لكنه أحجم عن ذلك خوفاً من إيذائه، وقال: «أرجوكم، أطلبوا من الاسعاف الاسراع في المجيء.»

ووقف الأب خائفاً قلقاً غاضباً، متسائلاً عن سبب تأخر فريق الاسعاف. ورأى زوجته تبكي وقد أمسكت بها إحدى النساء تهدىء من روعها.

وأخيراً سمع ولولة صفارة الاسعاف. وترجل المساعدون الطبيون ومعهم نقالة، فركع أحدهم الى جانب ديفيد وسأل الجمع: «هل بينكم من يعرف اسم الصبي؟»

أجاب مايرز: «اسمه ديفيد وأنا والده.»

هتف المساعد: «ديفيد! أصغ الي! شدّ يدي يا ديفيد!»

ثم أخذ يفحص ديفيد بالمِسماعِ وتطلع الى والده وقال: «اذا كانت عنقه مصابة بأذى فان تحريكه يسبّب مزيداً من الضرر.» وخاطب رفيقه: «يجب نقله الى مستشفى الاطفال. وعلينا تقييده وأخذه الى هناك في مروحية الشرطة.»

وصلت سيارة إسعاف ثانية. فأمسك أحد المساعدين ذراع ديفيد وقرصها بأصابعه فسحبها الصبي بسرعة. فقال المساعد: «هذه اشارة حسنة.»

ثم أحضر سائق سيارة الاسعاف طوقاً بلاستيكياً لتجميد رقبة ديفيد. ومُدد الصبي على لوح خشبي مجهز بأربطة.

قال أحد المساعدين: «يجب أن نلبسه سروال ماسْت.» وهذا سروال مقاوم للصدمات مصمّم كالبذلات التي يرتديها ربابنة الطائرات. وحين يضخ فيه الهواء يضغط السروال على الاطراف الدنيا فتُدفع كمية أكبر من الدم الى الجذع. فاذا كان المصاب في حالة نزف داخلي فان سروال «ماست» يمدّه ببضع دقائق حاسمة في الطريق الى المستشفى. وهو فاعل أيضاً في جبر الأرجل المكسورة.

ما ان شدّ المساعدون السروال على جسم ديفيد وأخذوا بنفخه حتى حطّت المروحية قريباً، فلفوه بحرام وشدوه الى اللوح الخشبي.

وقف والدا ديفيد هادئين يراقبان. وسأل الأب المسعفين: «هل لكم أن تخبروني ما مبلغ اصابته؟»

أجاب أحدهم: «أنا لست طبيباً، لكني أعرف أن اصابته خطيرة. لذا نريد نقله الى مستشفى الاطفال، فهناك فقط أطباء مؤهلون لمساعدته.»

بعد تسع دقائق تلقى «المركز الطبي الوطني في مستشفى الاطفال» الذي يبعد ١٠ كيلومترات عن مكان الحادث اتصالاً لاسلكياً: «نحن في طريقنا اليكم. سنصل بعد نحو دقيقتين ومعنا صبي صدمته سيارة وقد تلقى اصابة خطرة في رأسه، وهو فاقد الوعي.»

أجاب المسؤول في المركز: «حسناً، نحن في انتظاركم.» ثم أطلق الانذار: «الى فريق الصدمات، ستصل المروحية في غضون دقيقة واحدة.»

ضغطت عاملة الهاتف في المستشفى زراً أزرق فومضت جميع اشارات الانذار الحمراء الى فريق الصدمات في أرجاء المستشفى. وللحال ترك الاطباء والتقنيون والمرضات في المستشفى أعمالهم وتراكضوا الى الطبقة الاولى. وما ان حطّت المروحية حتى خف اليها الفريق. فرُفع ديفيد المشدود الى اللوح الخشبي الى محفّة ذات عجلات، ووضعت احدى المرضات كمامة على وجهه لتغذيته بالاوكسيجين.

ثم هرع المرضون بثيابهم المعقمة وأدخلوا ديفيد أحد أروع مراكز طب الصدمات في البلاد.

سيرة طبيب

كان ديفيد مايرز محظوظاً، لأن ٩٧ في المئة من الأولاد المصابين اصابات خطرة الذين يعالجون في هذا المركز تكتب لهم الحياة.

والواقع أن حوادث السيارات تتسبب في وفاة ٨٠٠٠ ولد تقل أعمارهم عن ١٥ سنة في الولايات المتحدة، ويصاب ٥٠ ألفاً آخرون بعجز دائم. وقبل اكتشاف لقاح الشلل (بوليو) كان الذعر يتولى الأمهات كل صيف. لكن الشلل لم يقتل في أي سنة ٨٠٠٠ طفل. وحوادث السيارات هي المسبب الاول لوفاة الأولاد الذين تراوح أعمارهم بين السنة الواحدة والاربع عشرة سنة.

صمم الدكتور مارتن ايكلبرغر على تغيير هذه الحال. فأسس في العام ١٩٨٠ «مركز صدمات الأولاد.» ولم يأت ايكلبرغر أي اكتشاف طبي، انما راح يطبق الطرق الطبية الاكثر تعقيداً بأسلوب منهجيّ. والامر الوحيد اللافت هو أن أحداً لم يفعل ذلك قبلاً.

ومن المفارقات أن سنوات كثيرة مضت قبل أن يقرّ هذا الطبيب بأن معالجة الأولاد هي عمله المفضل.. وكان ايكلبرغر، من العام ١٩٧٨ الى ١٩٨٠، عمل في

إشراف الدكتور إيفريت كوب متخصصاً بجراحة الأولاد في «مستشفى فيلادلفيا للاطفال» ببنسلفانيا. وكان كوب شهيراً بصفته «الجـراح العام» رئيس مصلحـة الصحة العامة في وزارة الصحة الامريكية بين ١٩٨١ و١٩٨٩، ويعتبر في مصاف أهم جراحي الأطفال في الولايات المتحدة. وفي رعاية كوب، اكتشف ايكلبرغر أنه موهوب بيدي جراح أطفال. فقد كان بارعاً في تحسس الاعضاء الصغيرة واجراء الجراحة اللازمة والتكلم مع المريض بعد العملية.

وكانت تلك مكافأة حقيقية، فقد وجد في موهبتـه النادرة وأعمـال الشفاء الناجحة التي أنجزها تعويضاً عن ليالي العمل المضنية الطويلة وعودته الى البيت متأخراً منهكاً. فإذا كان كوب المعلم المثالي فقد كان مارتن ايكلبرغر التلميذ المثالي، نبيهاً، لامعاً، نشيطاً. وكان الرجلان يحققان معاً ما يقرب من العجائب.

عرف مارتن أنه سيكون جراحاً، لكنه احتار بين أن يكون جراحاً للاطفال أو جراحاً تقويمياً. وكان حبه لجـراحة الاطفـال طاغيـاً، لكنه يضطـره إلى ملازمـة المستشفى والعمل طويلاً في الليل. وشقّ عليه أن يسهر ليهتم بأولاد الآخرين بدلاً من أن يكون إلى جانب ولديه تود وليند ساي. فآثر أن يكون جراحاً تقويمياً لكي تتوافر له ساعات عمل مقبولة وأقل صرامة.

مارس ايكلبرغر الجراحة التقويمية مدة سنتـين خلال خـدمته العسكـرية. واعتزم أن يكون جراحاً تقويمياً طوال حياته. ولكن زوجته ثنته عن ذلك قائلة: «ان هذا لجنون منك. إنك تريد أن تكون جراح أطفال. فاذا امتهنت الجراحة التقويمية لمجرد أنها مريحة أكثر من جراحة الأطفال فستكره نفسك مدى الحياة.»

وفي اليوم التالي اتصل ايكلبرغر بأستاذه كوب وانتقل مع عائلته إلى فيلادلفيا للتخصص سنتين فى جراحة الأطفال.

عندما انضمّ ايكلبرغر إلى مستشفى الأطفال في واشنطن عام ١٩٨٠ كانت غرفة الطوارىء عادية وموجّهة لمعالجـة الحالات الطـارئة الخفيفـة، كالـرضوض والجروح والحروق المتوسطة وكانت معالجة هذه الاصابات مرضية.

لكن الحال كانت تختلف وقت المجيء باصابة خطرة، إذ كان أطباء الأطفال الذين يديرون غرفة الطوارىء يطلبون مشورة جراحية. وحين يصل الجراح كان يضطر إلى ارسال سُعاة لجلب ملاقط وخيوط وابر خاصة.

وفي الحالات الخطرة جداً كان يتم جمع عدد من الأطباء الموهوبين في وقت قصير لدى إطلاق إنذار «الشيفرة الزرقاء.» وما ان ينطلق الانذار حتى يهرع ما بين ١٥ و ٢٥ شخصاً إلى غرفة الطوارىء، فيبدو المشهد كمناوشة بين لاعبين في مباراة كرة القدم أكثر منه استشارة طبية.

كان أول عمل للدكتور ايكلبرغر وهيئة ادارة غرفة الطوارىء إنشاء جناحين

للصدمات سميا «غرفتي الشيفرة» يكونان جاهزين ٢٤ ساعة في اليوم. وجهز الجناحين بكل الادوات والمواد الجراحية لمعالجة الصدمات والحالات الطارئة.

وشكل فريق للصدمات له نظامه الخاص. واقترح ايكلبرغر وضع لائحة بالتدقيقات الطبية الاولية وتوزيع بنودها على أعضاء الفريق فيكون لكل منهم دور ويكتمل التدقيق بطريقة أسرع. والذين لم يتوجب عليهم أن يكونوا داخل غرفة الشيفرة، مثل فنيّي المختبر والأشعة السينية (اكس)، تعيّن أن يكونوا في «القلب الخارجي» ويقفوا خارج الغرفة جاهزين للعمل فوراً. أما «القلب الداخلي» فشمل المرضات والأطباء الذين تقضي الضرورة بوجودهم لانجاز لائحة العمل.

أسفر النهج الجديد عن نتائج باهرة. فبدأت أعمال الطوارىء تسير بسهولة أكثر من قبل، وحقق مركز الصدمات، غير الرسمي بعد، نصراً غير منظور.

نصر أول

حين أدخلت المحفّة التي تحمل ديفيد مايرز «غرفة الشيفرة» كانت الدكتورة ماري فالات هناك. وهي كانت آنذاك كبيرة الجراحين المقيمين في مستشفى الأطفال، و «المنسّقة الجراحية» المسؤولة عن توجيه أعمال الهيئة الطبية والتمريضية وعندما تكون في الغرفة فهي الرئيسة المسؤولة من دون جدل.

أفاد أحد المساعدين الطبيين الذين كانوا في المروحية مع ديفيد: «منذ الحادث والمصاب لا يبدي أي استجابة، وبؤبؤا عينيه جامدان وغير متساويين، فالأيسر أوسع من الأيمن. وهو يتنفس تلقائياً لكن تنفسه غير طبيعي. وضغط دمه مستقر. وهو مصاب بكسرين جانبيين في عظم فخذه داخل سروال ماست. ولا شيء يذكر عن تاريخه الطبي، ولم تعرف لديه أي حساسية. وكان والداه شاهدين على الحادث، وهما في طريقهما إلى هنا.»

اومأت فالات إلى المساعد اشارة إلى حسن أدائه، فقد زوّدها ملخصاً لمعلومات ثابتة يصحّ اعتمادها أساساً لمعرفة ما أصاب الصغير ديفيد. وتركز اهتمام فالات على الاصابة التي لحقت برأسه. فمدّت رأسها من باب «غرفة الشيفرة» وسألت: «جراح أعصاب؟»

اجابتها المرضة: «انه في الطريق.»

«شكراً»، قالت فالات، وعادت إلى وسط الغرفة وراحت تراقب فريق الصدمات وهو يعمل كفرقة باليه. وكان كل فرد يعرف أين يقف وأي دور يؤديه.

إلى يمين السرير جلس جراح مقيم يصغي بسماعته إلى صدر ديفيد، وأفاد: «إن أصوات التنفس جيدة.» تلك كانت علامة طيبة، خلافاً للتنفس المتشنّج غير المنتظم. كان هناك خلل ما، لكن مجرى الهواء كان سليماً.

وكشف مقيم آخر وريداً وأولج فيه ابرة للحقن الوريدي وساعدت ممرضة الطبيب الاول على تثبيت أقطاب جهاز تخطيط القلب على صدر ديفيد.

وإلى يسار السرير سحب طبيب مقيم عينة من الدم وملأ خمس قوارير سلمها إلى أحد تقنيي المختبر الذي كان ينتظر على باب «غرفة الشيفرة.» وكانت احدى الممرضات تراقب ضغط دم الصبي. واشارت ساعة الجدار إلى الثالثة والدقيقة الثانية بعد الظهر، أي ان ست دقائق مضت منذ ادخال ديفيد المستشفى. وكانت مؤشراته الحيوية مستقرة.

قالت الدكتورة فالات للطبيب إلى الجهة اليسرى من السرير: «ابدأ مدَّه بالمصل الوريدي قبل نزع سروال ماست.» فقد يكشف هذا السروال اصابة خطيرة، وحين ينفّس قد يواجه الفريق الطبي أزمة كبرى. فاذا كانت الأنابيب الوريدية جاهزة فستكون في وضع أفضل لتعويض الدم النازف اذا كانت أطراف عظم الفخذ المكسور مزقت شرايين ساق ديفيد وبدأ ضغط دمه يهبط فجأة.

وكان صوت جهاز مراقبة القلب «بيب، بيب، بيب» يُسمع في أرجاء القاعة خارج «غرفة الشيفرة.»

كان الجميع منهمكين وكل واحد مأخوذ بعمله. وعندما دنا ذلك الرجل ببرنسه الابيض رآه الجميع لكن أحداً لم يضطرب أو يعره اهتماماً زائداً. فالدكتور ايكلبرغر كثيراً ما يأتي اليّ في زيارات غير متوقعة أيام الاحاد. وهو حيّا أعضاء الفريق من باب «غرفة الشيفرة» لكنه لم يدخل الغرفة لأنه كان جزءاً من «القلب الخارجي.» فالقانون هو القانون.

أكثر ما أقلق الفريق في شأن ديفيد كان هدوءه التام. فحين سحب الطبيب عينة دم من شريانه، رفّت عيناه ولكن لم يصدر منه أي صوت، علماً أن هذه العملية مؤلمة إلى حد إيقاظ ولد غارق في شبه غيبوبة. وسلّط جراح الأعصاب ضوءاً على عينيه وصرخ في أذنه وقرصه من دون جدوى. فهناك دم في كلتا العينين، وهذه إشارة سيئة. فأي صدمة كافية لتمزيق شبكة العين يمكنها رضّ الدماغ والتسبب في انتفاخه. ولا ينتفخ الدماغ الا قليلاً قبل أن «يخنق» إمداده الدموي أو قبل أن ينعصر نزولاً فخروجاً من الفتحة الصغيرة حيث يرتبط بالعمود الفقري.

قال جراح الأعصاب: «لنجر فحصاً طبقياً[1] للرأس.»

فردت فالات: «حسناً، حالما ننزع عنه سروال ماست ننقله إلى فوق.» وحلّت صمام الرجل اليسرى مخففة الضغط قليلاً. وجسّت قدم ديفيد اليسرى فوجدت أن نبضه أقوى. كان هذا حسناً لانه دلّ على إمكان سلامة الشريان الفخذي، ولكن لا ضمانات لذلك.

---
(١) CAT scan

انخفض ضغط الدم من ١١٤ إلى ١٠٧ في الثواني الستين الاول، كما سجّل جهاز المراقبة الآلي.

أما في القراءة الثالثة فكان الضغط مستقراً. فتنفّس الجميع الصعداء لأن انخفاضاً قليلاً في الضغط يؤدي إلى نزف دم قليل. ولو كان الشريان مقطوعاً لاتضح لهم ذلك. هذا أول نصر يسجله ديفيد في طريق الشفاء.

فتحت ماري فالات الصمام ثانية وأفرغت ثلثي الهواء من سروال «ماست» ثم توقفت حين هبط ضغط الدم إلى ١٠٢ ثم عاد فارتفع إلى ١٠٦. وأخيراً أفرغت الجانب الأيمن وحلّت السروال ونادت: «جاهز لفحص الاشعة السينية (إكس).»

باتت فالات على قناعة أن ديفيد كان مستقراً فانسلّت من «غرفة الشيفرة.» فبصفتها الطبيبة الأعلى رتبة، فان عليها مسؤولية أخرى: التكلّم إلى الوالدين.

أشار الكاتب في غرفة الطوارىء إلى والدي ديفيد لكي تتعرف اليهما.

شعور مقلق

لا تتضمن مناهج كليات الطب تعليمات رسمية وموحدة لطريقة التعامل مع أهل المريض. فهذا شأن يتعلمه الطبيب من زملائه، ولكل منهم طريقته الخاصة. وقد كانت ماري فالات لطيفة وصريحة في هذا المجال.

تقدّمت من الوالدين سائلة: «السيد والسيدة مايرز؟» وشرعت في احاطتهما بالوضع: «انَ ولدكما مصاب بأذى شديد، فهو فاقد الوعي وربما لحق بدماغه بعض الضرر. ولن نستطيع تحديد مدى الضرر إلى أن نجري فحصاً طبقياً. وهو يتنفس بصعوبة، فقد تكون رئتاه مصابتين برضوض نتيجة الحادث. فاذا كان هذا صحيحاً فسيحتاج إلى جهاز تنفس لعدة أيام.»

فسألها الاب بلهفة محاولاً ضبط نفسه: «كم سيستغرق شفاؤه؟»

ترددت فالات ثم قالت: «إذا افترضنا أن كل شيء سيسير حسناً، فان إصابات رجليه ستبقيه في المستشفى مدة، فكلتاهما مكسورتان. وفي حالات كسر الفخذ يلازم المصاب المستشفى قرابة ستة أسابيع.»

حاولت والدة ديفيد الكلام لكن زوجها سبقها إليه: «ما هي احتمالات بقائه حياً؟» وكان سؤاله سطحياً جافاً تغلب عليه الكآبة.

فردت فالات باحتراس: «سأجيب عن ذلك على نحو أفضل بعد أن نجري الفحص الطبي. انه مصاب في رأسه، ولا نقدر الآن أن نحدد مبلغ الاصابة، وستكون الساعات الاربع والعشرون الآتية حاسمة.» هكذا لم تتجنب فالات الاجابة عن السؤال، لكنها لم تقدم الجواب الشافي. والحقيقة أن أحداً لم تكن لديه أي فكرة عما إذا كان ديفيد مايرز سيبقى حياً أم يموت.

كان ديف هنتر في «مركز استعلامات الطـوارىء» يضبط قنوات الاتصـال أمامه، واذا به يتلقى مكالمة تفيد أن هناك مصاباً بحروق في طريقه إلى المستشفى. وكانت مضت ساعة من الهدوء في المستشفى والريح الباردة تعصف في الخارج، ولم يكن متوقعاً أن يخرج كثير من الاولاد إلى الشوارع.

قدّر وصول المصاب خلال عشر دقائق. فتوجـه هنتر إلى غـرفة الطـوارىء المجاورة حيث يداوم طبيب أطفال حتى في أيام نهاية الاسبوع. فوجـد الدكتـور دانيال أوكسنشلاغر كبير أطباء الاطفال في غرفة الطوارىء. وهو معروف من زملائه ومن المرضى على السواء بـ«الدكتور أُو» اختصاراً لاسمه الطويل.

قال هنتر للدكتور أُو: «مصاب بحروق في طريقه الينا، درجة ثانية، عشرة في المئة. أتريد أن أبث نداء عاجلاً؟»

هزّ الطبيب رأسه: «دعنا نفحصه أولاً.» فاذا وصل الولد في حال أسوأ مما كان منتظراً، استدعي فريق الصدمات حالاً من غرفة الفحص.

كان الصبي في السن الخامسة. ومعظم الاولاد في هذا العمر ظرفاء، لكن هذا الصبي الذي يدعى ريتشارد كان ذا مظهر أشعث مهمل. وجهـه معفّر، وقـدماه الحافيتان وسختان، ويداه وذراعاه حمراء زاهية وقد أبعدها قليلاً عن جسمه. لكنه لم يكن يبكي.

«مرحبا يا ريتشارد، اسمي الدكتور أو.»

فرد ريتشارد بأدب: «مرحبا». لكنه لم يتطلع إلى الطبيب.

ـ ماذا حدث ليديك؟

«حرقتهما في الماء الساخن.»

وأضافت امرأة كانت تقف وراء الدكتور أو وهي مشعثة الشعر ومتّسخة مثل الصبي: «لقد سقط في حوض ماء ساخن.» سألها الدكتور أو وهو يبتسم: «هل أنت أمه؟»



أومأت المرأة برأسها، فتابع: «لا تبدو حاله سيئة جداً، لكنني أريد أن أفحصه بدقة للتأكد. تفضلي اجلسي في الردهة وسآتي إليك حالما أنتهي من عملي.»

عندما لا يكون الاولاد في حال خطرة يبقى الوالدان إلى جانبهم مما يساعد في لزومهم الهدوء. لكن ريتشارد كان في حالة هدوء بالغ مما أثار قلق الدكتور أو.

لمس الدكتور أو لحم ريتشارد الاحمر بمنتهى الرقة، فأجفل الولد. لكنه لم يسحب ذراعه. فحص الطبيب الذراعين فلم يجد أثراً لقروح. فرأى في ذلك علامة جيدة وأمر الممرضة بدهن مرهم لتخفيف الالم. كانت حروق ريتشارد ممتدة من منتصف ذراعيه صعوداً، وكان هناك خط فاصل واضح بين المنطقة المحمرّة والجلد الابيض فوقها. ولم تظهر آثار رذاذ حارق.

بدأ الدكتور أو العمل بمنهجية وتؤدة. ففحص جسم الولد ووجد أن قدميه خشنتان غليظتان دلالة على أنه يمشي حافياً. وكان يرتدي قميصاً رقيقاً وسروالاً قصيراً، وهذا غير مألوف في برد ديسمبر (كانون الاول). وكان جلده الشاحب وسخاً، وثمة أربعة ندوب، اثنان في ظهره واثنان أحدث منهما في صدره، وأثر حرق شفي وتجعد الجلد مكانه. وكانت الندوب في حجم ممحاة قلم رصاص أو سيجارة مشعلة.

قال الدكتور أو للممرضة: «سأدخله.» ثم خطا بسرعة نحو مركز الاستعلامات وسأل المساعد الطبي في سيارة الاسعاف: «ماذا تعرف عن ريتشارد؟»

أجاب المساعد: «اتصلت والدته بالمركز. وكان في البيت رجل لكنه بقي متوارياً. القذارة تغشى المكان. قالت امه انه سقط في حوض استحمام، فهل ترى أي أثر لرشاش الماء الساخن؟»

هز الطبيب رأسه ورجع إلى والدة ريتشارد وجلس إلى جانبها وسألها: «هل زوجك هنا؟»

أجابت المرأة: «كان خطيبي مضطراً إلى الذهاب إلى عمله.»

تبسّم الدكتور أو وقال: «حسناً، سيشفى ريتشارد على رغم أن حروقه خطرة، ولا أرى أنه سيصاب بضرر دائم.» وأضاف مشدداً: «سنبقيه في وحدة معالجة الحروق تحت مراقبتنا.» فأومأت المرأة برأسها إيجاباً.

صمت الطبيب لحظة ثم تابع: «من اللافت أن حروق ريتشارد بالماء الساخن لا تبدو طبيعية، لأن لا أثر على ريتشارد للرشاش الذي يعقب سقوط ولد في سائل ساخن. وسبق أن عالجنا حالات كانت الاصابات فيها مقصودة وغير عرضية لهذا سأطلب من قسم حماية الاولاد النظر في حال ريتشارد للتأكد من أن كل شيء على ما يرام.»

واستأذن الدكتور أو وهو لا يزال مبتسماً، وانصرف لاتمام المعاملات الضرورية في قسم التمريض. فثمة حالات كثيرة مشابهة ترد على قسم الطوارىء، وقد وضعت قاعدة لمعالجتها بالرفق والحكمة: تجنّب اصدار حكم متسرع، وتجنب المواجهات، وحماية الولد، وكبت الانفعال الذي لا بد من أن يتفجّر لدى رؤية ولد تعرّض لمعاملة سيئة وأذية جسدية.

رُفع ديفيد مايرز إلى سرير في وحدة العناية الفائقة، وربط خبير التخدير أنبوب الهواء إلى جهاز التنفس الآلي. وأظهر فحص للصدر بالأشعة السينية بقعاً سوداء في القسم الاعلى من الرئتين. وجهاز التنفّس هو المعالجة المعتادة للرئتين المصابتين برضوض وللاذى الذي يلحق بالرأس وينتج منه انتفاخ في الدماغ. فجهاز التنفس يدفع فائضاً من الاوكسيجين إلى الدم تفادياً لموت الدماغ.

أظهرت الفحوص الطبقية أن البطين[2] داخل النصف الأيمن من دماغ ديفيد معصور وشبه مسدود. فاذا زاد حجم الانتفاخ كثيراً فسوف ينقطع امداد الدم فيموت الدماغ. فاذا ارتفع الضغط كثيراً فان عملية فغر البطين تتيح تصريف السائل الدماغي الشوكي.

سأل جراح الأعصاب المرضة التي وقفت فوق البقعة المحلوقة في رأس الولد: «هل كل شيء جاهز؟» فأومت برأسها إيجاباً.

حُقنت جلدة الرأس بالـ «إبينفرين» الذي يقلص الاوعية الدموية. فعندما أعمل الجراح المبضع وشق الجلد مرّت عدة ثوان قبل نز الدم على العظم الابيض اللامع في عمق الشق. ثم استخدم الطبيب أداة مبعّدة فولاذية لفتح جانبي الجرح وكشف الجمجمة الصغيرة، وقال للممرضة: «حسناً، ناوليني مثقب الجمجمة.»

وهذا مثقب للعظم من الفولاذ الذي لا يصدأ. في رأسه لقمة تنفصل حالما يتمّ اختراق العظم. وعندما ضغط الجراح اللقمة على جمجمة ديفيد وأدار المثقب، كانت احدى الممرضات ترش ماء معقماً في الجرح. وما هي الا ثوانٍ حتى خرق العظم فانفصلت اللقمة محدثة طقة، فرمق الجراح الغشاء المغلّف للدماغ.

تشبّه عملية فغر البطين، بادخال برغي، وهو تشبيه ليس ببعيد عن الحقيقة. فبعد وخز جلدة الرأس واحداث ثقب صغير جداً، ثبّت الجراح مرقاب ضغط فولاذياً صغيراً في حافة الثقب وراح يفتل واذا بأنبوب رفيع بارز من داخل «البرغي» يخترق وسط البطين الأيمن. فانبجست كمية قليلة من السائل الدماغي - الشوكي من أعلى «البرغي».

وأصبح ديفيد سالماً موقتاً، لكنه سيحتاج إلى مراقبة دائمة.

بعد ذلك، جاء جراحان تقويميان. والجراحة التقويمية للاولاد معروفة كحقل اختصاص بهيج، ويتندر الاطباء بأنهم اذا وضعوا الطرفين المكسورين لعظم طفل في غرفة واحدة فانهما يلتحمان تلقائياً بخط مستقيم. ولكن، زيادة في الضمان، أولج الجراحان مسامير ربط في جانبي عظم كل من فخذي ديفيد، في مستوى أعلى قليلاً من الركبتين.

ومن ثم وضع الجراحان جهازاً للجذب فوق سرير ديفيد. وكان الصبي مصاباً

(٢) (Ventricle) كيس طويل ضيق مليء بالسائل الدماغي - الشوكي.

ايضاً بكسر في أيسر الترقوة (عظم الرقبة) خفي على الاطباء لدى دخوله. وجلّ ما يمكن عمله في معالجة الترقوة هو تجميدها. وكان ديفيد كله مجمّداً.

في التاسعة والنصف مساءً، بعد سبع ساعات من الحادث، توجّهت ممرضة وحدة العناية الفائقة إلى غرفة الانتظار ورافقت والدي ديفيد إلى سريره.

كان ديفيد مستلقياً في السرير ورجلاه مرفوعتان. وقد بدا أصغر حجماً مما هو لأنه شغل ربع مساحة السرير الكبير وكان جهاز التنفس يهسّ ويطقّ باستمرار مؤمناً له الهواء. وكانت الأنابيب الوريدية نابتة من رقبته وحقويه وذراعيه.

وعرض المرقاب الالكتروني إلى جانب سريره سلسلة من الاشكال المتموجة والأرقام باللون الأصفر الزاهي. ووسط هذه العناية التكنولوجية الرفيعة رقد ديفيد بسكون تام وصدره يعلو ويهبط ايقاعياً. وبدا نائماً هانئاً.

قالت الممرضة: «ديفيد! ماما وبابا هنا.»

وقف الوالدان بهدوء إلى جانب سرير ابنهما. وأمسكت الام بيده فيما راح الاب يمرر يده على كتفه. قالت بات: «انك في المستشفى يا ديفيد. وأنا وبابا معك هنا. نحن نحبك يا ديفيد وسنبقى معك.»

ثم جالت الممرضة على كل الانابيب المربوطة إلى ديفيد وأطلعت الوالدين على وظيفة كل منها مشيرة إلى أرقامها على شاشة المراقبة. وأضافت ان ديفيد يسمعهما ويحس ملمسهما من دون شك وإن يكن فاقداً الوعي ومخدراً. فليكلّماه، وليلمساه مقدار ما يريدان، فالاولاد يستجيبون للمس والمكالمة فيسيرون في طريق الشفاء على نحو أفضل.

ويعرف المختصون بالطبابة أن الإصابة بالصدمات يرافقها ارهاق يشمل كل العائلة وينغّص عيشها. وقلة من المؤسسات تعير هذه الناحية اهتمامها، و«مستشفى الأطفال» هو أحد هذه القلة.

قاعدة «تود وليندساي»

ان مقياس الدكتور ايكلبرغر في غاية البساطة: كل طفل يدخل المستشفى يحظى بالمعاملة التي يتوقع هو أن يحظى بها ولداه تود وليندساي. وهو من غلاة أنصار «الثقة النوعية» منذ قبل أن يصبح هذا التعبير شائعاً.

في مستشفى الأطفال تقع مسؤولية العناية الفائقة بالثقة النوعية على منسّقة الصدمات هايدي زفيك. فهي تنظر يومياً في لائحة كل ولد بغية تحديد أي مشاكل محتملة ومعالجتها قبل حدوثها.

زفيك ممرضة متمرسة في غرفة الطوارىء يحفزها دافع قوي إلى العمل. ولا أحد يمكنه اتهامها بالتواني أو إضاعة الوقت. فأول ما تفعله في الصباح هو أن

تملأ فنجاناً كبيراً قهوة وتتوجه إلى مكتبها حيث تتفحص القائمة الكاملة لكل الاشخاص الذين أدخلوا المستشفى.

في التاسعة والنصف كانت زفيك ملأت كدسة من البطاقات، وكانت الاولى بطاقة ديفيد مايرز. ثم نهضت لبدء جولتها الصباحيّة على المرضى.

حالما دخلت غرفة العناية الفائقة عرفت ديفيد مايرز، فقد كان محاطاً بأدوات الجذب من حبال وعوارض وبكرات رافعة. وعند طرف السرير جلست ممرضة في كرسي بلاستيكي وهي مستغرقة في الكتابة. والى يمينه جلست امرأة صغيرة الجسم أنيقة بدت منهكة. فقالت زفيك في نفسها: لا عجب في ذلك اذا كانت لا تزال هنا منذ بعد ظهر البارحة.قالت زفيك من دون مقدمات: «مرحبا، أنا هايدي منسقة حالات الصدمات. هل أنت السيدة مايرز؟ أومأت المرأة برأسها أن نعم. ثم التفتت زفيك إلى ديفيد وسألت: «كيف حاله؟»

أجابت مايرز: «لقد أمضى ليلة مضطربة جداً، فما فتىء ضغط دمه ينخفض والضغط في رأسه يرتفع.» كان كلامها هادئاً متزناً وفي صوتها من التعب والكآبة والالم ما قبض نفس زفيك شفقة وعطفاً.

تابعت مايرز: «أمس خشي الأطباء أن نفقده، لكن الدكتور كارمي - جونز طمأننا إلى أنه اجتاز الليل بسلام لذا ازداد الأمل في شفائه.»

سألتها زفيك: «هل كارمي - جونز هو الذي يعتني بديفيد؟» أومأت مايرز برأسها ايجاباً فتابعت زفيك هامسة: «إن كاي - جي هو أحد أفضل الأطباء.» وأشاع كلامها بهجة في نفس مايرز.

ثم قالت زفيك: «علي أن أذهب الآن، لكني سآتيكما مراراً. دعيني أعرف ما اذا جدّت معكما مشاكل أو أسئلة تريدان طرحها.»

كان مضى على ديفيد في المستشفى أقل من ٢٤ ساعة، ولكن لائحته البيانية ملأت ٢٤ صفحة. ويتعين على المستشفيات تدوين المعالجات الطبية بكل تفاصيلها، وتقضي زفيك قسماً كبيراً من وقتها في مراكز التمريض تطالع البيانات الطبية.

تفحّصت زفيك سجل ديفيد بدقة واطّلعت على اصاباته وملاحظات الاختصاصيين في شأن كل منها. أفاد تقرير فريق الإسعاف أن الحادث وقع قبل وصول ديفيد إلى المستشفى بساعة واحدة. فاتصلت زفيك بالمدير الطبي في مركز الاسعاف لمعرفة سبب التأخر الذي حصل. وغالب الظن أن ثمة ما يبرره، انما واجب زفيك يقضي بالتدقيق وفق «قاعدة تود وليندساي.»

خلال تنظيم خدمات الصدمات في المستشفى كان الدكتور ايكلبرغر يعلن لكل المعنيين أن الاولاد ليسوا راشدين صغاراً. فيذكر، مثلاً، أن رأس الولد هو أكبر

بالنسبة إلى بقية جسمه، مما يجعل الاولاد أكثر تعرضاً لاصابات الرقبة والرأس. كما أن جسم الولد يفقد الحرارة أسرع من جسم الراشد، فاذا أصيب الولد بصدمة فيجب التفكير في طرق لابقائه دافئاً.

ولدعم طلبه تأمين جرّاح للاطفال في مركز الصدمات، أورد ايكلبرغر مثالاً آخر عن الطحال. فمن المألوف لدى الراشدين أن يُنزع الطحال في حال نزفه من دون أن يتأثر المصاب بفقده. أما لدى الأولاد فالطحال حيوي وضروري لتنمية جهاز المناعة. فاذا نُزع فقد يتعافى الولد، ولكن بعد مضي أشهر أو سنين قد يصاب بزكام ويموت من دون انذار. والجرّاح الكفي لصدمات الاولاد يمكنه إصلاح الطحال، اذا كان ذلك في حيّز المستطاع.

وفي مطالعة الكتب الطبية وجد ايكلبرغر أمثالاً كثيرة للتباين العميق بين صدمات البالغين وصدمات الاولاد. وعمد إلى نشر هذه المعلومات في سلسلة من المحاضرات.

والكلام على اصابات الأولاد حمل ايكلبرغر على التساؤل عن طرق اجتنابها. فشدّد على أن في الإمكان تفادي معظم الحوادث، وأن اللوم يقع غالباً على الكبار.

كان مارتي دائماً لطيفاً مع الآباء والامهات، ومن أقواله المحببة: «إن الولد المصاب لديه دائماً عائلة مصابة.» ولكن بعد مشاهدة عدد كبير من الأولاد الذين أصيبوا نتيجة اهمال أوليائهم ربط أحزمة المقاعد أو اخفاء الادوات الكهربائية أو تغطية منافذ التيار الكهربائي أو اقفال النوافذ، بدأ مارتي يعلن بشدة أن الحوادث لا تقع الا نتيجة الاهمال. فالحادث مجرد كلمة نستخدمها لتغطية سقطاتنا.

استخدم ايكلبرغر خبيرة العلاقات العامة هيرتا فيلي لترويج فكرة انشاء مركز صدمات للاولاد. وهي طالما سمعت ايكلبرغر يردد: «ليس هناك حوادث، بل أفعال اهمال...»

فقاطعته أخيراً: «ولماذا لا نعمل شيئاً في هذا الشأن؟»

سألها مارتي: «ماذا تقترحين؟»

فردت: «لماذا لا نطلق حملة وطنية تتمحور على اجتناب وقوع الحوادث؟ حملة جامعة تشمل إعلانات في التلفزة والراديو، وتشكيل منظمات محلية، وتنظيم «أسبوع حماية الأولاد.» فالناس يعملون أي شيء من أجل الاولاد.»

كان من الواضح أن فيلي ملهمة للقيام بهذا العمل. فسعت وجمعت مالاً من شركة «جونسون وجونسون» صانعة الضمادات الصحية «باند ـ إيد...» وعام ١٩٨٨ حملت هي وايكلبرغر الرئيس الامريكي آنذاك رونالد ريغان على إعلان الاسبوع الواقع بين ١٦ و ٢٢ مايو (ايار) «أسبوعاً وطنياً لحماية الاولاد.» وبثت شبكات التلفزة اعلانين عن توزيع كتيبات مجانية في هذا الشأن.

كانت فيلي تأمل أن يصل عدد طلبات الكتيب إلى ٣٠ ألفاً خلال ثلاثة أشهر من الحملة. انما لم تمر عشرة أسابيع الا وكان عدد الطلبات بلغ ٧٠ ألفاً. وبدلاً من نشوء ١٢ تكتلاً لحماية الطفل في أنحاء البلاد بلغ العدد خمسين. وسلطت الحملة الضوء على مشكلة متفاقمة صدمت كل من سمع بها واهابت به الاندفاع إلى العمل.

اعتقدت فيلي أن في الامكان تفادي معظم الحوادث القاتلة في البلاد. وبهرها أن في وسعها انقاذ حياة ألوف الأولاد سنوياً فينشأون أصحاء أقوياء منتجين، فخراً لأهلهم ودعامة لأوطانهم.

طرق إلى الشفاء

في وحدة الحروق في مستشفى الاطفال اكتشفت المرضات أن ريتشارد (عمره ٥ سنوات)مولع بالجيلاتي (البوظة) وأن هذه هي نقطة ضعفه. وبعد تنظيفه وشعوره بالاطمئنان قدم اليه كوب جيلاتي، فتناوله من يد الممرضة وراح يلتهم الجيلاتي بشهية. وتكلم قليلاً، لكنه صمت وتصلّب حالما دخل الطبيب. وبدا متوتراً.

حين يخامر المسؤولين في مركز الصدمات شك في أن ولداً أسيئت معاملته وتعرض للاذى، يطلبون اجراء فحص بالاشعة السينية (إكس). ولذا قال الطبيب للمرضات: «لا عجب، فقد رأيت صور الأشعة وفيها آثار ثلاثة كسور قديمة. ما من شك في أن هذا الولد ضرب بعنف.»

أمضت والدة ريتشارد ليلتها في غرفة انتظار وحدة العناية الفائقة. وحين سمحت لها المرضات بعيادته بدا مسروراً وضمها اليه بلهفة وبكى قليلاً وقال لها: «أكلتُ الجيلاتي.»

بعد ذلك اجتمعت المرضات وتباحثن في أمر ريتشارد. ورأين أن الأم ليست هي المذنبة، ودوَّنَّ هذه الملاحظات في سجل الصبي. ثم قدمت طبيبة من قسم حماية الأولاد لفحص ريتشارد وقرأت الملاحظات. فاتصلت بدائرة الخدمات الانسانية في واشنطن ثم بدائرة الشرطة. وبعد ساعة وصلت طبيبة نفسانية من قسم حماية الاولاد، وعاملة اجتماعية من دائرة الخدمات الانسانية، وشرطي سري، فاجتمعوا بوالدة ريتشارد وخطيبها. وكانت مواجهة متحفظة ذات طابع عملي.

قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام اجتمعت الطبيبة ماري فالات والدكتور رياض كارمي ـ جونز والأطباء المقيمون الآخرون عند سرير ديفيد للتباحث الصباحي المعتاد. فتم قرارهم على ازالة أنبوب الرّغامى. وللمرة الاولى منذ أسبوعين بدأ ديفيد يتنفس ذاتياً، وان بتشنج في البداية. ولكن تنفسه أضحى أكثر إيقاعاً. انما نظراً إلى المضاعفات التي طرأت لاحقاً، فقد اقتضى اخضاعه لجراحة فغر الرغامى.

بعد أسبوع سُرِّح ديفيد من وحدة العناية الفائقة. وكان الوالدان ممتنين لهذا التغيير، اذ ان في كل غرفة عادية في مستشفى الاطفال أريكة إضافة إلى السرير، حيث يسمح لأحد الوالدين بأن ينام، وهذا غير مسموح في كثير من المستشفيات. وفي مستشفى الاطفال لا يسمح للوالدين بالنوم فحسب، بل انهم يُحضّون على قضاء الليل مع أولادهم المصابين.

كان للحادث وقع قاس على والدي ديفيد، فقد استنزفهما عاطفياً وأهدر وقتهما واضطرا إلى التغيب أياماً عن عملهما. وكان الاب موظفاً في مكتب التحقيق الاتحادي (FBI) والام موظفة في مصلحة الارصاد الجوية. وكانا يجلسان قرب سرير ديفيد ويكلمانه، لكنه بقي أياماً لا يبدي اشارة إلى انه سمعهما. ثم في أصيل أحد الأيام انحنى الوالد فوق ديفيد وهمس له عبارة مألوفة كان يقهقه كلما سمعها: «مرحباً يا ذا الرأس المكبوس.»

ابتسم ديفيد الصغير ابتسامة عريضة فوثب الاب كمن صعقته الكهرباء.

بعد ذلك برزت علامات تحسن صغيرة، لكنها سرعان ما كانت تزول. وكان ديفيد يفيق ثم يعود إلى الغيبوبة. وحين يفتح عينيه كانتا تبدوان كعيني أعمى لا تتعقبان أي تحرك.

وصار لديفيد رفيق جديد هو جيم ريدل. وكانت مهنة ريدل في الظاهر جلب اللعب إلى غرف الاولاد ومساعدتهم على التسلّي بها، وكان مثل «بابا نويل» يوزع الهدايا على مدار السنة. لكن ريدل كان مراقباً متدرباً، وعمله يهدف إلى توفير حافز لتعافي ديفيد وتقويم مدى تقدمه في هذا المجال.

في أول زيارة لديفيد أحضر له ريدل جرس يد صغيراً، وضغط أصابع ديفيد على قبضة الجرس وحمله على التلويح بيده ليرنه. ابتسم ديفيد.

قال ريدل: «هيا يا ديفيد، اقرع الجرس.» فلم يحصل شيء.

تابع ريدل حث ديفيد على رن الجرس. وببطء شديد استجاب الصبي ولوح بيده أخيراً فرنّ الجرس. بعد ذلك رفعه في الهواء وهزّه فرنّ. فارتسمت على وجهه علامة البهجة وابتسم.

وابتسم ريدل أيضاً مبتهجاً. ففي سجل ديفيد الطبّي وجد ريدل ملاحظات تشاؤميه، اذ ان ديفيد، بحسب تشخيص الاختصاصيين، قد يكون فاقد النظر والنطق وكسيحاً ومصاباً بتلف شديد في دماغه. لكنه بعدما شاهد ما فعله ديفيد بات غير متيقّن مما دوّنه الاطباء.

انطلقت سيارة الاسعاف مولولة ومتواثبة في شوارع واشنطن محاولة كسب بعض الثواني في اندفاعها إلى مستشفى الاطفال. وفي المقعد الخلفي كان أحد

المساعدين الطبيين يكافح لحفظ توازنه وهو منحنٍ فوق مصابة يضغط ايقاعياً على صدرها.

كانت المصابة فتاة في الرابعة عشرة من عمرها. وهي كانت واقفة مع صديقاتها في ملعب المدرسة، واذا بثلاثة شبان يمرون على دراجات نارية فيطلق أحدهم النار من مسدس فيصيب تانيسا ستارنز. وحين وصلت سيارة الاسعاف كان النبض والتنفس غائبين. فكشف المساعدون الطبيون الاصابة تحت سترتها ووجدوا جرحاً صغيراً في الجانب الأيسر من صدرها. فأولجوا على عجل أنبوباً وريدياً، وفي أقل من خمس دقائق انطلقت السيارة إلى مستشفى الاطفال.

تنفس السائق بعمق واتصل بالمستشفى: «نحن في طريقنا إليكم ومعنا فتاة مصابة بطلق ناري في الجانب الأيسر من صدرها. النبض غائب كلياً. نجري انعاشاً قلبياً ـ رئوياً. نصل خلال أربع دقائق.»

حسناً. بعد أربع دقائق نكون جاهزين.»

ثم اتصل عامل الهاتف في المستشفى بغرفة الصدمات في غرفة الطوارىء معلناً وصول «حالة انعاش قلبي رئوي.»

ثقبان في القلب

وصلت هايدي زفيك، فبادرها عامل الهاتف: «رصاصة في الصدر.» تسارع فكر زفيك: إن غياض النبض بهذه السرعة يعني أن الرصاصة اخترقت القلب ومزّقت الغشاء المتين حوله. ففي هذه الحالة يمتلىء الغشاء دماً فينتج ضغط يمنع القلب من النبض. والعلاج الوحيد هو اجراء جراحة فورية للقلب في «غرفة الشيفرة.»

اتصلت زفيك بالدكتور كورت نيومان الذي كان يجري جراحة صغيرة لاحد الاطفال. وما ان سمع النداء حتى نزع قفازيه، وسلّم المبضع والمرقأة (أداة موقفة للنزف) إلى الطبيب المساعد لاكمال الجراحة وهرع إلى غرفة الطوارىء.

قبل وصول الجريحة بنحو ستين ثانية بدأ نيومان تنظيم فريقه. فأمر احدى ممرضات وحدة العناية الفائقة بفتح عدة جراحة الصدر. وقال للجراح المقيم: «وأنت، ابدأ بكشف الاوردة ونقل الدم. أين الدم؟»

أجابت احدى المرضات: «لدينا وحدتان، وهناك وحدات أخرى آتية.»

يجري نقل الدم إلى المصاب بالطريقة الاسرع فيشق اللحم ويكشف أكبر وريد يعثر عليه ويولج فيه أنبوب، فيشكل ممراً واسعاً يُنقل الدم عبره إلى المجرى الدموي، فتتوافر أكبر كمية من الدم لتعويض الدم النازف بغزارة.

فتحت الابواب ودخل ثلاثة مساعدين طبيين يجرون المحفّة إلى «غرفة

الشيفرة». فقال أحدهم ملتقطاً أنفاسه: «لقد سجلنا نبضاً قبل لحظات. لكنه متقطع.»

وكان صدر الفتاة يعلو ويهبط من غير انتظام، وتنفسها يخرج أجشّ جافاً من حلقها. لصق الجراح المقيم قرصين لمراقبة القلب على صدرها. وبان جرح الرصاصة ثقباً صغيراً أسود متجعّداً، وظهرت كمية قليلة من الدم مضللة واقع النزف الحقيقي.

وخز أحد الأطباء وريداً وحقن عبره أدوية للقلب. وأعلنت الممرضة إلى اليسار: «لا أستطيع التقاط النبض، إنه غائب كلياً.»

أشار نيومان إلى المساعد الطبي: «نريد منك أن تقوم بانعاش قلبي ـ رئوي.»

فتقدم المساعد وراح يضغط صدر الفتاة ايقاعياً فيما نيومان يتفحص مرقاب القلب، فوجد أن ثمة نشاطاً كهربائياً ولكن لا نبض للقلب.

تناول نيومان قارورة تحوي مادة مطهرة، ومسح صدر الفتاة، وجنبها الأيسر. وناولته ممرضة قفازين معقمين فأدخل فيهما يديه. ومسح ثانية بقطعة شاش مغموسة بالمطهّر. وتناول المبضع.

شقّ نيومان بقوة بين الضلعين الخامس والسادس. ولم يحدث نزف، لأن ضغط الدم كان معدوماً. ولم يتسع الوقت حتى لتخدير المصابة، لكنها كانت فاقدة الوعي. وهي اعتبرت ميتة تقنياً.

أنهى الطبيب إلى اليمين عملية كشف وريد ثان في الأربية (أصل الفخذ) وعلق كيساً من الدم. فأمر نيومان احدى المرضات: «اضغطي!» وكانت الفتاة تلقت عبر الانابيب الوريدية وحدة دم كاملة من فئة «O».

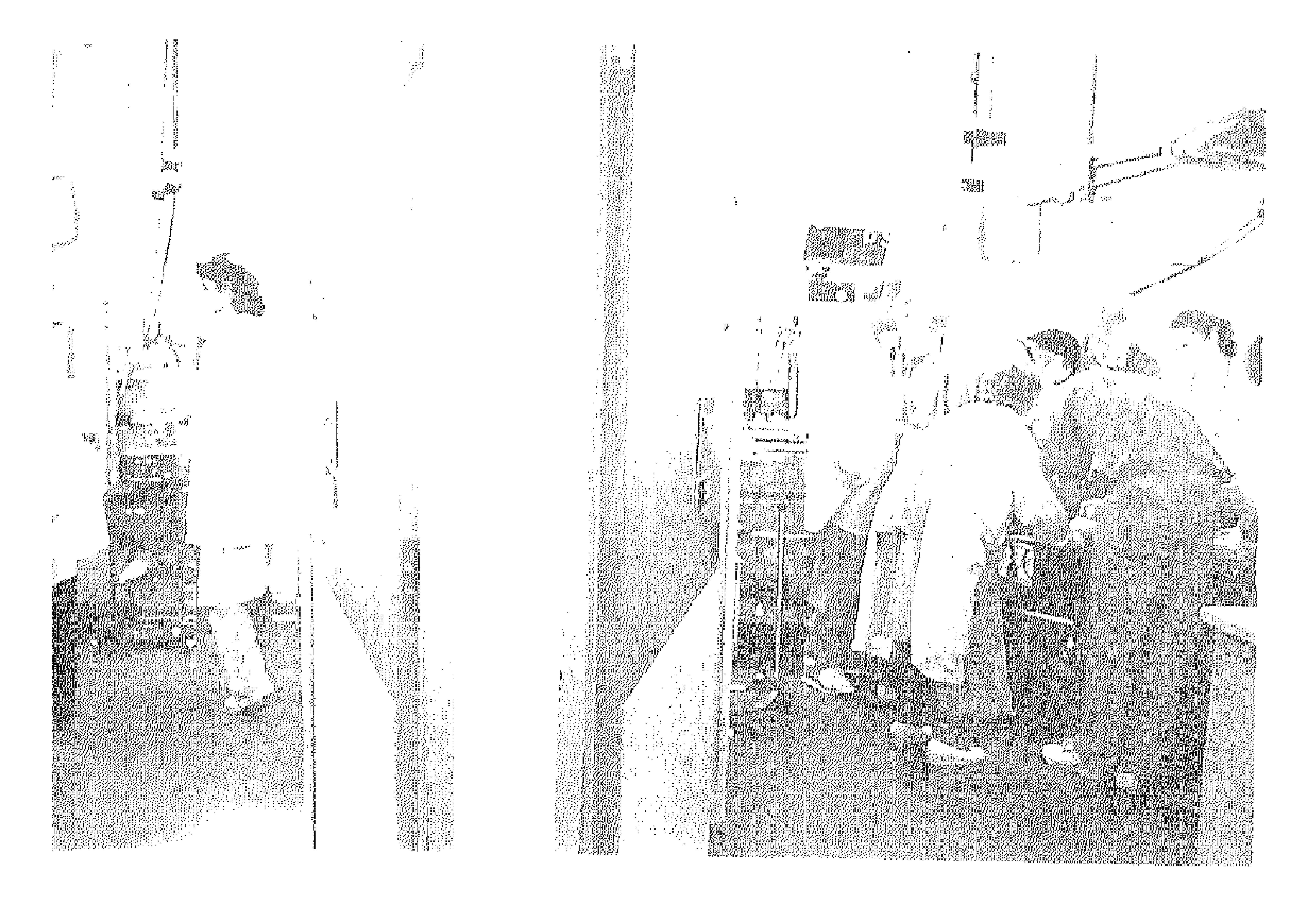
واندفع أحد تقنيي «بنك الدم» حاملاً وحدتين أخريين.

في هذه الاثناء كان نيومان يشق العضل طبقة بعد طبقة. وما ان اخترق المبضع تجويف الصدر حتى انبثق الدم. وفيما توسّع الشق تحول التنقيط فيضاً تدفق على الأرض وعلى سروال الجراح وحذائه.

تحسّس نيومان الشقّ باصبعه فوجده غير كاف، فطلب مقصاً من المرضة وراح يعمل على توسيعه. وكان يقبض على المقص بكلتا يديه لقص الضلوع التي تعترضه. ثم عاد وفحص الشق فدخلت يده براحة.

قال للمساعد الطبي: «حسناً، حين أشير اليك أوقف جهاز التنفس لثانية واحدة فقط.» وجلس القرفصاء يتطلع عبر الجرح إلى الغشاء الذي يغلّف القلب، فقد كان أزرق داكناً ومنتفخاً وممتلئاً بالدم. وتعيّن عليه شقه لاخراج الدم ولكن بأقصى الحذر مخافة قطع عضل القلب.

اقتضى ذلك عدة محاولات خائبة قبل أن يلقط الغشاء ويشبكه بالمرقأة. ثم



في غرفتي «الشيفرة» في مستشفى الاطفال يتولى فريق «القلب الداخلي» معالجة الاطفال ضحايا الاصابات البالغة.

سحب قسماً من الغشاء مكوّناً «خيمةً» صغيرة ومدّ يده وقطعها فتدفق مزيد من الدم على الأرض. وانسابت أصابع يده اليمنى عبر الغشاء المفتوح والتفّت حول عضل القلب الناعم المرتعش. وراح يضغط ثم يرخي بحذر. فاستجاب القلب بانقباض تلقائي.

عندما تحرك القلب أحس نيومان الدم يجري على كفه. وراح يمرر أصابعه مستكشفاً سطح القلب إلى أن اهتدى إلى الثقب في أعلاه. فزلّق ابهامه عليه وراح يستكشف مؤخر القلب، فعثر على جرح الخروج وسدّه بالوسطى. عندئذ عاود القلب الانقباض.

هتفت احدى الممرضات: «إني ألتقط نبضاً!»

فقال نيومان: «لم ننته بعد. اني أضع اصبعيّ على ثقبين في القلب.»

١٧ دقيقة

وفق الجدول الزمني، عاد قلب تانيسا ستارنز يخفق بعد ست دقائق من ادخالها «غرفة الشيفرة». في الجراحات العادية يستغرق فتح الصدر ١٥ دقيقة، ولكن نيومان أتمّ العملية في أقل من ٥ دقائق.

وكانت يده اليمنى تحتضن قلب تانيسا، وبالابهام والوسطى ضغط بلطف

الثقبين في البطين الأيسر. وشعر بسرعة النبض الفائقة التي جاوزت القلب إلى اعادة الحياة إلى جسم نَهم للاوكسيجين. وبدأ يعاني ألماً في كتفه، لكنه لم يكن قادراً على التحرك وهو يسد باصبعه جرح الرصاصة القاتل في قلب الفتاة. كان يمسك بحياتها في راحة يده.

راح نيومان يستكشف بأنامله سطح العضل النابض وكوّن في ذهنه صورة ثلاثية الأبعاد. كان جرح اختراق الرصاصة قريباً إلى حد خطير من أحد الاوعية الكبيرة التي تمد القلب ذاته بالدم. فجسّ بسبابته سطح القلب لكي يهتدي إلى الشريان. فاذا كانت الرصاصة قطعت ذلك الشريان فان قسماً من امداد القلب الدموي مقطوع باصبعه. وللمرة الاولى تساءل نيومان: هل كتب لهذه الفتاة أن تبقى حية؟

وكان سبق لنيومان أن عالج ولدين بجروح مماثلة. وفي الحالتين عمد إلى فتح صدر الولد في «غرفة الشيفرة» في كفاح مرير ضد الموت. وفي المرتين لقي اخفاقاً تاماً. والاحتمال كبير أن يخفق ثالثة. فعلى رغم الجهود المضنية قد تكون الفتاة في الواقع ميتة الدماغ، أو أسوأ من ذلك، قد يكون دماغها تالفاً على نحو لا سبيل إلى اصلاحه.

وإلى ذلك هناك خطر العدوى، فلم تكن «غرفة الشيفرة» جناح عمليات معقماً على نحو شامل، بل هي غرفة لا تبعد سوى بضعة أمتار عن الخارج المشحون بالجراثيم.

عرف نيومان أن عليه اقفال ثقبي الرصاصة بسرعة، وعليه لذلك أن يستعين بجراح للقلب. وأدنت احدى المرضات الهاتف من أذنه، فتحدث إلى الدكتور فرنك ميدجلي في جناح العمليات في الطبقة الثانية، ولخص له الحالة كما هي.

لم يكن من السهل رقع ثقب في قلب نابض لكون القلب في تحرك دائم مما يجعل الخياطة صعبة. فحالما ترفع الاصبع عن الثقب يتدفق الدم ويغطي كل المعالم البنيوية حوله.

لكن ميدجلي ونيومان توصلا إلى حل للمشكلة باستخدام ضمادات صغيرة هي سدادات لبّاد معقّمة تمتصّ الدم وتنتفخ فتتحول كتلة متخثرة توقف النزف. فرفع نيومان اصبعه عن الجرح الأمامي وأقفله بضمادة ثبتها بإصبعه فيما راح الدكتور ميدجلي يخيطها إلى سطح القلب.

اما قفا القلب فكان أقسى، وجُرْح خروج الرصاصة أكبر وأكثر تثلماً. ورفع الجراحان القلب واداراه لكي يتمكنا من رؤية الجرح. وعملا منحنيين فوق جسد الفتاة، ووضعا الضمادة الثانية في مكانها فوق الثقب وخيطت لتثبيتها.

وانتهى الجراحان، فاستويا واقفين وراح نيومان يلوي كتفيه التعبتين.

بقي على الجراحين اصلاح الثقوب في رئتي تانيسا التي أحدثها خروج الرصاصة. لكن الأزمة الملحّة انتهت، فقد عاد قلب الفتاة إلى النبض.

قال نيومان: «اعتقد أن في امكاننا نقلها إلى الطبقة العليا واجراء التنظيف هناك.» فوافق ميدجلي. فمشى نيومان في القاعة متوجهاً إلى حجرة الملابس مخلفاً آثار أقدام حمراء. وبحسب لائحة الوقت كانت مرت ١٧ دقيقة منذ باشر الشقّ، لكنها بانت كأنها لا تنتهي.

مرة في العمر

يسود جميع مستشفيات الاطفال جو من الدفء والعطف والثقة والطمأنينة، تساعد في مؤاساة المصاب وشفائه. ولا يحصل هذا الجو عفوياً، بل يصنعه مئات العاملين في المستشفى الذين يحبون الاولاد ويرون في هذه المحبة غاية سامية وواجباً انسانياً يأتي في طليعة اهتماماتهم.

يعرف مارتي ايكلبرغ وفريقه، من خلال خبرتهم الاليمة أحياناً، أن ليس في الإمكان معالجة كل الاصابات بنجاح مهما بذلوا من جهد وسكبوا من محبة.

غير أن معظم الحالات في مستشفى الاطفال تنتهي إلى خاتمة سعيدة. فها هو ريتشارد، الصبي الذي أسيئت معاملته وأحرقت ذراعاه، قد شفي تماماً إلى حد أن الجلد لم ينسلخ. ونقل إلى جناح آخر لدى ادخال ولد جديد مصاب بحروق.

وكانت علة ريتشارد آنذاك اجتماعية لا طبية. فقد أصدر أحد القضاة أمراً يحرّم على الأم وخطيبها زيارة ريتشارد من دون مراقبة أو اخراجه من المستشفى. ولم يطل الأمر حتى اعتقلت الشرطة الخطيب واتهمته بجناية الحاق الاذى بالولد.

أما ديفيد مايرز، فوفقاً لجميع الاعتبارات كان مكتوباً له مصير مأسوي. لكن ما تحلّى به من مقاومة طبيعية وصلابة، والاهتمام الدائم للاطباء والممرضات، جعلاه يتغلب على مأساته ويبقى حياً.

قال الأطباء أن أوتاره الصوتية مشلولة وقد لا يتكلم أبداً. ولكن وقت غادر إلى «معهد كينيدي للاولاد المعاقين» في بلتيمور كان تعلّم أن يضع أصبعه على أنبوب الرّغامى ويجمع قوة من الهواء تمكنه من قول «هاي!»

وقال الأطباء إن دماغه مصاب بتلف شديد وقد لا يرى أبداً. واذا بوالده يكتشف ذات يوم في مركز التأهيل أن ديفيد يبتسم حين يقف إلى يساره وتغيب بسمته حين يقف إلى يمينه. فعمد المعالجون إلى فحص نظر ديفيد ووجدوا أنه استعاد نظره جزئياً مما يمكّنه من التنقل.

وحين عاد به أبوه إلى مستشفى الاطفال للفحص بعد مضي ستة أشهر، كان ديفيد أصبح قادراً على المشي واللعب وتركيب الكلمات في جمل بسيطة.



أما الأكثر إثارة فكانت قضية تانيسا ستارنز. فبعد ثمانية أيام من اطلاق الرصاص عليها وقفت أمام مكبرات الصوت في ردهة المستشفى ونطقت بصوت هادىء كلماتها الاولى:

«هاي، أشعر أني بخير.»

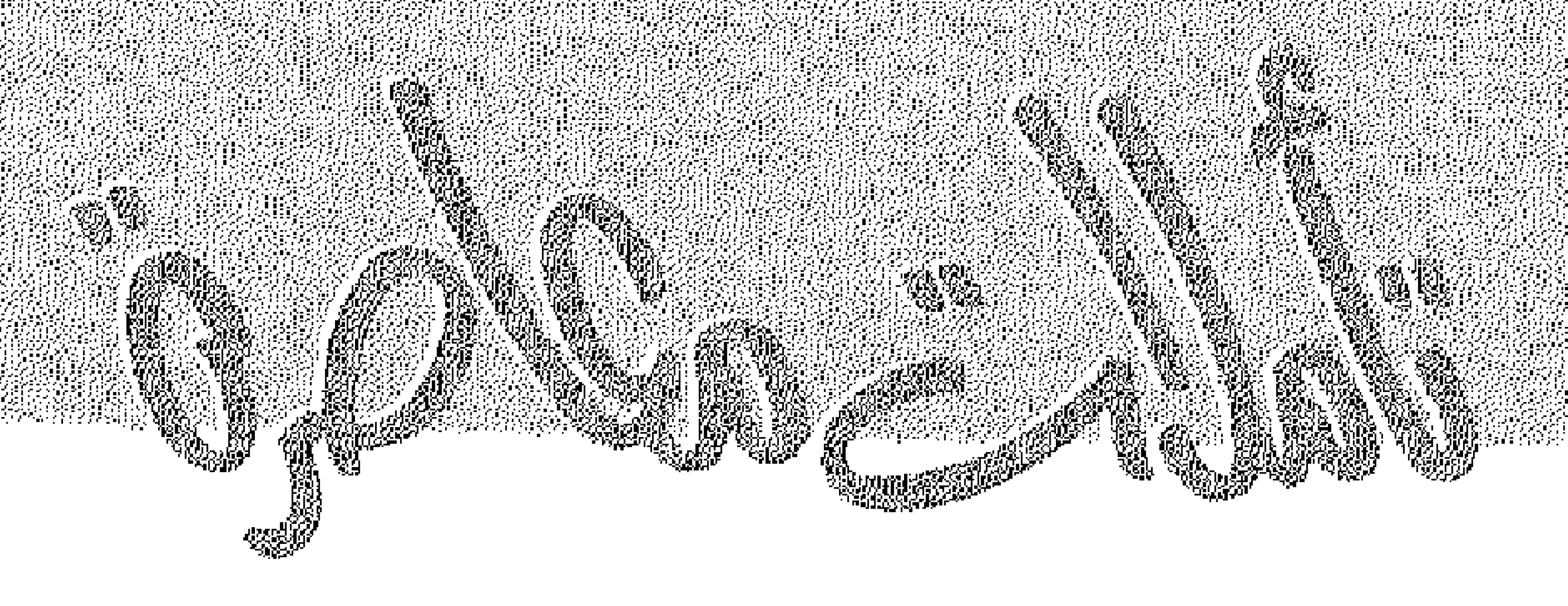
كان ذلك يوماً مشهوداً اذ راح المصورون يلتقطون صوراً للفتاة يحيط بها والدها والممرضتان اللتان تعتنيان بها والدكتور نيومان وثلاثة مساعدين طبيين في حضور الصحافيين ومندوبي التلفزة والاذاعة.

كانت تانيسا هي «الفتاة المعجزة.» وقال الدكتور كورت نيومان لاحقاً: «في الحقيقة ليس هناك كثير من العجائب ولكن هناك مقدار كبير من الحظ.» كانت تانيسا محظوظة لأن سيارة الاسعاف التي وصلت اليها ضمّت مساعدين طبيين حسني التدريب ومعاندين رفضوا أن يسلّموا بالفشل. وكانت محظوظة لأنها تقطن بالقرب من «المركز الطبي الوطني لمستشفى الاطفال» حيث أنشأ مارتن ايكلبرغر في العام ١٩٨٠ عيادة لمعالجة صدمات الاولاد.

هذه هي الغاية النبيلة التي تدفع الدكتور مارتي ايكلبرغر وجميع أعضاء فريق الصدمات في مستشفى الاطفال إلى العمل. ان انقاذ حياة طفل واحد هو عمل رائع، فكيف يكون انقاذ الوف الاطفال؟ انه حلم. وقد تحقق.

آلن دولب ■

ترجمة الياس عقل



أسمى أفعال الحب

انّ الانتباه الى حديث الغير هو اسمى أفعال الحب. وهذه حقيقة اكيدة، فاحدى اهمّ الأمثولات التي تعلمتها هي انه لا بديل من الاصغاء.

د.س.

هندسة عملية

صمّم مهندس معماري رائد مجموعة من أبنية المكاتب. وبعد انجاز عملية البناء سأله مهندس الجنائن أين يريد وضع أرصفة المشاة، فاجاب: «اغرسوا عشباً فقط بين الأبنية.» ومع نهاية الصيف كانت أقدام المشاة رسمت ممرّات متعرجة فوق المرج الأخضر. وفي الخريف رصف المهندس هذه الممرّات. فكانت النتيجة دروباً لا تتميز فقط بجمال الزخرفة بل تستجيب أيضاً لحاجات المشاة.

ك.و

عصر التلفاز

إن المجال المخيف الذي فتحه التلفاز في ردع الناس عن التحدث والقراءة يوحي بعصر قاحل بليد. فاستمرار هذا الوضع يؤدي تدريجاً، بحسب قواعد التطوّر، إلى نشوء مجتمع يتعذر تمييزه عن الأشكال الدنيا للحياة النباتية

لقد كشف علماء الفلك شيئاً على المريخ يشبه طحالب في طور النمو. وأنا مقتنع بأن أناساً عاقلين أمثالنا قطنوا المريخ من قبل، ونزلت بهم البلية قبل بضعة آلاف من السنين عندما اخترعوا التلفاز.

روبرت تشنز، مرب وكاتب امريكي

الفشل طريق النجاح

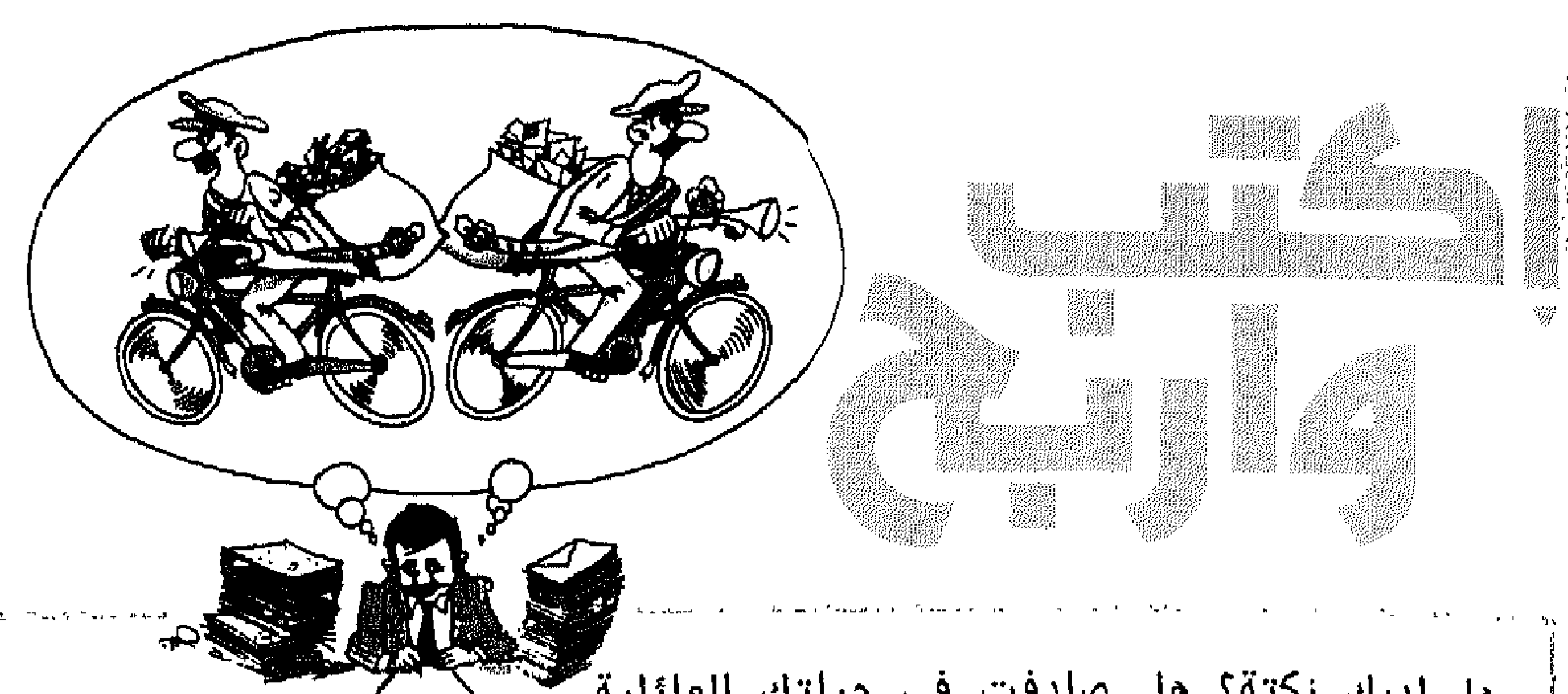
ما من شيء ينجح من المرة الأولى. فالاخفاقات المتكررة هي لافتات موجِّهة في طريق الانجاز. والمرة الوحيدة التي لا تخفق هي عندما تجرب شيئاً فيعمل. فالمرء يخفق قُدُماً نحو النجاح.

تشارلز كيترينغ، مهندس ومخترع في «جنرال موتورز» (١٨٧٦ - ١٩٥٨)

«فوتوجينيك»

يتفق أن الموفّقين في الصور الفوتوغرافية هم، الأفضل شكلاً في حالات الاسترخاء. أما الذين لا يكشفون انفسهم إلا أثناء الحركة والنشاط فصورهم المأخوذة خلال الاستراحة هي غالباً مزيفة. إن الجميلين في الصور هم الساكنون لا المتحركون.

سيدني هاريس



اكتب واربح

هل لديك نكتة؟ هل صادفت في حياتك العائلية أو المهنية حادثاً طريفاً؟ هل سمعت حكاية ذات مغزى وترغب في أن تشرك الآخرين في متعتها؟ خذ قلماً وورقة واكتب ما لديك وأرسله الى "المختار" فتدفع لك المجلة في المقابل، بعد النشر، حسب المعدلات الآتية:

صور من الحياة: القصة يجب أن تكون حقيقية تتحدث عن تجربة شخصية ناجحة ذات متعة خاصة. تدفع عن القصة الواحدة ٢٥ دولاراً.

تأملات معاصرة: مقاطع أصلية أو من كتب ومقالات منشورة تنطوي على مغاز حكمية. يدفع دولار عن كل سطرين.

حديقة أفكار: أقوال مأثورة للأعلام العرب. تدفع ٥ دولارات عن كل سطرين، على ألا يتجاوز القول المأثور السطرين.

الضحك خير دواء: تفضل النكتة الاصلية، أما اذا كانت منشورة فيجب أن تختار من المطبوعات المحلية ذات الانتشار المحدود. تدفع ٢٥ دولاراً عن الاصلية و١٠ عن المنشورة.

السدات: هناك نكات ونوادر قصيرة من مصادر مطبوعة مثل الكتب والمجلات ذات الانتشار المحدود. وهذه كذلك يرحب بها "المختار" ويدفع دولارين عن السطر ذي العمودين.

شروط جديدة

★ كتابة الرسائل بخط واضح، والا طبعها على الآلة الكاتبة.

★ كتابة مادة كل باب على ورقة منفردة.

★ ارفاق كل مادة بنسخة مصورة كاملة لصفحة الكتاب أو المجلة أو الجريدة التي تظهر فيها، شرط أساسي لقبول أي مادة، اذ من دونها يتعذر علينا التحقق من صحة المصدر.

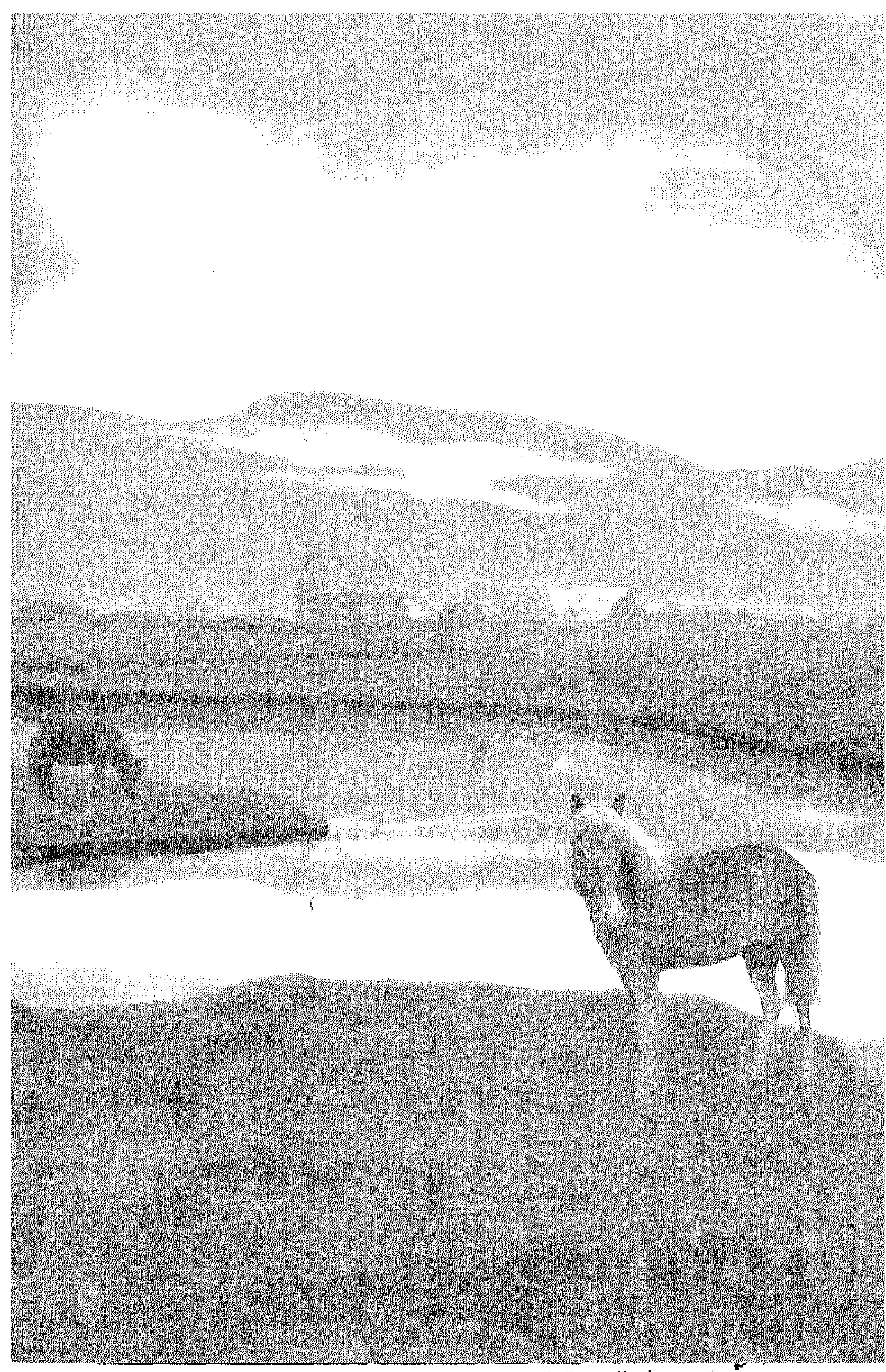
★ ذكر المصدر العربي ضروري ونعني بذلك: اسم الكتاب، اسم المؤلف، تاريخ النشر وعنوان الناشر كاملاً. (اذا اختيرت المواد من مجلة أو جريدة، فينبغي ارسال عنوان الجريدة أو المجلة كاملاً، خصوصاً اذا كانت المطبوعة محلية محدودة الانتشار).

★ تحاشي المواد المترجمة أو المستقاة من مصادر أجنبية.

★ لا ينظر في الرسائل التي تضم كدسات من المواد، فالمقصود أن يحسن القارىء الاختيار.

★ لا تعاد النصوص الى أصحابها، سواء نشرت أو لم تنشر.

توجه الرسائل الى العنوان الآتي: مجلة "المختار من ريدرز دايجست"، مركز ميرنا شالوحي، بولفار سن الفيل، ص. ب ٥٥٢٢٨، المتن الشمالي، لبنان.



«حصان البحيرة البيضاء» ـ زيتية للفنان ثورارين ب. ثورلاكسون